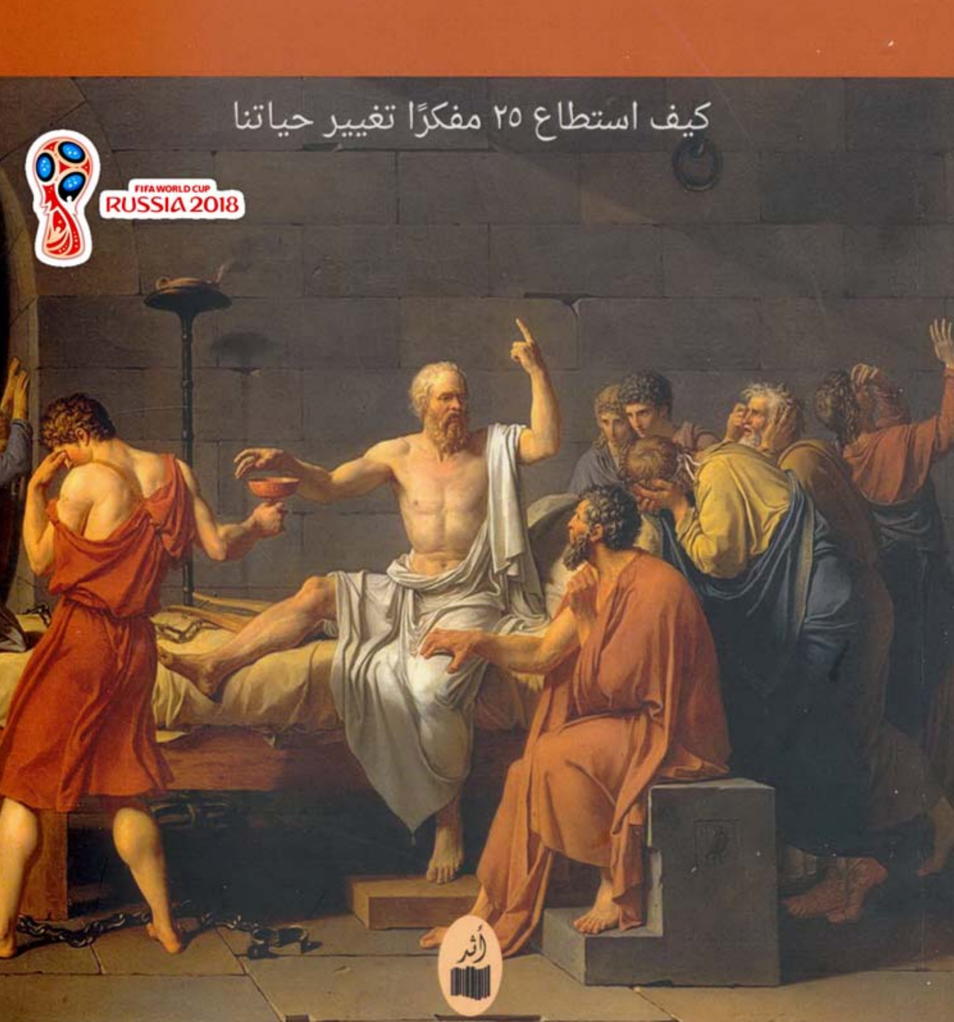
علي حسين

دعونا نتفلسف

كيف استطاع ٢٥ مفكرًا تغيير حياتنا



دعونا نتفلسف

كيف استطاع ٢٥ مفكرًا تغيير حياتنا

علي حسين



دعونا نتفلسف

دعونا نتفلسف / مقالات

تأليف: علي حسين

الطبعة الأولى 1439 / 2018

ردمك: 978-1-947836-01-3



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

تعالوا نتسلى مع الفلسفة!!

«الفلسفة لا تحتاج بتاتًا إلى المفردات الوحشية التي يُثقَل بها كاهلها، لأن القضايا التي تطرحها تعني أي شخص راغب في معرفة أحوال العالم وفهمه، ولذلك لا بد من تناول الفلسفة بلغة خالية من الرطانة»

بيار بردان، أحد مؤسسي
الأكاديمية الفرنسية، ١٦٣٤.

خلال الأشهر الأولى من صدور كتابي (في صحبة الكتب) بادرني عدد من الأصدقاء ليقولوا لي ما يلي: «كتبت عن عدد من الفلاسفة باعتبارهم أدباء بلغة بسيطة، فلماذا لا تكرر المحاولة وتصدر كتابًا عن الفلسفة بنفس اللغة البسيطة التي تحمل قدرًا من الوضوح؟»

وقد سنحت لي الفرصة في السنوات الأخيرة أن أقرأ عشرات الكتب عن الفلسفة ورجالاتها وتاريخها، وكنت كلما هبط الليل أنزوي في غرفتي لأحاور شخصية ساهمت بتغيير أفكارنا، والغريب أنني كلما لمحني أحد الزملاء في العمل منشغلاً بحل ألغاز بعض مصادر الفلسفة، يبادر بالقول: يا أخي ما لك وهذا التفلسف المتعب؟إننا بطبيعة الأمر كثيرًا ما نواجه بهذه العبارة «يا أخي لا تتفلسف». كيف شاعت هذه العبارة، ومن يغذّيها في وجدان الناس، وهل هناك حقًا ما يمنع الإنسان من أن تكون له فلسفته الخاصة تجاه

الحياة، وأن يكون له موقف نقدي لما يجري حوله؟ هذا الموقف من نفسك ومن الحياة، هو الضمانة لتجديد الحياة نفسها، وهو نوع من أنواع الفلسفة التي تجعلنا أكثر وضوحًا ونضجًا. وسواء قلنا مع أفلاطون إن الفلسفة هي دراسة الإنسان من حيث إنه مركز الكون، أو قلنا مع الروسي برديائيف إن الفلسفة هي معرفة الروح، أو ذهبنا إلى ما ذهب إليه ديكارت من أن الفلسفة مهمتها البحث عن المبادئ الأساسية للمعرفة، أو اعتبرنا مع هيدغر أن الفلسفة تبحث عن إجابة للسؤال الأساسي: لماذا كان ثمة وجود؟ أو قلنا مع ماركس إن الفلسفة هي القوانين الأساسية للحركة في الفكر والاقتصاد والمجتمع والطبيعة، أو وقفنا في الفلسفة عند كامو الذي اعتبرها توقظ الوعي وتخلصه من سلسلة الحركات اليومية، أو رفضنا مع جيل دولوز أن تكون الفلسفة مجرد تأملات فردية.الذين يقولون لك «لا تتفلسف» ربما لا يدركون أننا كبشر يجب أن نسأل أنفسنا صباح كل يوم: ماذا سنفعل؟ ما الذي نريد أن نصل إليه؟ ما الموقف النقدي من الحياة والمجتمع؟ صحيح أن الإنسان ليس فيلسوفًا بالفطرة، وإنما هو فيلسوف عندما يجد ما يدعوه إلى التفلسف، فالفلسفة - كما قرأنا عنها في الكتب - هي استجابة ذهنية، مثلما الشعر استجابة وجدانية. بعبارة أوضح ليست الفلسفة سوى تلك المحاولة التي يراد بها معرفة الكون والإنسان، المهم أن تقوم المشكلة التي تستدعي قيام الفلسفة، التي هي رد الفعل أو رجع الصدى، فلكي تكون هناك فلسفة لا بد من أن تكون هناك مشكلة، وإنسان يحس بالمشكلة، ويحاول أن يضع لها حلاً أو يتخذ منها موقفًا، فالفلسفة مشكلة وإنسان وما بينهما من علاقة.
إذن أنا وأنت عزيزي القارئ مطالبون جميعًا أن نكون فلاسفة، لا على غرار سارتر ووليم جيمس أو برجسون أو الفارابي، وإنما على غرار ما أخبرنا به هنتر ميد في كتابه (الفلسفة أنواعها ومشكلاتها)، والذي ترجمه د. فؤاد زكريا إلى اللغة العربية، من أن الفلسفة نشاط يشترك فيه البشر أجمعون، سواء

أكانت تلك المشاركة عن وعي أو بدون وعي.

الكلمة اليونانية «فيلسوفيا» تقول لنا إن الفلسفة هي التي حددت ملامح التاريخ المعاصر للإنسان، ويمكننا أن نقول إن تاريخ التطور البشري في صميمه فلسفي، ونشأة العلم وسيادة التكنولوجيا في أيامنا هذه ما كان لها أن تكون لو لم تسبقها الفلسفة، ولم نعرف ما الذرة والصاروخ والصعود إلى القمر لولا السؤال الذي ألقاه الحكيم اليوناني طاليس: «ما الوجود؟» إن كلمة الفلسفة كما يقول هيدغر مكتوبة على شهادة ميلاد أوروبا والغرب، وفي استطاعتنا أن نقول إنها مكتوبة على شهادة ميلاد عصرنا الذي نسميه عصر الروبوت.

يعتقد كثيرون أن الفلسفة هي أن تقول أو تكتب شيئًا لا يفهمه الناس، ويهتم به النخبة فقط. ولكننا يا عزيزي القارئ عندما نقرأ أنا وأنت سيرة سقراط وأفلاطون أو أرسطو، ومعهما سارتر وماركيوز وبرتراند رسل وعشرات غيرهم نجدهم جميعًا تحدّثوا إلى الناس بلغة مبسطة غير معقّدة يفهمها الجميع، وما دمنا أنا وأنت قد فهمنا أقوالهم من دون أي معاناة وتعقيد، فإن ما قالوه لم يكن كلاما مبهمًا، بل كان فكرًا واضحًا. وعندما نقرأ اليوم برتراند راسل، فيلسوف القرن الماضي، نجد أن معظم كتاباته، باستثناء الرياضيات، كانت مكتوبة للقارئ العادي، وكان هاجسه أن يصل إلى أكبر عدد من البشر، وليس فقط إلى أساتذة الفلسفة ومرتادي النوادي الثقافية.

بسؤالنا: «ما هذا؟» نحاول أن نحدد طبيعة الأشياء التي حولنا. فحين نسأل ما هذا الذي يبدو على البعد؟ ونتلقى الجواب أنه شجرة، ثم نعود فنسأل: «وما هذا الذي ندعوه شجرة؟» فإننا نكون قد اقتربنا من طريقة الفلاسفة، إنهم يسألون: ما هذا؟ فسؤالنا إذن هو أصل التفلسف، فلا فلسفة من دون أسئلة.

هذا الكتاب محاولة متواضعة للسؤال عن الفلسفة ورجالها، وكيف استطاعوا أن يغيّروا تاريخ البشرية، وأن يتركوا بصماتهم على حركة المجتمعات. وقد سنحت لي الفرص أن أفكر في كتابة عن الفلسفة، لها ولو قدر بسيط من الوضوح، كتابة تشبه جلساتنا في المقاهي، وقد طلب مني بعض الأصدقاء أن أجمع هذه الكتابات البسيطة في كتاب أسرد فيه تاريخ الأفكار والنظريات التي ساهمت في تغيير نظرتنا إلى العالم والأشياء.

صحيح أنني أردت من خلال هذه الكتابات أن أتسلى، أو أحاول أن أفهم العالم وذاتي بشكل أفضل، لكنني وجدت وأنا أقرأ العشرات من كتب الفلسفة، أن الفلسفة ليست مهمتها أن نفهم الأشياء المحيطة بنا كما أراد ديكارت، ولا تغيير العالم كما أصرّ ماركس، ولكنها -أي الفلسفة- تعلّمنا معنى الحياة، وتساعدنا على قهر المخاوف التي تشلّ حركة الحياة. وتاريخ الفلسفة ورسالتها يستحق منا الإصغاء إلى صوتها، لأن الفلسفة تستحق منا الحديث معها بألفة ومتعة.

-1-

الرجل الذي خرج للبحث عن نفسه

دائمًا ما يُثار هذا السؤال: من هو أول متفلسف في البشرية؟ لم يحسم التاريخ قط منشئ الفلسفة، قد يكون أحد فقراء الصين، أو كاهنًا في معبد من معابد بابل، أو وزيرًا في بلاط الفرعون أخناتون، إلا أن سجلات بداية الفلسفة تخبرنا أنه رجل نحيل كان يهوى صيد السمك اسمه هيراقليطس. كانت الصورة الرائجة عنه بين الناس أنه شارد الذهن، لكنه استحق لقب «صانع الحجج» عن جدارة. وقد جاء هيراقليطس حوالي ٥٤٠-٤٨٠ قبل الميلاد، وعند حديث أرسطو عنه يقول إنه أسّس أول ضروب الفلسفة، ولم يترك لنا هيراقليطس بالرغم من ذيوع شهرته سوى كتاب واحد عبارة عن حِكم مكتوبة بلغة أقرب إلى الشعر، أطلق عليها اسم (الشذرات) قال عنها سقراط: «ما أروع الجزء الذي أفهمه، وما أروع الجزء الذي لم أفهمه أيضًا، وهو يحتاج إلى غواص ماهر كي ينفذ إلى أعماق معانيه».شذرات هرقليطس، التي ترجمها إلى العربية مجاهد عبد المنعم مجاهد، نلمسُ فيها روحه الذكيَّة. يقول عن دورة الحياة والموت: «إن الزمن طفل يلعب النرد، والقوة الملكية إنما يتحكم فيها طفل»، ويقول عن التغيير الذي لا يلاحظه الناس: «إنك لا تستطيع أبدًا أن تنزل في النهر نفسه مرتين، لأن مياهًا جديدة تتدفق عليك بلا انقطاع»، ويقول أيضًا: «إننا ننزل في النهر نفسه ولا ننزل فيه، إننا نكون ولا نكون».تميّز بالنزعة الأرستقراطية، والاعتداد بالنفس، واحتقاره لمعتقدات

العامة، وازدراءه لعظماء أمته. فقد رُوي عنه أنّه بينما كان ذات يوم منهمكًا في اللّعب مع بعض الأطفال، أحاط به أعيان مدينته مستغربين فعله، فما كان جواب هيراقليطس لهم إلاّ أن قال: «إليكم عنّي أيّها السّفهاء! إن مخالطة الأطفال واللّعب معهم لأحكم للمرء من سياستكم». كان هيراقليطس يحب العزلة التي يحتمي بها من خرافات معاصريه الدينية، ونزوعهم نحو التفكير الأسطوري، ويؤكد على ذلك بقوله: «إنهم يعبدون تماثيل الآلهة كما لو كانوا يتحدثون إلى بيوتهم، وهم لا يعرفون ما الآلهة أو الأبطال».

ونراه يحمل على ممارستهم للشعائر الدينية فيقول: «إنهم يطهرون أنفسهم عبثًا حين يدنسون أنفسهم بالدماء، فهم في ذلك أشبه بمن يخوض في الطين ليغسل قدميه من الطين، فكل من رآه يصنع هذا لا بد أن يحكم عليه بالجنون».

وبصفة عامة، فقد وقف هيراقليطس موقفًا عدائيًا إزاء العقائد الدينية في عصره، لكن عداءه لم يكن موجهًا إلى الدين في حد ذاته، فنراه يقول في إحدى شذراته: «الله هو النهار والليل، الصيف والشتاء، الحرب والسلام، الجوع والشبع». ونراه يستخدم كلمة الله، لكنه لا يقصد بها الآلهة التي تعبد في اليونان، فالله بالنسبة إليه هو شيء يشمل العالم كله، لذلك فقد رأى أن مهمة الإصلاح الديني تقع على عاتق الفلاسفة وحدهم، وحدّد طريقة فاعلة لذلك، هي الثورة على الخرافات السائدة في عصره، ووضع فلسفة جديدة قائمة على العقل، وأراد أن تحلّ محلّ معتقدات معاصريه الأسطورية، فكانت فلسفته في التغير هي الحل.

وعلى عكس معظم الفلاسفة، لم ينشئ هيراقليطس أي مدرسة، وكان يكره أن يكون له أتباع، ويقال إنه وضع النسخة الوحيدة من كتابه الشذرات في أحد المعابد لتكون بمنأى عن أيدي العامة من الناس، كان شعاره «أنا خرجت للبحث عن نفسي»، وهو الأمر الذي لم يقله الذين سبقوه، حيث

كان الجميع منشغلين بالبحث في العالم الخارجي، ولم يجدوا متسعًا من الوقت للنظر في داخل نفوسهم، أما هيراقليطس فقد رأى أن البحث عن سر الكون لا يكون إلا عن طريق البحث عن سر الإنسان نفسه، وهذا ما دعا فرويد لأن يقول إن هيراقليطس هو أول عالم نفس بحث في النفس البشرية. وكان هيراقليطس على دراية فائقة بمدى غموض النفس البشرية، فقال: «إن شخصية المرء هي قدره»، ولم يكن البحث الدقيق في العوالم الداخلية للإنسان هو كل ما في الأمر بالنسبة لهرقليطس، فهو يصر على أننا لا يمكننا أن نعول على ما ندركه عن طريق الحواس أو أي شيء آخر، ما لم يكن لدينا فهم صحيح للمبادئ التي تحكم الطبيعة.

يصفه لنا أحد معاصريه بأنه كان طويل القامة، نحيل الجسم، يرتدي رداء الكهان لا ينزعه في الصيف ولا في الشتاء، ولد في مدينة أفسوس أشهر المدن الإغريقية. كان جده كبير الكهان، وكان والده أيضًا كاهنًا، ويقال إنه ورث المهنة عن أبيه، لكنه تنازل عنها فجأة لأخيه. رفض أن يكون من تلامذة مدرسة طاليس الطبيعية، وآمن بالتغير نقيضًا للثبات، رآه معاصروه معجبًا بنفسه، أنانيًا ينظر بريبة وشك إلى العادات والسلطة والكهنة والناس، لقّبوه بالمفكر الغامض لأنه أزعج الجميع بكلمة «تغيير».

كان هيراقليطس يؤمن أن كل الأشياء في الطبيعة تغيّر نفسها باستمرار، ولهذا فهو ركّز على التناقضات التي يعجّ بها العالم؛ إذا لم نتعرض للمرض لا نعرف معنى الصحة، إذا لم نكن قد عانينا قط من الجوع لا نعرف فرح امتلاك الطعام، ولو لم تكن الحرب لما عرفنا القيمة الحقيقية للسلام، ولو لم يوجد الشتاء لما استطعنا أن نفرح بالربيع. إنّ للخير كما للشر مكانه الطبيعي في الكون، وبرأي هيراقليطس بدون هذه اللعبة بين الأضداد لا يعود للعالم وجود.

أهم ما ميّز فلسفة هيراقليطس هو اعتمَاده علَى العقْل، فالعقل بالنسبة له مشترك بين كل النّاس، حيث يرى هيراقليطس أن الفيلسوف يجبُ أن يعرفَ الكثيرَ من الأشيَاء، إلا أن الأهم هوَ أن يبدَأ بعد ذلك بإعمَال عقله في كل المَعارف، يقولُ في إحدى شذراته: «الذين يتكلمون بالعقل يجِب أن يتمسكُوا بما هوَ مشترَك للجميع، كما تتمسّك المدينَة بالقانون، بل وأشد. لأن جميعَ القَوانين البشريّة مستمدّة من قانون واحد إلهي يحكم كل شيء كما يشَاء، ويكفي لِكل شَيء، وهو مع هذا فوق كل شيء...»وقد حاول الفلاسفة من بعده أن يبحثوا في شذراته عن أصل الفلسفة، حيث رأى فيه هيغل الفيلسوف الذي تتلاقى فيه الأضداد، ويتعانق عنده الفكر والوجود، وقد حاول أن يتبع خطاه، وأحبه نيتشه بجنون حتى كاد أن يكون هيراقليطس جديد يعيش في العصر الحديث، وقد أصرّ نيتشه على أن الفلسفة تعود بأصولها ومنابعها إلى هيراقليطس صاحب الصوت المتفرد، وفتنت شذراته هيدغر الذي اعتبرها التربة الأصيلة التي بذرت فيها البشائر الأولى للفلسفة، التي قال عنها هيراقليطس إنها الطريق الصاعد إلى الحكمة.

لعل أول الأفكار المُهمة التي جَاء بها هيراقليطس هو مفهوم «الصرَاع»، فالصراع عندَه هوَ أساسُ الوجود، والصراع يكون بين الأضداد، لكن هذه الأضداد بينها نوع من الوحدة. ومن هنا جاء مفهوم آخر لهيراقليطس وهو «وحدة الأضداد»، يقول موضحًا في أحد نصوصه: «في محيط الدائرة يلتقي البدء والنهاية»، ويقول: «يجهل الناس كيف يكون الشيء مختلفًا ومتفقًا مع نفسه، فالوحدة تقوم على الشد والجذب بين الأضداد، كالحال بين القوس والقيثارة».الفكرة الأخيرة التي سَنشير إليها هِي فكْرة التغير الدّائم، فكل شَيء في تغير دائم، والتغير يتم من الضد إلى الضد. وأشهر نصوص هيراقليطس في هذا الموضوع هو: إنك لا تنزل النهر مرتين، ومن العبث أن

تتشبث بالموجة، إذ لا تلبث أمواج أخرى أن تجرفنا، ولا يلبث تيار الماء أن يتجدد تحت أقدامنا، أنت تنزل في النهر الواحد ولا تنزل فيه، ذلك أن النهر الواحد لا يبقى نفس النهر، وأنت أيضًا لا تبقى على ما أنت عليه، فنحن نكون أو لا نكون، ذلك أننا نتغير على الدوام، كل شيء يخطو إلى الأمام ولا يبقى على حاله، كل شيء يتغير ويتبدل.

يتحدث جيل دلوز عن أن: «هيراقليطس هو المفكر المأساوي، ومشكلة العدالة تطرح على امتداد مؤلفاته، هو ذلك الذي يرى الحياة بريئةً وعادلةً بصورة جذرية، إنه يفهم الوجود انطلاقًا من غريزة لعب، ويجعل من الوجود ظاهرة جمالية، لا ظاهرة أخلاقية أو دينية».

***

من شذرات هيراقليطس التي ترجمها للعربية مجاهد عبد المنعم مجاهد:

- «إنّ أجملَ قرد قبيحٌ إذا ما قورن بالإنسان».
- «إن أحكمَ الرجال يبدو قردًا بالمقارنة مع الآلهة».
- «بالنسبة للآلهة، كل الأشياء جميلة ورائعة وعادلة، ولكن الناس هم الذين يفترضون في
- بعض الأشياء أنها جائرة، وفي بعضها الآخر أنها عادلة».
- «الاعتدال هو أكبر الفضائل، والحكمة هي أن تنطق بالحق وتسلك بمقتضى الطبيعة».
- «يفضل خيرة القوم شيئًا واحدًا على ما عداه؛ ألا وهو المجد الخالد

بين الفانين. أما الغالبية العظمى

- فتقنع بأن تكون كالسائمة التي تقتات».
- «الذين يبحثون عن الذهب يحفرون في الأرض كثيرًا، ولا يجدون إلا القليل». «السيئون هم الأدعياء بنشدان الحقيقة».
- «التربية هي شمس أخرى لمن يتعلمون».
- «يجب أن يقاتل الناس من أجل اللوغوس - أو القانون العقلي - كما لو كانوا يقاتلون دفاعًا عن أسوار
- مدينتهم».
- «لن يتسنى لهم أن يعرفوا معنى الحق لو كانت الأضداد غير موجودة». «لا يمكن للإنسان أن يستحم في النهر مرتين».
- «الطريق الصاعد والطريق الهابط طريق واحد».
- «البداية والنهاية شيئان عموميان في محيط الدائرة».
- «من الأشياء التي تختلف يظهر أجملَ تناغم».
- «التناغم الخفي أقوى من التناغم المرئي».
- «أقصر طريق للشهرة أن يصبح الإنسان خيرًا».
- «إنَّ الرب الذي تقوم معجزته في معبد دلفي لا يفصح، ولا يخفي، ولكنه يلمح».
- «لو كانت السعادة قائمة في المباهج الجسدية، لكان يمكننا أن نعد الثيران سعيدة عندما تجد علفًا تقتات به».

***

ما الذي يجب أن تقرأه عن هيراقليطس؟

- هيراقليطس، تأليف: ثيوكاريس كيسيديس، وترجمة: حاتم سلمان.
- كتاب الشذرات، تأليف: هيراقليطس، وترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد.
- قصة الفلسفة، تأليف: ويل ديورانت، وترجمة: أحمد الشيباني.
- تاريخ الفلسفة اليونانية، تأليف: يوسف كرم.
- الفلسفة قبل سقراط، تأليف: الدكتور سامي النشار.

-2-

إذا حكمتم عليّ بالموت، فلن تجدوا من يحل محلي بسهولة

في عام ٤٧٠ قبل الميلاد، وُلد في أثينا طفل يدعى سقراط، كان والده يعمل نحاتًا، يصفه لنا يوربيديس في مسرحيته الشهيرة (السحب)، بأنه كان قصير القامة، قبيح الوجه، يمشي على نحو غريب، وله عادة تحريك عينيه بشكل دائري، يرتدي الملابس ذاتها كل يوم، ويمشي حافيًا. ويعلّق كارل ياسبرز في كتابه الممتع (فلاسفة إنسانيون) أن سقراط ولد ليكون نكاية بصانعي الأحذية. كانت عادته أن يتوجه كل صباح إلى الأسواق حيث يتجمع الناس، وهناك ينخرط معهم في نقاش عن الحياة والموت والكون والطبيعة، ويستطيع الفقير أو الغني، الشاب أو الشيخ أن ينصت كما يشاء لحديث سقراط. لم يكن يتقاضى مالاً مقابل أحاديثه ودروسه، حيث اعتبر نفسه منشغلاً برسالة مفروضة عليه من الرب. كانت زوجته زنتيب سليطة اللسان وسيئة الطباع، وعندما سُئل عن سبب زواجه منها أجاب: «إنّ على مروضيّ الخيول تجربة أكثر الحيوانات جموحًا». لم يحدّثنا أحد حديثًا مفصلاً عن حياة سقراط، باستثناء تلميذه الموهوب أفلاطون، وصديقه المقرب زينفون، الذي يقدّم صورة لسقراط الطفل: «عندما رأيت سقراط لأول مرة، وكان بيته لا يبعد عن منزلي كثيرًا، حسبته أقبح إنسان في أثينا، عيناه جاحظتان كعيني ضفدعة، وشفتاه غليظتان، وأنفه أفطس، وكانوا يسمونه الضفدع». في محاورة (المأدبة) لأفلاطون، يصف سقراط بأنه يشبه «الساطير» الموجود

في الإلياذة، نصفه إنسان ونصفه حصان. ويقول أرستوفانيس إنه كان يتبختر كطيور الماء، ويخبرنا زينفون عن حالات الذهول التي كانت تصيب صاحبه: «كان يقول إنه يتلقى رسائل أو إشارات من صوت غامض». عندما بلغ سقراط العشرين من عمره، اعتقد أنه لا بد أن يتحول من النظر إلى الطبيعة إلى النظر إلى الإنسان نفسه، ونراه يخبر تلامذته أن العقل وراء كل قانون طبيعي وكل نظام، ويعلن أرسطو: «إذا كان هناك إصلاحيون للفلسفة، ربما كان من الإنصاف أن ننسبهم إلى سقراط». ويروي أفلاطون في محاورة (الدفاع) عن مهنة سقراط: «إنه فعل أقصى ما يستطيع عمله لمساعدة كل إنسان، محاولاً إقناع كل فرد بأنه ينبغي عليه أن يلتفت إلى نفسه، وأن يبحث عن الفضيلة والحكمة قبل أن يهتم بمصالحه الخاصة، وأن ينظر إلى الدولة قبل أن يهتم بمصالح الدولة». كانت تلك رسالة سقراط، أن يثير في الناس العناية بأنبل ما فيهم، من خلال اكتساب الحكمة والفضيلة.

***

الرجل الذي جرؤ على السؤال

كثيرون اعتبروا الأسئلة التي كان يطرحها سقراط في الأسواق جنونية، واضطهده البعض وسخر منه آخرون. في مسرحية (السحب) حاول أرستوفانيس أن يقدّم صورة كاريكاتيرية للفيلسوف الذي رفض قبول الفهم السائد دون محاججة. ظهر الممثل الذي يلعب دور سقراط على الخشبة في سلّةٍ معلقة في السقف، إذ كان يدّعي -حسب قول أرستوفانيس- أن عقله يعمل بشكل أفضل في مكان مرتفع، كان مشغولاً بهذه الأفكار المهمة إلى حد عدم امتلاك وقت للاغتسال. يختلف تلامذة سقراط فيما بينهم اختلافات كثيرة حول فكر معلمهم، لكن الصورة الأقرب هي التي ينقلها لنا أفلاطون، وهي التي تعطي انطباعًا عامًا بأنه كان مؤمنًا بأن اختيار فلسفة الفرد وعلمه ينطوي

على اختيارٍ لحياته، بحيث يؤدي عدم المصداقية في السلوك إلى عدم المصداقية في فلسفة الفرد وفكره.تبدأ محاورات سقراط -التي دوّنها أفلاطون- دائمًا بالإفصاح عن جهله العميق بالموضوع، حتى يجذب الآخر إلى حلبة المناقشة، ويحوّل بصره إلى الصعوبة الحقيقية في الموضوع، ثم يدخل إلى عمق الموضوع. وكذا كان يشجع الآخرين على سلوك درب الفلسفة دون حاجة إلى كرسي المعلم، ومن دون أن يعطي النصائح والأوامر، فقد كانت براعته تتمثل في قدرته على أن يجعل المحاور يصل بنفسه إلى الحقيقة. وقد رأى سقراط أن الفضائل تعتبر تجليات لجوهر واحد؛ هو المعرفة التي تعادل الفضيلة، وإذا اضطرّ الشخص إلى أن يعلن أنه لا يمكن أن يلمَّ بكل جوانب الحقيقة، وأنه يستحيل أن يحيط بكل جوانب العلم، فإن الفضيلة تشير إلى وعي الإنسان، ومن ثم يتوجب عليه أن يسلك درب البحث المتواصل عن المعرفة، وهذا هو جوهر الفضيلة: «إن الفضيلة ما هي إلا دعوى دائبة لإعمال العقل.»

أدرك سقراط أن هناك شريعة أخلاقية أبدية لا يمكن أن تقوم على دين ضعيف كالدين الذي آمنت به أثينا في ذلك الوقت. ويرى أن الدولة يجب أن توعّي الناس بما هو في مصلحتهم، وتعلّمهم أن ينظروا إلى النتائج البعيدة لتصرفاتهم الحالية، وبذلك يكون العقل والحكمة هما أساس المجتمع. لذلك يجب تقديم المعرفة في اتخاذ القرارات التي هي في صالح الدولة، ولا يجب أن تؤخذ القرارات بناءً على رأي الأغلبية فقط، كما كان الحال في أثينا آنذاك. ويمضي سقراط في طرح أفكاره الجريئة عن شكل الدولة وكيف أن الحكومة إذا كانت نفسها حكومة تسودها الفوضى والسذاجة، تحكم ولا تساعد، وتأمر ولا تقود، كيف تستطيع أن تقنع الفرد في مثل هذه الدولة بأن يطيع القوانين؟ فلا غرابة أن تعم الفوضى في البلاد التي يسودها الجهل.

كان سقراط يقول: «لا أعرف سوى شيء واحد وهو أني لا أعرف شيئًا».

فالفلسفة لا تتقدم إلا عن طريق تبني منهج الشك والبحث الدائم.

إنّ الفلسفة تبدأ عندما يبدأ الإنسان يتعلم الشك، خصوصًا الشك في المعتقدات التي يحبها، والعقائد والبديهيات أو الحقائق المقررة التي يؤمن بها ويقدسها. ومن يعرف كيف أصبحت هذه المعتقدات العزيزة علينا حقائق يقينية بيننا، وفيما إذا كانت لم تلدها رغبة سرية، ملبسة هذه الرغبة ثوب الفكرة؟ لا وجود للسياسة الحقة ما لم يتجه العقل إلى فحص نفسه، ولهذا قال سقراط: «اعرف نفسك». كيف يجب أن نعيش؟

كانت الفلسفة بالنسبة لأفلاطون أشبه بسلّم لهذا العالم السامي من المثل، ولهذا ليس كل شخص بقادرٍ على صعوده، فدرجاته العليا متاحة لمن يتمتعون بمهارة الجدل، وهم الصفوة، مثل واضعي الأديان والفيثاغوريين الذين اطّلعوا على أسرار المعرفة، أما سقراط فقد تبنّى مذهبًا يميل إلى المساواة بين المعرفة والفضيلة، فالحياة إن لم تخضع للاختبار لا تستحق أن تعاش.

يؤكد أرسطو أن سقراط نظر إلى الأفعال والعاطفة والإنسانية من منظور عقلاني بشكل كبير، فيقول: «لا أحد يتصرف عكس ما يؤمن لأنه الأفضل، وما يتصرف الناس هكذا إلا بدافع من جهل»، ويخبرنا سقراط أن الفضائل تأتي دفعة واحدة أو لا تأتي على الإطلاق، فدائمًا ما تحاول محاوراته إظهار أن فضيلة معينة لا تعمل بشكل صحيح إلا بوجود فضيلة أخرى، فالشجاعة مثلاً تتطلب الحكمة. لقد أراد سقراط إعادة صياغة أفكار الناس عن الحياة، ولكي يتمكن من فعل ذلك سار في طريق المجادلة، بشرط أن تكون المجادلات مختلفة تمام الاختلاف عن المناقشات النظرية لأن من واجب الفيلسوف أن: «يعلم كيف يجب أن تعيش».

في عام ٢٠١٢ أعادت أثينا محاكمة سقراط، وجاء الحكم ببراءته. ففي عام ٣٩٩ قبل الميلاد، تولّى سقراط شخصيًا الدفاع عن نفسه أمام حضور مؤلف من ٥٠٠ من سكان أثينا من الذكور فقط، وكانوا مواطنين وقضاة ومحلفين. وفي غيابه، وبعد ٢٥٠٠ عام، مثّله محاميان أمام عشرة قضاة دوليين. وقد مال خمسة منهم إلى أن الفيلسوف مذنب، وقال خمسة آخرون عكس ذلك.

وأكّد باتريك سايمون، أحد محاميي الدفاع أن: «التعبير عن الرأي ليس بجرم. سقراط كان يسعى إلى الحقيقة». وقال وهو يفيض بالكلام أمام القضاة، ونحو ٨٠٠ من الحضور: «موكلي كان لديه عيب، فهو كان يحب أن يهزأ ويستخدم سخرية شرسة. إلا أني أرجوكم ألا تقعوا في فخ تشويه الديمقراطية. فمن خلال تبرئته ستثبتون صلابة الديمقراطية وإمكانية الوثوق بها».وكان البعض يعتبر سقراط خائنًا، والبعض الآخر اعتبره مرشدًا روحيًا، كما كانت تعاليمه تشكّك بمفاهيم حسّاسة، مثل السياسة والأخلاق، ما أوجد له أعداء كثر.

لعل أهم رواية عن محاكمة سقراط تركها لنا أفلاطون في محاورة الدفاع. يخبرنا أفلاطون أن تلامذة سقراط كانوا يذهبون إليه كل يوم في سجنه، وقبل يوم إصدار الحكم: «ذلك اليوم ذهبنا مبكرين. دخلنا وإذا زوجته وابنهما الصغير هناك. كانت تبكي وتردد ذلك النوع من الكلام الذي هو عادة النساء: آه يا سقراط، هذه آخر مرة تتحدث إلى أصدقائك ويتحدثون إليك! وتطلع سقراط إلى كريتو وقال: كريتو، فليُعِدها أحدكم إلى المنزل. وقام بعض رجال كريتو بشدها بعيدًا وهي تنتحب. أما سقراط فجلس على المقعد وطوى ساقه وأخذ يفركها. وراح يعلّم عن الفارق بين الألم واللذة».يمضي أفلاطون في الرواية: «بعد أن انتهى من الكلام، قال له كريتو: هل هناك

أية توجيهات لنا بخصوص أولادك؟ هل هناك شيء نستطيع أن نخدمك به؟ قال لهم: انتبهوا إلى أنفسكم، ثم سأله كريتو: كيف تفضّل أن ندفنك؟ قال: آه، كما تشاءون، إذا لم أتمكن من الإفلات منك. ثم ضحك بهدوء، وقال: أيها الأصدقاء، إن كريتو يخاطب الجثة التي سوف أصيرها ويسألها كيف سيدفنها. كن شجاعًا يا كريتو. ادفنها بالطريقة المناسبة.قال ذلك ثم ذهب إلى غرفة ليستحم، فتبعه كريتو وطلب منا أن ننتظر في الخارج. وأخذنا نتحادث كم سيكون الفقد كبيرًا وأننا سوف نصبح أيتامًا. وبعدما استحم، أُحضر إليه أبناؤه الثلاثة، ثم حضرت نساء العائلة».

ويواصل أفلاطون: «كان الغياب قد حلّ. ولم يكن بعد ذلك كلام كثير. ثم جاء الحارس الذي كُلّف بأن يعطيه السم الذي عليه أن يتجرَّعه، وقال له: يا سيدي، أنت تعرف ما الذي عليك أن تفعله، أما أنا فلم أعرف في هذا المكان رجلاً أنبل منك. ثم انفجر بالبكاء ومضى. وودّعه سقراط قائلاً: حظًّا سعيدًا. وسوف أفعل ما تقول. كم هو لطيف هذا الإنسان. منذ أن وُضعت في السجن وهو يقوم بزيارتي كل يوم ويحادثني. والآن، ها هو يبكي من أجلي. هلمّ يا كريتو، أعطني السم إذا كان جاهزًا أو اطلب من الرجل أن يعدّه. لكن كريتو قال: إن الشمس لم تغرب تمامًا بعد، تمتع بمزيد من الوقت. فقال سقراط: سوف أحتقر نفسي يا كريتو إن أنا تعلّقت ببضع لحظات إضافية. هات، أعطني السم، ثم رفع الكأس بهدوء وتجرَّع منه».لم يكن سقراط سياسيًا، فقد رأى أنه لا يمكن أداء دوره عن طريق مجادلة الأفراد فردًا أو جماعات صغيرة، وعن ذلك يقول: «أعرف كيف أصنع شاهدًا واحدًا على حقيقة ما أقول وهو الرجل الذي أجادله، أما الآخرون فأتجاهلهم، كما أعرف كيف أحصل على تأييد رجل واحد، ولكن في الجماعة لا أدخل في المناقشة». وعلى مر العصور أخذ تأييد سقراط يتزايد نتيجة احتفاظ محاورات

أفلاطون بمجادلاته، وثمة شيء واحد قاله سقراط للقضاة في محاكمته: «إذا حكمتم عليّ بالموت، فلن تجدوا من يحل محلي بسهولة».يرينا سقراط طريق النجاة من وهمين شديدين: أن ننصت دومًا، أو لا ننصت إلى إملاءات الرأي السائد، لكن المهم جدًا هو الإنصات دومًا إلى إملاءات العقل.

***

ما الذي يجب أن تقرأه عن سقراط؟

- محاورات أفلاطون، ترجمة: زكي نجيب محمود.
- يوميات سقراط في السجن، ترجمة: داود روفائيل خشبة.
- محاكمة سقراط، تأليف: آي. إف. ستون، وترجمة: نسيم مجلي.
- محاكمة سقراط، تأليف: يوري فانكين، وترجمة: ماجد علاء الدين.

وماذا بعد عن مصادر سقراط في العربية؟

- سقراط، تأليف: أندريه كريسون، وترجمة بشارة صارجي.
- سقراط.. مسألة الجدل، تأليف: ثيوكاريس كيسيديس.
- سقراط.. الرجل الذي جرؤ على السؤال، تأليف: كورا ميسن، وترجمة: محمود محمود.
- سقراط.. الشهيد الأول للفلسفة، تأليف جان بران.، وترجمة وتحقيق: فاروق الحميد.

-3-

الفيلسوف الذي أنجز أعظم الكتب في الفراش

في عام ١٦٣٣، كان رينيه ديكارت قد أتمّ الثامنة والثلاثين من عمره، حين قرر أن ينشر أول كتبه وكان بعنوان (العالم)، أراد من خلاله أن يجسّد الرؤية التي استحوذت عليه قبل خمسة عشر عامًا، حين وجد نفسه جنديًا غير متحمس للقتال، فقرّر أن يرحل إلى فرانكفورت، غير أن الشتاء: «أعاق رحلتي فاحتجزني في غرفة لا يوجد فيها من أحادثه، لكني كنت سعيد الحظ، فلم تكن عندي أية مشاعر أو مخاوف تؤرقني، لذلك قضيت وقتي وحيدًا في غرفة دافئة، ما أتاح لي حرية التفكير في آرائي الخاصة ومناجاة نفسي، حيث زارني في ذلك العام حلمٌ هبط عليَّ من السماء فسمعت قصف الرعد، إنه نداء الحقيقة، أصخت إليه فتملّك نفسي». وقد فسّر هذه الرؤيا على أنها وحي مقدس لمهمته في الحياة؛ كشف النقاب عن المهمة الأساسية للفلسفة. لقد غيّرت الأحلام التي راودت ديكارت في غرفته الدافئة الفلسفة الغربية كلها إلى الأبد، وقد سجّل كُتّاب سيرة ديكارت أنه في تلك الليلة «أسّس العلم العجيب»، وأنه شرع في تأسيس فلسفة متكاملة.

إلا أنه في اللحظات الأخيرة يقرر إتلاف كتاب (العالم) بعد أن علم أن الكنيسة دانت العالم الإيطالي غاليلو غاليلي، الذي كان قد أصدر رسالة علمية تؤيد نظرية كوبرنيكوس، قال فيها إنّ الأرض كوكبٌ صغير يدور حول الشمس مع غيره من الكواكب. وقال ديكارت لأحد مقربيه: «ليس

من الحكمة أن يفقد المرء حياته عندما يكون بإمكانه إنقاذ حياته دون خزي».
كان غاليلو المولود عام ١٥٦٤م قام بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول حركة الكواكب، وقام بذلك عن طريق التلسكوب الذي صنعه. حيث استطاع إظهار كونٍ لم يعهده العالم. عندها طلبت منه الكنيسة أن يتوقف عن نشر أفكاره التي تتعارض مع الكتاب المقدس، لكنه لم يمتثل للأمر، لأنه كان مقتنعًا بما يقوله. كان غاليلو أحد مهندسي نظرية الشك، وفي رسالته التي وجّهها إلى رجال الكنيسة ابتدأها بالكلمات التالية: «منذ سنوات وكما تعلمون اكتشفت في السماوات أشياء كثيرة لم نشاهدها من قبل»، وفي النهاية استدعي إلى المحكمة التي عقدتها الكنيسة، وهناك عُرضت عليه أدوات التعذيب، ثم طُلب منه نفي النظرية التي تقول إنّ الأرض تدور حول الشمس، فأذعن. لكن القصة لم تنتهِ، فقد همس أثناء خروجه من بناية المحكمة: «لكنها مع ذلك تدور». كان غاليلو قد تجاوز السبعين من عمره حين فُرضت عليه إقامة جبرية في منزله، ليصاب بالعمى لكنه لم يصب باليأس، فيقرر أن ينشر كتابه (عامان جديدان)، وهو أول عمل عظيم في الفيزياء الحديثة على حد وصف نيوتن، الذي كتب في مقدمة كتابه الشهير (حول حركة الأجسام): «أنا لا أعرف كيف أبدو للعالم، غير أني أرى نفسي كصبي يلعب على شاطئ غاليلو، الذي ترك لنا محيطًا كبيرًا من الحقائق». بعد خمسة أعوام، يموت غاليلو في عزلته المفروضة عليه، فيصدر البابا قرارًا بمنع إقامة قداس له، لأن أية كلمة عليه ستكون إساءة لسمعة الكنيسة.

كان غاليلو في شبابه قد درس إبيقور، وحاول أن يؤلّف كتابًا عن مفهوم السعادة، أراد أن يقول فيه إن واجب العلوم هي أن تنقذنا من النماذج الخاطئة للسعادة، ستقوم الفلسفة كما يعدنا إبيقور بإرشادنا إلى علاجات أرقى، وإلى السعادة الحقة. في سن الخامسة والعشرين، عثر على كتاب أرسطو

(ما وراء الطبيعة)، وقال لأحد مقربيه إنه يسعى لطرد الأرواح الشريرة التي تسكن عالم أرسطو، ويكتب في رسالة إلى الأب كريستوفر كلافيوس أن: «الفلاسفة الإغريق يظنون أن الأجسام تتحرك بدافع من مشاعر ورغبات تشبه مشاعر البشر ورغباتهم، ولهذا أسعى لأن أقدّم تفسيرًا جديدًا يوضّح لنا كيف تتحرك الأشياء في هذا الكون». وحين يحذّره صديقه من الخوض في هذه المسائل الشائكة يعود ليكتب إليه: «الإنسان الذي يدّعى عدم استعداده لتقبل الفلسفة بعد يشبه الإنسان الذي يقول إنه صغير جدًا أو كبير جدًا على الحقيقة». وفي نفس الوقت الذي اتّجه فيه غاليلو إلى التفسير العلمي للطبيعة، كان الطبيب البريطاني وليم هارفي يقوم بدراسة الأوعية الدموية، وانتهى إلى المبدأ الذي بنى ديكارت عليه قراره في أن الجسم البشري ذو تركيب ميكانيكي، وأنه شبيه بالأجسام التي تركبها صناعاتنا.

***

التحرر من متاعب العيش

توفيت أمه بمرض السل بعد أشهر قليلة من ولادته، وتوقّع الأطباء موته المبكر، لأنه ورث شحوب الوجه ومرض ضيق الصدر عن أمه. كان أبوه موظفًا كبيرًا في دائرة من دوائر البلاط الملكي، وقد سلّمه إلى مربيةٍ منعته من الاختلاط بالأطفال واللعب معهم، فنشأ نتيجة هذه العزلة بمزاج أنثى، رقيقًا ميالاً إلى العزلة، ما جعل أباه يناديه ساخرًا: «فيلسوفي الصغير». ولمّا بلغ الثامنة من عمره أدخل المدرسة، وكان معلموه ينصحونه بإراحة جسمه وتمرين عقله، فأجازوا له البقاء في الفراش طويلاً، ما ساعده على الاهتمام بقراءة الأدب الكلاسيكي، أو كما يخبرنا هو: «لأقوم بجولات فكرية في الماضي السحيق، فآخذ بطرف الحوار مع النبلاء الطاعنين في السن». ترك المدرسة بعد أن بلغ العام السادس عشر ليقوم بنزهات طويلة، حيث سافر

إلى باريس وهناك أدمن لعب القمار، واستغلَّ موهبته في الرياضيات ليربح في المقامرة. وخلال السنوات الست التي قضاها في باريس ظلَّ نشاطه الفكري مشتتًا، ويخبرنا في الفصل الثالث من كتابه (مقال في المنهج) أنه حاول أن يفكر في طريقة جديدة لجعل الفلسفة تقترب من هموم الناس: «مرت السنوات الست دون أن أتحيّز إلى أي جانب فيما يخص المسائل التي يناقشها المثقفون، أو دون أن أشرع في البحث عن أسس أية فلسفة أكثر يقينًا من الفلسفة المتفق عليها، فالمثال الذي كان أمامي للمفكرين الكبار الكثر الذين سبق أن خاضوا في هذا المشروع، ولم تكلّل جهودهم بالنجاح على حد علمي، جعلني أتخيل أن الصعوبات ستكون كبيرة جدًا، لدرجة أنني لن أجرؤ على البدء في مشروعي الفلسفي». ويخبرنا كاتب سيرته أن ديكارت بعد هذه السنوات عكف على وضع منهج لتوحيد العلوم، وفي الوقت ذاته قام ببيع أملاكه التي ورثها عن أبيه في فرنسا لتدبير المال اللازم للعيش، وذلك كما يقول من أجل «التحرر من التزام كسب الرزق من علمي»، ومكّنه الفراغ من النوم لساعات طوال، حيث كان يلازم فراشه حتى الظهيرة، حتى عُرف بالفيلسوف الذي ينجز أعظم الكتب في الفراش. وكان يقدّر قيمة ما يتمتع به من فراغ أتاح له العيش دون همومٍ على حد قوله، وجعله بعيدًا عن الصراعات حول المناصب والوظائف، فرفض أن يصبح أستاذًا في الجامعة، لأن الجامعات كانت مراقبة من قبل الكنيسة، وقرّر ألا تكون له أية ارتباطات اجتماعية، وألّا يتزوج حتى لا يعيقه ذلك عن إنجاز ما تعهد به من الارتقاء بالفلسفة وفقًا للحلم الذي لم يفارقه لحظة واحدة. وحين سُئل لماذا لا يتزوج أجاب: «ما من جمال يقارن بجمال الحقيقة». ويعبّر ديكارت عن نظرته الساخرة من الزواج بقوله: «عندما يبكي الزوج زوجته التي ماتت، فهو بالرغم من ذلك يشعر بسعادة خفية في أعماق نفسه لأنه تخلّص من سجن الزوجية».بعد ثلاث سنوات من التجوال والسياحة يضع ديكارت كتابه الأول (مقال في المنهج)، وقد أصبح

هذا العمل فيما بعد واحدًا من أبرز كلاسيكيات الفلسفة حتى يومنا هذا، وبعد عشر سنوات، في عام ١٦٤٧، ينشر كتابه (تأملات في الفلسفة الأولى) الذي وضعته المحكمة ضمن قائمة الكتب المحظورة قراءتها على الكاثوليك.

***

يقال دائمًا إنّ الفلسفة الحديثة قد بدأت مع ديكارت، الذي أدرك منذ البداية أن الاحتياج العظيم في الفلسفة هو إلى صياغة منهج دقيق للبحث، ولأنه كان مولعًا بالرياضيات منذ الصغر، فقد انتهى إلى أنه يمكن ابتكار منهج للفلسفة يشبه المنهج الذي يستخدم في الهندسة، وفي كتابه (مقال عن المنهج) يضع لنا وبطريقة مبسّطة أربع قواعد يحددها كالآتي:

١. ألّا أقبل شيئًا على أنه حق، ما لم أعرف بوضوح أنه كذلك. أي يجب أن أتجنب التسرع وعدم التشبث بالأحكام السابقة، وأن لا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل لعقلي في وضوح وتركيز يزول معهما كل شك.

٢. أن أقسّم كل واحدة من المشكلات التي أبحثها إلى أجزاء كثيرة بقدر المستطاع، وبمقدار ما يبدو ضروريًا لحلها على أحسن الوجوه.

٣. أن أرتّب أفكاري، فأبدأ بالأمور الأكثر بساطةً وأيسرها معرفة، حتى أصل شيئًا فشيئًا، أو بالتدريج إلى معرفة أكثرها تعقيدًا، مفترضًا ترتيبًا حتى لو كان خياليًا بين الأمور التي لا يسبق بعضها بعضًا.

٤. أن أعمل في جميع الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئًا.

لقد كانت صياغة المنهج بالنسبة لديكارت خطوة أولية وأساسية، فقد كان يطمح إلى اكتشاف ما عساها أن تكون معرفة الأشياء الموجودة التي يمكن

بلوغها باليقين، وكان يعتقد أن الكثير من المعلومات التي حصل عليها زائفة، ولم تكن لديه وسيلة لتميزها، حتى وجد منهجًا خاصًا به. وعندما أصبح لديه منهج بادر باستخدامه في التأمل الأول من كتابه (التّأملات)، حيث شرع في الشك في كل شيء يمكن الشك فيه، لكي يكتشف ما هو على يقين منه بصورة مطلقة، لأنه لا يستطيع أن يشك فيه بدون أن يفترض وجوده، لقد وجد أن الحواس تخدع الإنسان باستمرار، ولذلك من الأفضل عدم الثقة بها. لقد تذكّر أنه حلم في ليلةٍ أنه يرتدي عباءته ويجلس قرب النار، بينما كان نائمًا في فراشه، فربما يكون يحلم الآن، وقد لا يكون على الإطلاق في المكان الذي يفترض نفسه فيه في الواقع، لذلك وجد ديكارت أنه من الممكن نظريًا الشك في شهادة حواسه وذاكرته وأفكاره ووجود العالم الخارجي، لكنه وجد شيئًا لا يمكن الشك فيه، وهو واقعة وجوده الخاص: «أنا أفكّر، إذن أنا موجود». ويسأل ديكارت بعد ذلك: «ما عساي أن أكون؟» وإجابته أنه شيء يفكر، أعني شيئًا يشك ويفهم، ويتصور وينكر، ويريد ويرفض، ويتخيل ويشعر، إنّ الذي يفعل ذلك كله لا بد أن يكون نفسًا، أي جوهرًا روحيًا يكون التفكير صفته الأساسية، فلا يمكن أن تكون هناك أفكار بدون مفكر، ولا يمكن لصفة مثل التفكير أن توجد إذا لم يكن هناك جوهر يلازمها.

قال أينشتاين وهو ينظر إلى صورة رينيه ديكارت المعلّقة بمتحف اللوفر: «كنت أراه ينظر إليّ بعينين مثقلتيّ الجفون في تحفظٍ وبشيء من الكبرياء، والابتسامة المرتسمة على شفتيه ابتسامة سخرية وازدراء صادرة عن رجل مهذب، فكيف أمكن لهذا الرجل أن يصوغ فلسفة العالم الحديث الذي نعيش فيه؟» كان لدى ديكارت ازدراء خاص تجاه الفلسفة، ويقول إنّ الفلاسفة المتنافسين يناقضون بعضهم بعضًا دون سند من يقين في أي من الجانبين،

والفلاسفة يجهلون الرياضيات والعلوم ويؤسسون حججهم المنطقية على مراجع قديمة، والنتيجة أن الفلسفة على نحو ما يدينها ديكارت: «ظلت تُدرّس لقرون طويلة من قبل أبرز العقول دون أن تأتي بشيء لم يكن موضع خلاف». ولم يكن ديكارت يطلب الاهتمام بدراسة الفلسفة، بل كان يطلب الحقيقة والتخلص من المعتقدات الزائفة حتى يتمكن من الوصول إلى الحقيقة: «كانت لدي رغبة شديدة في تعلم كيفية التمييز بين ما هو حقيقي وما هو زائف، حتى أتبين ما يجب أن أفعل، وأكون قادرًا على أن أسلك طريقي في هذه الحياة بثقة وطمأنينة». ولكن هل يمكن للواحد منا التخلص من جميع المعتقدات التي اجتمعت لديه طيلة حياته، واستخدام عقله فقط كأساس للإيمان بأي شيء؟ هذا ما يقترحه ديكارت، ومن هنا يبدأ، ومن خلال الفلسفة بالإطاحة بكل المعتقدات والانفصال التام عن عالم العصر الوسيط الذي أراد ديكارت لأوروبا أن تسدل الستار عليه.

ويمكن القول بأن الفلسفة الحديثة تبدأ بكتاب ديكارت (التأملات) الذي يطلب منا صاحبه أن نتأمل ونعرف الأفكار الكاذبة والمشكوك فيها التي قبلناها طيلة حياتنا، وأن نتخذ القرار بأن الوقت قد حان لإسقاط كافة المعتقدات. ويستهلُّ ديكارت التأملات بقوله: «لا بد من التخلي عن كل شيء في حياتي تمامًا ومرة واحدة إذا أردت إثبات أي شيء راسخ ودائم في العلوم»، ويضيف: «لقد حررتُ عقلي اليوم من كافة الهموم، أنا وحيد تمامًا، وأخيرًا سيكون لدي الوقت لتكريس نفسي بجد وحرية للتخلص من جميع آرائي السابقة، ولكن كيف يمكنني إثبات الحقيقة الراسخة والدائمة باستخدام عقلي فقط؟»إن إجابة ديكارت عن هذا السؤال هي إجابة جميع فلاسفة المذهب العقلاني منذ أفلاطون الذي قال في محاورة (الجمهورية): «العقل كليٌّ في جميع البشر، وهو العنصر الأهم في الطبيعة البشرية، وهو

الوسيلة الوحيدة للمعرفة اليقينية، وهو السبيل لتقرير ما هو صحيح وصالح أخلاقيًا وما يشكل مجتمعًا صالحًا».

ولكن كيف يمكننا، باستخدام عقلنا، إثبات حقيقة راسخة ودائمة أخفق الفلاسفة السابقون في إثباتها؟ في كتابه (مقال في المنهج) يقول ديكارت: «من بين جميع من بحثوا عن الحقيقة، لم ينجح سوى علماء الرياضيات في الإتيان بأسباب واضحة ومؤكدة». ويعتقد ديكارت بأن منهج الرياضيات باستخدام العقل وحده هو الذي مكّن عالم الفلك البولوني كوبرنيكوس من إحداث ثورة في علم الفلك بنظريته الجديدة عن الكون على أساس مركزية الشمس، ومكّن الإيطالي غاليلو من تقديم البرهان على نظرية كوبرنيكوس.

***

في أواخر سنيّ حياته يشتري ديكارت بيتًا ريفيًا بالقرب من مدينة ليدن، وكان سكان القرية يشاهدونه يجلس طوال الوقت وهو يتأمل، وفي سجلات المدينة جاء وصف للفيلسوف الفرنسي الشهير: «كانت ملامحه تنم عن هيئة فيلسوف قصير القامة، نحيف الجسم، ضخم الرأس، شعره مرسل يكاد يبلغ حاجبيه، لحيته سوداء فاحمة ويلف رقبته بوشاح يقيه من البرد، يلبس سترة داكنة وسروالاً قصيرًا وجوارب سوداء طويلة، وقد جعله الخوف من المرض يدثر جسمه بالكثير من الملابس». في ذلك الوقت يتلقى دعوة من الملكة كرستينا ملكة السويد للإقامة في بلادها ليعلّمها الفلسفة، فنراه يرسل لها خطاب اعتذار فهو يفضّل: «تعريض جسمه إلى أشعة الشمس على هذا الإنعام الملكي». لكن صاحبة الجلالة لم تقبل اعتذاره، فتحاول بشتى الوسائل إقناع الفيلسوف العظيم بزيارة بلادها، وقد أفلحت في النهاية، فيصل السويد في تشرين الأول من عام ٩٤٦١، وهناك تبدأ معاناته مع البرد والاستيقاظ المبكر، فالملكة كانت تعتقد أن الصباح الباكر هو خير وقت لدراسة الفلسفة،

فيضطر إلى الذهاب إلى القصر قبل شروق الشمس، وهذا الاستيقاظ المبكر في شتاءٍ بارد جدًا يجعله يكتب: «يتجمد في هذه البلاد دم الإنسان كما تتجمد المياه في الأنهار». واستطاع أن يقاوم هذا الجو لأسابيع، لكنه في يوم من الأيام يشعر بألم شديد في صدره، فترسل الملكة طبيبها الخاص لفحصه ليكتشف إصابته بالسل، وعندما يخبره بضرورة إجراء عملية سريعة، يواجه رفضًا من الفيلسوف الذي يقول: «إنك لا تستطيع سفك قطرة من الدم الفرنسي». ولم تمضِ سوى أيامٍ، ففي صباح الحادي عشر من شباط عام ٠٥٩١ يفتح ديكارت عينيه ويسأل بصوت خافت: «كم الوقت؟» «إنها الساعة الرابعة صباحًا» يجيبه المرافق، يحاول النهوض قائلاً: «الملكة بانتظاري»، لكنه يجد صعوبة فيقع على الفراش وهو يهمس: «الوقت حان لأن تفارقني الروح، لكني روح حية، أنا أبحث عن الحقيقة». وكان قبل موته بأشهر قد أقيمت ضده دعوى تتهمه بالزندقة، وبعد وفاته بثلاثة عشر عامًا، يضع الفاتيكان كتبه على لائحة الكتب المحرمة، وينصح البابا رعاياه بعدم قراءة كتبه لأنها مخالفة لصحيح العقيدة، وفي عام ١٩٦١ يصدر قرار ملكي يمنع تدريس أي شيء عن الفلسفة الديكارتية في أية مؤسسة في فرنسا.

عاش ديكارت ومات وهو يتحسر لأن العلم الطبيعي لم يحصل على استقلاليته بالقياس إلى العلم الديني، وموقفه من هذه الناحية لا يختلف عن موقف غاليلو، الذي كان يؤكد أنه إذا ما حصل تعارض بين الكتاب المقدس من جهة وبين إحدى نظريات العلم الحديث من جهة أخرى، فينبغي أن نعيد تأويل الكتاب المقدس لكي يتماشى مع العقل.

***

ما الذي يجب أن تقرأه لرينيه ديكارت؟

- حديث الطريقة، ترجمة عمر الشارني.

- محاورة ديكارت.. البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعي، ترجمة وتعليق: مجدي عبد الحافظ.
- مقال عن المنهج، ترجمة محمود الخضيري.
- مقالة الطريقة، ترجمة وشرح: جميل صليبيا.
- تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة: كمال الحاج.
- التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة: عثمان أمين.

وماذا بعد عن مصادر ديكارت في العربية؟

- ديكارت.. مبادئ الفلسفة، تأليف: عثمان أمين.
- رينيه ديكارت، تأليف كمال الحاج.
- ديكارت والعقلانية، تأليف: جنفياف روديس لويس، وترجمة عبده الحلو.
- ثلاثة دروس في ديكارت، تأليف: ألكسندر كوبريه، وترجمة: يوسف كرم.
- أقدّم لك: ديكارت، تأليف: ديف روبنسون وكريس جارات، وترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام.
- ديكارت، تأليف: أندريه جوميه، ترجمة: الدكتور بدوي عبد الفتاح.
- فلسفة ديكارت ومنهجه، تأليف: الدكتور مهدي فضل الله.

-4-

الوجود البشري لا بد أن يكون نوعًا من الخطأ

في الأسطورة اليونانية، ترغم الآلهةُ سيزيف على دفع صخرة ضخمة إلى الأعلى على تلٍ منحدر، ولكنه قبل أن يبلغ قمة التل، كانت الصخرة تفلت منه دائمًا فيكون عليه أن يبدأ من جديد. وعليه فإن نشاطه يبدو عديم الهدف والجدوى أو غير متناهٍ، وقد نعاني من نفس عدم الجدوى السيزيفية. وحتى إذا استطعنا الإبقاء على الصخرة أعلى التل، سنظل نعاني من هموم أكثر في الحياة، فمطلوب منّا أن نكافح كل يوم من أجل دفع الصخرة إلى الأعلى، وحتى إن لم نكن نكافح وجلسنا عن اقتناع، فما الهدف من ذلك؟ «ما الهدف» هو السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا جميعًا بين الحين والآخر، وهو الأمر الذي شغل شابًا ألمانيًا قبل مئتي عام حين أكّد أننا: «عندما نكافح من أجل شيء ما، فإننا لا نشعر بالرضا، لأننا عندئذ لا نكون قد حققنا ما نهدف إليه، ومع ذلك فإننا إذا حققنا ما نسعى إليه، فإننا نشعر بالملل، لذلك فنحن نسعى إلى مزيد من الكفاح ورغم ذلك سنظل نشعر بالنهاية بالفشل والملل».

هذا الشاب اسمه آرثر شوبنهاور، ولد في الثاني والعشرين من شباط عام ١٦٨٨، وأصرّ في معظم كتاباته على أن يؤكّد أن حياتنا حلقة مزعجة غير ذات نفعٍ، وأن الوجود البشري نوع من الخطأ، تمضي أيامه من سيء إلى أسوأ.

كان هذا الفيلسوف التشاؤمي قد ولد لعائلة للجنون حضور كبير فيها، فوالده فلوريس أصيب في الأربعين من عمره باكتئاب حاد أدّى فيما بعد إلى

انتحاره، كما أن اثنين من أعمامه أُدخلا إلى مصح عقلي، وكانت جدته قد فقدت عقلها بعد وفاة زوجها. وقد ورث شوبنهاور عن أبيه إرادته وعزلته، أما عن أمه فقد ورث ذكاءها وحبها للآداب والفنون، فقد كانت من أبرز كاتبات القصة في عصرها. لم يبدِ الوالدان اهتمامًا كبيرًا بابنهما: «حين كنت طفلاً في السادسة، وجدني والداي في حالة من اليأس العميق بعد عودتهما من نزهتهما في إحدى الأمسيات»، ويخبرنا نيتشه أن معلمه شوبنهاور: «عاش وحيدًا في عزلة مطلقة، ولم يكن يتخذ له في حياته صديقًا قط».

في السابعة عشرة من عمره استيقظ على خبر سقوط والده من سقيفة البيت، هل كان ذلك حادثًا أم انتحارًا؟ لم يعرف الجواب، وأُسدل الستار على الحادث الذي أصاب الابن بالبؤس، لكنه في المقابل منح الأم الحرية حيث قررت أخيرًا أن تؤسس صالونًا أدبيًا، وتصبح الصديقة المفضلة لشاعر ألمانيا الكبير يوهان غوته، وقد آلم ذلك الفتى شوبنهاور الذي ورث عن أبيه ثروة ستضمن له عيشة مريحة وعدم اضطراره لممارسة أي نوع من الأعمال. ورغم ذلك كان يشعر بالملل والإحباط: «حين كنت في السابعة عشرة من عمري، دون تعليم مدرسي نظامي، جذبني بؤس الحياة، وكانت الحقيقة التي اكتشفتها مبكرًا أن هذا العالم لا يمكن أن يكون نتاجًا لكائن محب، بل كائن شرير أوجد الخلق كي يبتهج لمرأى معاناتهم».

***

الحياة عمل مؤسف

في سن التاسعة عشرة قرر أن يهجر البيت بعد مشادة مع أمه، وبعد محاولات فاشلة في التجارة جعلته يخسر الجزء الكبير من ثروته، قرر أن يصبح

فيلسوفًا: «الحياة عمل مؤسف، وقد توصلت إلى قرار بوجوب قضائها في التأمل». ونراه يكتب لأمه: «إن الحياة شديدة القصر والإرباك، وسريعة الزوال بحيث لا تستحق عناء القيام بمجهود كبير».يعود إلى أمه ثانية فيلتقي بالعشيق الشاعر غوته، الذي يصف هذا الشاب العبوس: «بدا لي شوبنهاور شابًا غريبًا مثيرًا للاهتمام»، لكن مشاعره تجاه غوته كانت متقلبة. وحين يحصل شوبنهاور على الدكتوراه عام ١٨١٣ عن رسالته الفلسفية (الجذر الرباعي لمبدأ العلة الكافية)، يجد أن أول المهنئين له كان غوته. وبرغم هذه التهنئة من شاعر ألمانيا الكبير، فإن رسالته هذه التي طبع منها ألف نسخة، لم تبَع سوى نسختين، رغم ذلك اعتبر أن ما قدّمه في كتابه هذا لا يمكن الاستغناء عنه.

بعد عام يشرع في كتابة رسالته الفلسفية الشهيرة (العالم كإرادة وتصور)، وقد وافق الناشر على طبع الكتاب تقديرًا لوالدته التي كان الناشر يطبع قصصها، ليصدر الكتاب عام ١٨١٩. ولم يبع من الكتاب سوى ٢٠٠ نسخة، الأمر الذي دفع الناشر لأن يخبره ذات يوم أن يتجه لكتابة القصة مثل والدته عسى أن تحظى كتبه بالاهتمام، ما جعله يكره هذه الأم اللعوب، ومن بعدها جميع النساء. فنراه يكتب: «إنما النساء خلقن فقط من أجل استمرار الجنس البشري، وإن كل استعداداتهن تتركز حول هذه المسألة، فإنهن يحيين النوع، أكثر مما يحيين من أجل الأفراد». يحاول الحصول على منصب جامعي في قسم الفلسفة بجامعة برلين، يلقي محاضرات عن جوهر الفلسفة لم يحضرها سوى خمسة طلاب، فيما كان الطلبة يتزاحمون على محاضرات غريمه هيغل الذي وصف فلسفته بأن: «أفكارها الأساسية هي الوهم الأسخف، عالم مقلوب رأسًا على عقب، تهريج فلسفي، أما مضامينها فهي التمظهر الأجوف والأشد خواءً للكلمات حين ينطق بها المغفلون».

استعان شوبنهاور بالإنجاز الفلسفي لأفلاطون في تأسيس فلسفته، وبالنظر إلى شخصية كل منهما، فقد كان التقارب بين أفكارهما أمرًا غريبًا. أفلاطون الأرستقراطي، الهادئ، المحب للحياة، المتحفظ، والفيلسوف الذي استغلّ الفلسفة لخدمة المثل العليا وتحقيق التفوق لطبقته الاجتماعية، وشوبنهاور المنحدر من عائلة برجوازية، أفلست بسبب تصرفات الأم، إلا أنه ظلّ يصرّ حتى آخر يوم في حياته أن أعماله العظيمة لن تقل شأنًا عمّا قدّمه أفلاطون، وأن ما كتبه من رسائل فلسفية لن يمر دون أن يلتفت إليه الجميع.

يكتب برتراند رسل في كتابه الشهير (تاريخ الفلسفة الغربية) أن: «شوبنهاور يبدو غريبًا بين الفلاسفة في أنحاء عدة من شخصيته. فهو متشائم، بينما يكاد الفلاسفة الآخرون أن يكونوا كلهم، بمعنى ما، متفائلين. وهو ليس أكاديميًا تمامًا مثل كانط وهيغل، لكنه لا يقف خارج العرف الأكاديمي بالمرة. وهو يؤثْر على المسيحية أديانَ الهند الهندوسية والبوذية معًا. وهو ذو ثقافة واسعة، كما أنه يهتم اهتمامًا كبيرًا بالفن اهتمامه بالأخلاق. وهو يقرّ بثلاثة منابع لفلسفته (كانط وأفلاطون والأوبانيشاد) ولكني أظن أنه يدين لأفلاطون بالمقدار الذي يظنه هو».

***

العلاقة مع النساء

ما من امرأة اهتمت به، وإذا كان الزواج كما يقول ساخرًا هو «دَّين في الشباب نسدده في سن الكهولة»، فإن شوبنهاور كان حذرًا من أن يقع فريسة ذلك الدَّين. وحسب ما هو معروف عن سيرة حياته، فإن علاقته مع النساء اقتصرت على حكايتين، ففي عام ١٨٢١ يقع في غرام كارولين ميدون،

وكانت مطربة في التاسعة عشرة من عمرها، استمرت العلاقة بينهما عشر سنوات متقطعة، رفض أن يتوج هذه العلاقة بالزواج: «أن تتزوج يعني فعل كل ما يمكن ليصبح كل طرف موضع اشمئزاز الآخر». الحكاية الغرامية الثانية كانت مع خادمة تعمل عنده، لكنه يتركها ذات يوم ويهرب. ولهذا نراه في أواخر حياته يدافع عن عدم ممارسة الجنس، حتى لو قاد ذلك إلى انقراض الجنس البشري، وهي أمنية كان يحلم بها كثيرًا.

بعد سنوات من التجوال وتدريس الفلسفة يشعر بالإحباط، كانت الكتب تحيط به من كل جانب، لكنه اكتشف أنها لا تمنح الأمل بحياة أفضل: «سيكون من الجيد شراء الكتب فقط، إن تمكنا من شراء الوقت الكافي لقراءتها».

***

سوء تفاهم مع هيغل

يكتب ألبير كامو في مقدمة مسرحيته الشهيرة (سوء تفاهم) أن شوبنهاور كان له التأثير الأكبر عليه وهو يقدم حكاية الشاب جان الذي يذهب إلى موته دون أن يحاول الكلام. هنا كما يخبرنا كامو يكون سؤال شوبنهاور: لماذا هذا العجز عن الكلام؟ كان شوبنهاور يتهم الفلاسفة بأنهم يتلاعبون بعقول الشباب، وفي مقال بعنوان (إنهم يفسدون عقولنا) يهاجم هيغل الثرثار ويسخر من فيلسوف ألمانيا الذي كان يجده يقارن بين الأشياء، ويوازن بين الآراء، دون أن يهتم بالأشياء في حد ذاتها. ولهذا نراه يكتب أن الظواهر جميعها، سواء أكانت مادية أم نفسية، محكومة بقوة واحدة لا شخصية ولا يمكن مقاومتها يسميها «الإرادة»، إلا أن معنى هذه الكلمة عند شوبنهاور

يكاد يكون بالنقيض من المفهوم الشائع عن الإرادة بوصفها أمرًا خاضعًا لسيطرة الإنسان وتوجهه، لسنا نحن من يريد، بل العالم، الطبيعة، فنحن لا نملك من الأمر شيئًا، سواء علمنا أم لم نعلم، فنحن مجرد ظواهر عارضة، محكومون بتلك الإرادة التي تسبقنا وتتجاوزنا، وهذه الإرادة هي جوهر الأشياء في الكون، وهي المادة الأصلية الوحيدة لأية ظاهرة من الظواهر. ولهذا نجد شوبنهاور يضع حرية الاختيار في مرتبة الوهم البشري، ويرى أنه حتى في الحالات التي يكون لدينا انطباع بأننا نفعل ما نريد، فإن هذه الإرادة تحدها طبيعة شخصيتنا التي لا سلطة لنا عليها، إن ما يحركنا هو دوافع ونزوات لا تخضع لسيطرتنا، وبالتالي لا فائدة من الندم على أي من أفعالنا الماضية، سيقول البعض إنه أمر غريب، هذا الكره الحاد لفكرة الحرية في أوروبا التي كانت آنذاك تصيغ فكرة ثورية لحرية الفرد، لكن فيلسوف التشاؤم أصر على أن ثمة عنصر يوجّه مصائرنا.

يواصل شوبنهاور القول إن البشر كأفراد لا أهمية لهم، فهم ليسوا سوى تجسيدات للنوع، متغيرة وعابرة، سرعان ما يحلّ محلها نوع أو جيل آخر، ما يهم الإرادة هو استمرار الحياة في حد ذاتها، ويحاول شوبنهاور أن يوضّح لنا هذه الفكرة من خلال صورة مبسطة: «مثل تتابع قطرات الماء من الشلال الهادر بسرعة البرق، فيما قوس قزح التي هي وسيطة ثابتة في سكون الراحة لا يصيبها شيء من تلك التبدلات المتواصلة، هكذا تبقى كل فكرة أو تصور، أي أن كل نوع من الكائنات الحية عصي تمامًا على التتابع المستمر للأفراد، والحال أنه في الفكرة أو في النوع تتجذر إرادة الحياة في الواقع وتتجلى، ولهذا أيضًا فإن المهم فقط هو استمرار هذه الإرادة. وعلى سبيل المثال فإن الأسود التي تولد وتموت هي مثل قطرات الشلال، لكن فكرة الأسد أو شكله يشبهان قوس قزح الذي لا يتبدل من فوق الشلال». وإذا أردنا أن نلخص

هذه القطعة الأدبية الفلسفية، فنقول إن قطرات المطر الصغيرة التي تشكل الشلال هي أسود أفراد، أما الطيف «قوس قزح» فهو فكرة الأسد، وهنا ونحن نقرأ فلسفة شوبنهاور ربما نسأل: من أين تنبع رؤية الأمور على هذا النحو؟ من وجهة نظر الخالق لا شك، يقول شوبنهاور، وليس من وجهة نظر الأسود، ولا من وجهة نظري ونظرك. هكذا ينظر شوبنهاور للحياة الأرضية من برجه العالي، إنه لا يرى فرقًا بين الحيوانات والبشر، فيكتب: «إن معظم بني البشر يقفون بعنادٍ ضد قبول الحقيقة الواضحة، وهي إننا في الجوهر وفي الأساس مماثلون للحيوانات، بل إنها لتتراجع مذعورة أمام أي تلميح إلى صلة القرابة بيننا وبينهم».

***

لا تحدثني عن الجنس

بعد إخفاق شوبنهاور كمدرس جامعي يحاول أن يصبح مترجمًا، لكن الناشرين سخروا منه حين قدم ترجمات لكانط، وضع فيها مقدمات توضح رأيه في هذا الفيلسوف. وجرّب حظه في كتابة الشعر، لكنه لم يحقق أمنيته في أن يصبح ندًا لغوته: «كم ينبغي عليّ أن أتعلم أن روحي وعقلي في مسائل الحياة اليومية يبدوان كتلسكوب في صالة أوبرا، أو مدفع أثناء صيد الأرانب»، ونراه من جديد يعزي نفسه: «بالكاد سأكون أي رجل كفء، متحرر من مسحة ما من بغض البشر».

بعد خمسة وعشرين عامًا يصدر طبعة جديدة ومنقحة من (العالم كإرادة وتصور)، ويكتب في المقدمة: «لا إلى معاصريّ بل إلى البشرية أكرّس عملي الذي اكتمل الآن، واثقًا أنه لن يكون غير ذي قيمة للبشرية، حتى لو كان

سيتم الاعتراف بهذه القيمة ببطء، كما هو المصير الحتمي للخير بأية صيغة كانت». وفي هذه الطبعة التي تتألف من مجلدين امتازت بطابعها الموسوعي الجامع، أُثبت مدى نضوج فكر شوبنهاور وتعمّقه في الفلسفة، بحيث أصبح هذا الكتاب واحدًا من أعظم الأعمال الفلسفية في تاريخ الفكر البشري. ولأنه لم يكن يهتم بما يجري حوله نجده لا يولي اهتمامًا للجنس أو الرغبة في النساء، «الجنس! لا تدفعني للضحك». يقول لأحد مقربيه: «الجنس أعظم بلاء، فمع ظهور الغريزة الجنسية، ظهر القلق والسوداوية في الوعي أيضًا، ونبتت في الحياة الهموم والمصاعب، ذلك لأن أصل حياة جديدة يرتبط بإشباع أشدّ ميولنا سطوة وأكثر رغباتنا عنفًا، بتعبير أوضح أن الحياة بكل ما فيها من احتياجات وأعباء وآلام ستبدأ من جديد وستُعاش مرة أخرى بسبب هذا الذي يسمى الجنس». وإذا كان شوبنهاور قد عاش في بدايات حياته مجهولاً، فإن الشهرة الفلسفية والمجد هبطت عليه أخيرًا بعد صدور الطبعة الجديدة من (العالم كإرادة وتصور). فقد وجد فيه طلاب الفلسفة وعشاقها الشيء الكثير الذي يساعدهم في تفهّم وقائع أعمالهم واتجاهاتهم وسبل فشلهم ونجاحهم، فذاع صيته على نطاع واسع، واتّسعت شهرته في أرجاء أوروبا، وأخذت جموع المريدين تزور بيته، ويرسل إليه الموسيقار الشهير فاغنر بطاقة تهنئة بعيد ميلاده السبعين يبدأها بعبارة «أستاذي العظيم». ويعيش أيامًا هادئة يقضيها بنزهات برية مع كلبه الذي أسماه «شوبنهاور الصغير». وذات صباح يجلس إلى مائدة الإفطار، يتحدث مع المرأة التي تتولى رعايته، وهو يتّكأ على كرسيه: «بإمكاني احتمال فكرة أن الدود سيلتهم جسدي قريبًا، ولكن فكرة أن أساتذة الفلسفة سينتقدون فلسفتي، تجعلني أرتعد». بعد لحظات يشعر بألم في الصدر، تحاول المرأة مساعدته على النهوض، لكنه يسقط على كرسيه، يفارق الحياة وهو لا يزال على اقتناعه أن الوجود البشري لا بد أن يكون نوعًا من الخطأ.

***

ما الذي يجب أن تقرأه لآرثر شوبنهاور؟

- العالم إرادة وتمثلاً، ترجمة وتقديم سعيد توفيق.
- فن الأدب: مختارات من شوبنهاور، ترجمة وتعليق: شفيق مقار.
- نقد الفلسفة الكانطية، ترجمة: حميد لشهب.فن أن تكون دائمًا على صواب، ترجمة: رضوان العصبة.

وماذا بعد عن مصادر شوبنهاور في العربية؟

- شوبنهاور، تأليف: عبد الرحمن بدوي.
- شوبنهاور، تأليف: روبرت ويكس، وترجمة: سعيد توفيق.
- شوبنهاور مربيًا، تأليف: نيتشه، وترجمة: قحطان جاسم.
- شوبنهاور فيلسوف العبث، تأليف: كليمان روسيه، وترجمة: مروان بطش.
- شوبنهاور وفلسفة التشاؤم، تأليف: وفيق عزيزي.

-5-

الفيلسوف الذي كانت حياته الجنسية من أخطر مسائل الميتافيزيقا الغربية

حاول أفلاطون في رائعته (الجمهورية) وضع تعريف للفلسفة يشرح أصل كلمة «فيلسوفيا» التي تعني حب الحكمة. وجاء أرسطو من بعده ليعدّل هذا المفهوم، مؤكداً أن الفيلسوف هو ذلك الشخص الذي يحب صنوف الحكمة كلها لا بعضها. وكثيرًا ما يُطرح سؤال مهم: هل استطاعت الأجيال التالية لأفلاطون وأرسطو حلّ القضايا التي أثاراها، ثم قامت هذه الأجيال بطرح قضايا جديدة، تضيف إلى التراث الفلسفي إضافةً حقيقية، وترتفع بمشكلاته وحلوله خطوة أخرى إلى الأمام؟ أم أن الفلسفة، على خلاف العلم، لا تمثل تاريخًا متطورًا من الإجابات والحلول، وإنما تمثّل -كما يقول البعض- جزرًا مستقلة ودوائر مقفلة؟ فأفلاطون ما زال سؤالاً حتى اليوم في الفكر البشري، وسقراط ما زال حلمًا، وإسبينوزا رؤيا عزيزة، وهيغل عمارة شامخة، ونيتشه صرخة لا تموت من أجل الإنسان الأعلى، وكيركيجارد توترًا من أجل الخلاص الحقيقي.

***

الحاكم الفيلسوف

كان أفلاطون في الثامنة والعشرين من عمره حين أُعدم سقراط، فقرّر أن يرتحل إلى أماكن عديدة، حيث أدرك أن: «أنظمة الحكم في كل الدول

سيئة، لذلك فأنا مجبر على القول إن الجنس البشري لن يعيش أيامًا أفضل إلى أن يتولى السلطة السياسية من يتبعون الفلسفة حقًا وصدقًا، أو حين تولي العناية الإلهية من بيدهم السلطة إلى فلاسفة حقيقيين». كان هذا عام ٢٩٩ قبل الميلاد، وبعد هذا التاريخ بما يقارب ألفي عام قدّم فيلسوف شاب رسالة في نقد «جمهورية أفلاطون» المتخيلة، حاول من خلالها أن يجيب عن أسئلة كانت تدور في مجتمعه آنذاك: ما الذي يجب على الحاكم أن يفعله؟

- أي أملٍ للشعب في حاكم يعشق الفلسفة؟

ثم أضاف سؤالاً ثالثًا:

- من هو الحاكم المثالي؟

كان اسم هذا الشاب إيمانوئيل كانط، طرح نظريته الأساسية التي تقول: «إنّ عقل الإنسان ليسَ عجينةً سلبية تتقولب حسب الطريقة التي تحتّمها وتختارها التجربة والأحاسيس، وليس مفهومًا افتراضيًا لمجموعةٍ من الحالات العقلية. عقل الإنسان عبارة عن عضو فعّال نشيط يشكل الأحاسيس ويرتبها على شكل أفكار، ويحوّل خضم التجارب المتعددة إلى وحدة فكرية مرتبة».

***

الفيلسوف الذي يحتفظ بقائمة الموتى في جيبه

ولد إيمانوئيل كانط عام ١٧٢٤ في مدينة كونيجسبرغ الألمانية لعائلة فقيرة، الأب يعمل صانعًا لسروج الخيل، يعيل عائلة كبيرة من تسعة أفراد توفي أربعة منهم بسبب الأمراض. كان الأب يطمح أن يتعلم ابنه مهنة السراجة ليواصل الحفاظ على إرث العائلة التي امتهنت هذه المهنة من مئات

السنين، إلا أن قريبًا لهم يعمل قسًا اكتشف في هذا الطفل نبوغًا كبيرًا، فقرر أن يساعد العائلة ويتكفل بمصاريف تعليمه، فأدخله مدرسة ابتدائية ثم التحق بالثانوية. توفيت أمه وهو في سن الثالثة عشرة، فتركت أثرًا حزينًا في حياته، وقبل أن يدخل الجامعة توفى الأب، وبعده بأشهر مات القس، فاضطر إلى أن يتوقف عن الدراسة ليعمل في مهن كثيرة: بائع كتب، عامل سراجة، مدرس خصوصي، ليساعد أسرته المكونة من أخ وثلاث شقيقات. بعدها استطاع أن يتابع دراسته في أوقات الفراغ، لا سيما بعد أن وجد مهنة عند إحدى الأُسر الغنية.

في السنوات العشرين الأخيرة من حياته عاش حياة مريحة، فقد جعلت منه شهرته واحدًا من أعلى الأساتذة دخلاً، وخلال هذه الفترة اشترى كانط منزلاً خاصًا به، وسط مدينة كونيجسبرغ التي لم يفارقها طوال حياته، التي قاربت الثمانين سنة، كرّس معظمها للتأمل والكتابة. في هذا البيت، لم يسمح بوجود قطعة ديكور واحدة سوى صورة كبيرة لجان جاك روسو، الذي كان كانط يدين له بالفضل في اكتشافه لفلسفته النقدية. في المطبخ الصغير كان كانط يتناول وجبته الحقيقية الوحيدة طوال اليوم، وهي وجبة العشاء، والتي اعتاد أن يدعو إليها عددًا من أصدقائه المقربين. لم يغامر قط بالسفر خارج مدينته، كان يطبّق نظامًا صارمًا على حياته، يستيقظ في الساعة الخامسة صباحًا حيث يتناول قدحًا من الشاي مصحوبًا بتدخين غليون واحد، ثم يقوم بإعداد محاضراته التي كان يلقيها ستة أيام في الأسبوع، وكان يبدأها في الثامنة صباحًا. وبعد أن ينتهي منها يتفرغ للدراسة والكتابة، بعدها يخلد لغفوة من النوم متمددًا على كرسي في حجرة المكتب. وعندما تحين الساعة الخامسة عصرًا، يبدأ ممارسة نزهته الرياضية التي كان توقيتها بالغ الدقة، ولا يتغير أبدًا، حتى إن ربّات البيوت كنّ يضبطن ساعاتهن بالدقيقة على اللحظة

التي يمر بها تحت نوافذهن.

لم تربك حياته علاقاتٌ نسائية. في شبابه كان يصر، بعد الانتهاء من إلقاء محاضراته، على الذهاب إلى المقهى للعب البليارد، لأنه كان يعتقد أن في ذلك تنشيطًا للذهن. كان يحب الهدوء، ويقال إنه في أيام فقره غَيّر في عام واحد ستة بيوت، ومن الطريف ما يُروى عنه أنه غيّر بيته بسبب ديك يملكه أحد الجيران، حيث كان صياحه يزعج الفيلسوف في لحظات تأمله، وقد حاول مرارًا أن يشتري هذا الديك بأي ثمن ليرتاح من إزعاجه، إلا أنه لم يتمكن من إقناع الجار الذي كان يتعجب كيف أن ديكًا بسيطًا يمكن أن يزعج فيلسوفًا عظيمًا. ولعلّ أكثر ما يسترعي الانتباه في شخصية كانط أنه كان يولي جسمه الكثير من العناية الشديدة، فقد كان يعتقد أن من المهم أن يطول عمر الإنسان، وكان يحتفظ بقائمة لأطول السكان عمرًا في المدينة التي يسكن فيها، وظل مدير الشرطة يوافيه شهريًا بحالات الوفاة التي تقع في المنطقة القريبة من بيته.

ويقدم لنا الشاعر الألماني هايريش هاينه وصفًا طريفًا لحياة كانط، فهو يقول: «من العسير كتابة تاريخ حياة إيمانوئيل كانط. لم تكن له حياة ولا تاريخ، وإنما كانت حياته حياة أعزب عجوز، مجردة آلية التنظيم، في شارع هادئ منعزل، ولست أعتقد أن الساعة الضخمة للكاتدرائية القائمة هناك كانت تؤدي عملها اليومي على نحو أكثر دأبًا وانتظامًا مما كان يؤديه مواطنها إيمانوئيل كانط، فقد كان يلتزم وقتًا محددًا في استيقاظه، وشربه القهوة، وفي كتاباته وقراءاته، وأكله ومشيه. وكان جيرانه يدركون أن الساعة قد بلغت الواحدة والنصف بالضبط عندما يعود كانط من الجامعة مرتديًا معطفه الرمادي، وفي يده عصاه الخيزرانية، ويسير في شارع شجرة الليمون الذي أطلق عليه فيما بعد طريق الفيلسوف تخليدًا لذكراه. كانت الناس لا ترى فيه

سوى أستاذ فلسفة، وعندما كان يمرُّ بهم يحيونه تحية الصديق، ويضبطون ساعاتهم عليه، ولكنهم لم يدركوا أن هذا الرجل يمارس بصمت عملية «تهديم لأفكار قرون مضت».

ورغم أن الفيلسوف كان مشغولاً بحالته الصحية إلى درجة الوسوسة، فإنه كان يهتم كثيرًا بأناقته، ويصر على أن تتناغم سترته الطويلة مع جواربه، ويزيّن رأسه بباروكة بيضاء، وكان يقول لكل من يمتدح أناقته: «من الأفضل أن تكون مجنونًا بالموضة على أن تكون الموضة خارج حساباتك». خالط الفيلسوف القليل من النساء في حياته، فيما عدا أخته التي ابتعدت عنه لوقت طويل. ومن الطريف أن فوكو يكتب في مقاله عن كانط: «إن الحياة الجنسية لكانط تعد من أخطر مسائل الميتافيزيقا الغربية».

***

ما التنوير؟

عام ١٨٥٤، وفي الاحتفال الذي أقيم بمناسبة مرور خمسين عامًا على وفاة كانط، يكتب فيلسوف العدمية آرثر شوبنهاور: «إن الفلسفة الحقّة إذا كانت بدأت مع أفلاطون، فإنها اختتمت مع كانط، وإنني مهما كان من الأمر لا بد من أن أنكر وجود أي تقدم في هذه الفلسفة خلال الفترة الزمنية التي تفصل بيني وبينه». كان شوبنهاور يؤكد في كل كتاباته على أن كانط عرف كيف يجيب عن الأسئلة التي لم تكفّ الفلسفة عن طرحها على نفسها.

في العام ١٧٦٠، كان كانط قد بلغ الحادية والثلاثين من عمره، مدرسًا مغمورًا، إلا أنه كان في أوقات فراغه التي يقتنصها بين عمله كمدرس ووظيفته كمربٍّ في بيوت الأثرياء، يضع الجانب الأكبر من فلسفة القرن

التاسع عشر على هيئة مقالات يحاول من خلالها أن يقدم مراجعة لتاريخ الفكر الفلسفي. وفي ذلك الوقت نرى أن إحدى الصحف تمتنع عن نشر مقال له يطالب فيه بمزيد من التنوير في الأمور الدينية والسياسية، ونرى كانط يعود لهذا الموضوع الأثير، وأعني التنوير، بعد أربعة وعشرين عامًا لينشر في عام ١٧٨٤ مقالاً بعنوان (ما التنوير؟)، وكان المقال ردًا على سؤال وجّهته إحدى جرائد برلين على مفكري ألمانيا آنذاك: ما التنوير؟ وقد شارك العديد منهم بإجابات، البعض منها غامض وأخرى مراوغة. ويرى ميشيل فوكو أن هذا النص القصير الذي كتبه كانط أحدث بدعة جديدة لم يعرفها تاريخ الفلسفة، وهي انشغال الفيلسوف بقضايا المجتمع والعصر. وفي هذا المقال يطالبنا كانط بأن نرمي وراء ظهورنا حالة التخلف البدائية التي ينقاد لها عقل الإنسان لفكر شخص آخر، ويؤكد كانط أننا يجب أن ننظر للتنوير على أنه عملية اجتماعية وتاريخية. فخلال كل ماضي الإنسانية، اعتاد الناس على أن يوكلوا مهمة التفكير لغيرهم (الحكومات الأبوية، وسلطة الكتب المقدسة)، والأخطر من ذلك والأكثر إهانة وفسادًا للإنسان في رأي كانط هو سلطة الكهانة الدينية التي تغتصب وظيفة العقل البشري، ويصبح التنوير مستحيلاً بالنسبة للإنسان المنعزل، ولكنه يصبح ممكنًا عندما تكون ممارسة التفكير النقدي سائرة بين عموم الناس، حيث تسود روح التحرر والتواصل بين كل أفراد المجتمع.

وقد حظي الكتيب الصغير هذا باهتمام فلاسفة فرنسا الذين اعتبروه فعلاً ثوريًا جريئًا، يطالب صاحبه فيه أن يتحرر الإنسان من القيود التي وضع نفسه بها، وأن يطوّر مقدرته على الفهم، حيث كان كانط يرى أن ما يقف وراء تخلّف الإنسان هو: «الكسل والجبن الذي يجعل الناس يمارسون سلطة الوصاية بعضًا على بعض، وأن البعض يتدرب لكي يمارسوا هذه الوصاية».

وفي هذا الإطار كان يرى أن: «هؤلاء الأوصياء يسهرون حريصين على أن يعتبر الجزء الأكبر من أبناء البشر تحررهم أمرًا خطيرًا، لا مسألة غير مناسبة وحسب، وهم لتأكيد ذلك يركزون حديثهم دائمًا على المخاطر التي تحيق بالبشر حين ينطلقون وحدهم من دون أدلة ومن دون وصاية».

فما هو المطلوب إذًا؟ إن المطلوب هو: «تلك الحرية التي تعتبر عادةً أكثر الحريات براءة؛ حرية أن يعقل الإنسان الأمور في رأسه وفيما يتعلق بأي موضوع من المواضيع». ويستخلص كانط أن الواجب الأول الذي يتعين على كل دولة متنورة أن تمارسه إنما يكمن في تربية الناس على مفهوم الحرية. أما احترام النقد والاستقلال الفكري، فيتعين أن يُعتبر واحدًا من المبادئ الأساسية في الوجود.

وبالتالي فإن التنوير، حسب مقالة كانط هذه، يعني حق الإنسان في النقد، أي حقه في استخدام عقله بكل حرية مطلقة لا تحدّها حدود الكهنة الذين يعتبرون أنفسهم ظل الله على الأرض. وقد أصرّ كانط أن يقدّم تفسيرًا عقليًا للدين، فأكمل كتابه (الدين في حدود العقل وحده) الذي بعث به للنشر، إلا أن الرقابة رفضت نشره، فقرّر أن يبعث به إلى أكاديمية الفلسفة التي لم تكن مؤلفاتها تخضع للفحص، فنشر الكتاب الذي أثار حفيظة القصر الملكي، وأُرسل للفيلسوف كتابًا شديد اللهجة يعلن فيه استياء الملك من المؤلف الذي: «أساء استخدام فلسفته للتحريف والحطّ من شأن الكثير من التعاليم الرئيسية والأساسية في النصوص المقدسة والديانة المسيحية». وصدر أمر ملكي بألّا يقوم كانط بالتدريس أو الكتابة في الموضوعات الدينية إلا بعد أن يكون قادرًا على تعديل آرائه لتتوافق مع معتقدات الديانة المسيحية. والحقيقة أن كتاب كانط عن الدين كان صرخة في وجه الكهانة الدينية، فالفيلسوف العقلاني لا يؤمن بوجود أي دور للخلاص بآلام المسيح وموته فداء

للمؤمنين، فإيمانه الديني العقلاني لا مكان فيه للمعجزات، ويؤكد بطلان الممارسات الدينية كالتوسل بالصلاة التي يعتبرها كانط خدمة خرافية زائفة للرب، عندما تطرح بوصفها طقوسًا ضرورية للاستقامة الأخلاقية أو لتبرئة الخاطئ أمام الله. وقد أدى موقفه المتشدد هذا من الطقوس الدينية أنه رفض من حيث المبدأ المشاركة في طقوس دينية حتى حين طلب منه منصبه الرسمي باعتباره رئيسًا لجامعة كونيجسبرغ أن يشهد احتفالات دينية، وكان يتعلل دومًا بأنه مريض.

***

ثلاثية العقل

طوال حياته الجامعية، تفرّغ كانط لمشروعه الفلسفي النقدي، فمنذ أن أصبح أستاذًا للفلسفة في الجامعة، حاول أن يحلَّ ألغاز العقل الكبرى؛ قام بتطويق الأسئلة الكبرى التي شغلته منذ الصبا: من أين يأتينا اليقين في معارفنا؟ هل يوجد نظام في النفس كما كان في السماء نظام؟ وأخيرًا، أين يمكن العثور على نقاط ثابتة في الطبيعة؟

وعلى الرغم من طبيعة التعقيد في كتابات كانط، كما وصفها المؤرخ ويل ديورانت، حينما نصح بـ «أن نخالف القاعدة المعروفة، فنقرأ عمن كتب عنه قبل أن نقرأ ما كتبه هو بالذات»، ويضيف ديورانت في كتابه (قصة الفلسفة) أن: «الفلسفة وجدت نفسها وسط أنقاض خربة، قوّضتها بنفسها ودمرتها بيدها. فجاء كانط وقرأ في عام ١٧٧٥م الترجمة الألمانية لكتب ديفيد هيوم، فروّعته هذه النتائج وأيقظته من نعاسه العقائدي، وشرع في تأسيس فلسفة جديدة، ينقذ فيها الأخلاق والعقل؛ فكان مشروعه (نقد العقل الخالص)

الذي شكل تيارًا ضخمًا هادرًا تضرب أمواجه حتى اللحظة».

ويؤكد ديورانت أن كل «الفلسفات لم تكن سوى تطور سطحي يتدفق تحته تيار كانط الفلسفي القوي الثابت، على نحو أشد عمقًا واتساعًا. وما تزال فلسفة كانط حتى يومنا هذا قاعدة لكل فلسفة».

وعندما صدر كتابه (نقد العقل الخالص) عام ١٧٨١م، وكان عمره آنذاك ٥٧ سنة، بعد صمت استمر عشر سنوات، قوبل بتحفظ شديد، ولكنه قام في الواقع بتثوير كل المفاهيم المعروفة حول الزمان والمكان والمادة، وحرية الإرادة ووجود الخالق، مؤكدًا: «إن الجزم بالمفاهيم السائدة بكلمة نعم أو لا يعتبر مصيدة عقلية». وسعى كانط إلى إنقاذ القوانين العلمية للطبيعة، وعلى الأخص علم الفيزياء، من الشك وذلك عن طريق الإثبات أن الارتباطات الضرورية لقوانين الفيزياء تقوم على التصور السببي الضروري للعقل البشري. لقد اضطر كانط، لإنقاذ الحقيقة والمصداقية العلمية، إلى جعل القوانين العلمية تعتمد على العقل وتصوراته، واضطر للقول بأن النظام الذي تبرهن عليه قوانين الفيزياء ليس في الطبيعة، بل هو آتٍ من التصورات الكلية والضرورية للعقل الإنساني. لقد اكتشف كانط أن الطبيعة لا تعطي العقل البشري قوانينها، لكن العكس هو الصحيح، فالعقل هو الذي يعطي الطبيعة قوانينه الخاصة، من خلال تصوراته الضرورية التي تنظّم جميع المواد الحسية، وهذه هي التصورات التي تشكّل وتنظم وتنشئ جميع تجاربنا ومعرفتنا بالطبيعة. ونذكر عبارة كانط الشهيرة «العقل مشروع الطبيعة»، وهكذا يتّضح أن قوانين الطبيعة تعتمد على تصورات العقل البشري. ومع ظهور كانط أصبح النظام العالمي تابعًا للعقل كما قال الفيلسوف الإنكليزي برتراند رسل، وبذلك نكون قد وضعنا أيدينا على مغزى التحول الفلسفي الجديد الذي أحدثه كانط، فهو تحوّل عن العالم الخارجي للطبيعة المستقلة

إلى العالم الداخلي لنشاط العقل وقدراته كمفتاح لما نجرّبه ونختبره وما نعرفه. وسوف يثبت كانط امتداد تأثيره من خلال ثلاثيته النقدية الشهيرة (نقد العقل الخالص)، و (نقد العقل العملي)، و (نقد ملكة الحكم). والذي أكّد فيها أن العقل مفتاح لما نجربه ونختبره وما نعرفه، وأن أي شيء نختبره أو نعرفه يرجع إلى العقل نفسه، وإلى تصوراته التي يستخدمها العقل في فهم الأشياء، هذا التحول الكانطي فتح آفاقًا جديدة للفلسفة والعلوم والدراسات الإنسانية، وأعلن للمرة الأولى في التاريخ أن الإنسان قادر بقوة عقله على فهم الحقيقة. وقد التزم هيغل وماركس وشوبنهاور وسارتر وفوكو بوجهة نظر كانط هذه المعنية بطريقة تفسير وفهم عقولنا للأشياء.

***

في وصيته التي سلّمها لأحد تلامذته طلب كانط أن يكتب على شاهدة قبره: «شيئان يملآن قلبي دومًا بالإعجاب المتزايد والخشوع، وهو شعور لا يفارقني كلما أطلت التفكير: السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي، والقانون الأخلاقي في داخلي. إنني أراهما أمامي مباشرة، وهما يثيران فيّ المرة بعد المرة الوعي بوجودي».

في عام ١٨٠٠ يعتزل كانط الحياة العامة، ويسعى أحد طلبته فيسانيسكي إلى رعايته، ويحرص طلبته على زيارته كل يوم وسماع محاضراته التي أخذت تنشر في المجلات الفلسفية. وفي عام ١٨٠٣، يشتدّ عليه المرض للمرة الأولى، فتخفت قدراته الجسدية شيئًا فشيئًا، ليتوفى في ١٢ شباط عام ١٨٠٤ قبل أن يتم عامه الثمانين بشهور قليلة.

***

ما الذي يجب أن تقرأه لإيمانوئيل كانط؟

- نقد العقل العملي، ترجمة غانم هنا.
- نقد ملكة الحكم، ترجمة غانم هنا.
- نقد العقل المحض، ترجمة: موسى وهبة.
- مشروع السلام الدائم، ترجمة: عثمان أمين.
- أسس ميتافيزيقيا الأخلاق، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي.
- الدين في حدود مجرد العقل، ترجمة: فتحي المسكيني.

وماذا بعد عن مصادر كانط في العربية؟

- كانط وأنطولوجيا العصر، تحرير: د. أحمد عبد الحليم عطية.
- كانط، تأليف: آلان و. وود، وترجمة: بدوي عبد الفتاح.إيمانوئيل كنت، تأليف: عبد الرحمن بدوي.
- كانت أو الفلسفة النقدية، تأليف: د. زكريا إبراهيم.
- أقدّم لك كانط، تأليف: كريستوفر رايت، وترجمة: إمام عبد الفتاح إمام.

-6-

لم يفهمه إلا واحد.. وحتى هذا أساء فهمه

وصل الضابط مع جنوده إلى المنزل يحمل تعليمات من الإمبراطور تنصّ على وجوب أن يقتل الفيلسوف المشاغب سينيكا نفسه على الفور. كان نيرون هائجًا وقرر أن ينتقم من كل الذين يعيشون بالقرب منه، بعد أن كُشفت مؤامرة للتخلص منه، فأصدر أوامر بقتل الجميع وكان منهم معلمه سينيكا، برغم عدم وجود دليل يربط الفيلسوف بالمؤامرة. وعندما عرف تلامذة الفيلسوف الروماني بدأوا بالبكاء والعويل، لكن الفيلسوف طلب منهم الهدوء، وقال لهم: «لم يكن أحد غافلاً عن أن نيرون قاسٍ، إذ بعد أن قتل أمه وأخاه، لم يبقَ أمامه سوى قتل معلمه ومرشده». ويخبرنا هيغل وهو يكتب مقالاً يبدي فيه إعجابه بالفيلسوف الروماني أن سينيكا لم يرضخ للحظات الضعف المعتادة، إذ واجه الواقع عبر موته حيث أسهم في خلق ربط دائم بين جوهر كلمة «فلسفة» ومقاربة هادئة للواقع الكارثي الذي يحيط به.

أدرك سينيكا، المولود عام خمسة للميلاد، أن واجب الفلسفة هو السعي لاكتساب الفضيلة، فإذا كانت الفلسفة ضرورية فلا بد من السعي إليها وفي ذهننا الغاية العملية. وعلى الرغم من أن سينيكا ينتسب من الناحية النظرية إلى الفلسفة الرواقية ومذهبها الحتمي، فإنه يؤكد أن لكل إنسان بوصفه موجودًا عاقلاً القدرة على أن يسير في طريق المعرفة لو أنه فقط أراد أن يفعل ذلك.

خلال حياته، كان سينيكا قد شهد وواجه كوارث هائلة ومآسيَ شخصية. كان يهيئ نفسه كي يعمل في السياسة، لكنه في أوائل حياته أصيب بالسل، حيث بقي طريح الفراش، ما أدى إلى تفرّغه للقراءة واطلاعه على كتب أرسطو، فنراه يكتب: «أدين بحياتي للفلسفة».

كان سينيكا قد رفع لواء العقل، يكتب لأحد أصدقائه يطلب منه نصيحة لمواجهة مشكلة كبيرة: «حالما نتعامل بعقلانية مع ما سيحدث، حتى لو لم تتحقق رغباتنا، سندرك على نحو كبير أن المشكلات الضمنية أصغر من حالات القلق التي تولدها». ويرى سينيكا أن الوصول إلى الحكمة هو ألا نحاول أن نصعّب الأوضاع السلبية عن طريق ردود فعل من الغضب والإشفاق على الذات والمرارة والقلق، وأن نحاول تنمية قدرة العقل في كشف الواقع. ويري سينيكا أن في استطاعة الإنسان أن يشعر بالسعادة حين يتمكن من استخدام عقله في الوقت المناسب.

يقول هيغل إن سينيكا: «صاحب أعمق وأوسع تأثير على عقلية عصرنا بصفة عامة، وعلى شكل الفلسفة ومضمونها. إذ لم يلقَ أي كاتب روماني أو حتى إغريقي تقديرًا كالذي لاقاه سينيكا».

***

الفجر الجديد

يكتب سينيكا: «إن معرفتنا للأروع، العقل والخير والفضيلة، تبدأ من المعرفة التي تعطينا إياها العينان، التمييز بين ما نراه ليلاً ونهارًا قد هدانا إلى معرفة الزمن، وهذه الصبوة أوصلتنا إلى الفلسفة. ولم يحظَ الناس بنعمة أكبر من نعمة العقل هذه». ونرى الشاب الألماني جورج فيلهلم هيغل يكتب عام ١٧٩٠، وكان عمره عشرين عامًا: «ما الذي كان القدماء يفهمونه من

كلمة فلسفة؟ فقد أتى على الناس زمن يسمّون فيه الشخص الذي لا يؤمن بوجود الأشباح والشياطين فيلسوفًا، وكان الإغريق يخلطون الفلسفة بما فوق الإدراك الحسي، والذي نسمّيه اليوم الوعي الديني». ويضيف هيغل في دفاتر الشباب: «إن اجتياز العقبات للوصول إلى الحقيقة بأقصر الطرق غير ممكن إلا بعد استيعاب كل ما وعاه عقل القدماء خلال آلاف السنين، إذا نحن لم نجتز الطرق التي سار عليها القدماء، حكمنا على أنفسنا بالتيهان في المجاهل».

ولد جورج فيلهلم هيغل في مدينة ستيغارت الألمانية عام ١٧٧٠، لعائلة فقيرة. فقد أمه التي كان يحبها كثيرًا في الحادية عشرة. وقُتل أخوه في الحرب، وجنّت أخته التي كان متعلقًا بها كثيرًا. كان الوالد موظفًا بسيطًا، والأم ربة بيت لا تعرف القراءة والكتابة. ولم يبلغ عامه التاسع عشر حتى اندلعت الثورة الفرنسية التي أطلق هو عليها فيما بعد «الفجر الجديد». عاش هيغل في العصر الذهبي للأدب الألماني، وبالرغم من كونه أصغر من غوته بعشرين عامًا، ومن شيلر بعشرة أعوام، فقد استطاع أن يتقرب من حلقتهم الضيقة ويصبح أحد مريدي غوته، وهناك يرتبط بعلاقة صداقة مع شاعر ألمانيا الكبير هولدرلين.

كان هيغل أكبر إخوانه حظوةً عند أبيه وذلك لأنه كان يرى فيه الذكاء المفرط، وقد أراد الوالد أن يجعل من ابنه كاهنًا، فسجّله في الفصل الأكاديمي بجامعة توينجن لدراسة اللاهوت. وهناك تعرف على شيلنغ الذي سيصبح أقرب أصدقائه وكان يصغره بخمسة أعوام، إلا أن دراسة اللاهوت لم تستهوِهِ فقرّر الانصراف إلى قراءة مؤلفات أفلاطون وسينيكا ومونتسكيو، ثم وجّه اهتمامه إلى جان جاك روسو. وكان كتاب (العقد الاجتماعي) بمثابة كلمة السر التي تراءت لهيغل الشاب من أجل قيام فلسفة ثقافية

حديثة الأسلوب، وقد دفعته آراء روسو إلى أن يشكل ناديًا للسياسة كانت تناقش فيه الثورة الفرنسية، الأمر الذي دفع السلطات الألمانية إلى مطاردة أعضاء النادي. فقرر هيغل الهرب إلى مدينة برن، وهناك استطاع أن يجد وظيفة في أحد بيوت الأثرياء، بعد أن توسّط هولدرلين في تعيينه. وفي تلك الفترة عكف على دراسة مؤلفات هيوم وميكافيللي ولايبنتز وسبينوزا، كما قام بدراسة مؤلفات كانط. في تلك الفترة نلاحظ اتجاه هيغل نحو فصل الدين عن الدولة، وفي رسالة إلى هولدرلين عام ١٧٩٥ يكتب: «لا سبيل إلى هزّ صرح الكنيسة الأرثوذكسية طالما أن مهامها ترتبط بمصالح دنيوية، وتتداخل في بناء الدولة، وطالما أن الكنيسة مصرّة على أن تجعلنا نضع أيدينا في حجورنا ونتكاسل في انتظار أن تأتي مملكة الله. العقل والحرية سيظلان كلمة السر التي بيننا، ونقطة اتحادنا هي الكنيسة غير المرئية».

شعر هيغل بسعادة غامرة في عمله الجديد، وقد عدّه خطوة نحو الأمام، نحو العالم الرحب الكبير، ونحو عالم السياسة أيضًا: «سوف أعود، كي أصبح مساويًا للعالم أكثر بعض الشيء مما كنت». كانت هذه رسالة بعث بها إلى شقيقته، وفي تلك الفترة يكتب مقالات يُعلّق فيها على خطب البرلمانيين التي كانت تناقش الضرائب على الفقراء، وإصلاح قانون الأراضي. بعد وفاة والده عام ١٧٩٩ يتخلى هيغل عن وظيفة المعلم الخاص ليلتحق بصديقه شيلنغ في جامعة ينا، وكان شيلر وفيخته هناك أيضًا. الآن شيلنغ حقق شهرة ومكانة سمحتا له بالتوسط لتعيين صديقه هيغل مدرسًا في الجامعة براتب متواضع. وفي تلك الفترة يؤسس مع شيلنغ مجلة للفلسفة ينشر فيها الفصول الأولى من كتابه (علم ظهور العقل). في تلك الفترة احتلّ الفرنسيون مدينة ينا، فأغلقت الجامعة ما اضطر هيغل إلى أن يعمل صحفيًا بالقطعة، ثم قَبِل وظيفة مدير مدرسة ثانوية.

في عام ١٨٠١ يقدّم رسالته للدكتوراه وفيها يخالف آراء نيوتن، ويعود للجامعة ليصبح عام ١٨٠٥ أستاذًا فوق العادة، إلا أن الحرب التي لم تنتهِ بدّدت آماله بحياة مستقرة، فسُرق منزله، ولم ينجح في انقاذ شيء سوى واحد من ممتلكاته وهو الأكثر قيمة لديه: مخطوط فينومينولوجيا الروح (ظاهريات الروح) الذي كان يحتفظ به في جيب معطفه أثناء حريق المدينة، فاضطر إلى طلب مساعدة غوته. عام ١٨٠٦ استطاع أن يقنع أحد الناشرين بطبع كتابه الذي لم يجد إقبالاً من القراء، حيث وجدوا صعوبةً في حل ألغازه، ونراه يخبر صديقه شيلنغ في لهجة المتذمر: «لم يفهمني إلا واحد، وحتى هذا أساء فهمي»، لكن رغم المصاعب إلا أن هيغل كان يرى أن العالم يتحضر لمعركة كبيرة سينتصر فيها الإنسان، إنسان الأزمنة الحديثة الذي شاهده يسير فوق حصانه. لقد حمل نابليون أو روح العالم إلى ألمانيا بعض المكتسبات السياسية والاجتماعية للثورة الفرنسية: «شاهدت القيصر، تلك النفس العالية، ممتطيًا جواده، إنه لفي الواقع إحساس رائع ذلك الذي يغمر المرء حين يرى هذا الفرد مركزًا في نقطة جالسًا على جواد».

بلغ هيغل الأربعين من عمره ولم يتزوج، ونراه عام ١٨١١ يكتب إلى صديقه نيتهامر يزفُّ إليه نبأ خطوبته: «أعلم أنك تود لي السعادة من كل قلبك.. اسمها ماري فون توخر». كانت ماري أصغر منه باثنين وعشرين عامًا، وقد أراحه الزواج وساعده على زيادة إنتاجه الفلسفي، فقدّم بعد عام كتابه الأشهر (علم المنطق)، وقد تميّز هذا الكتاب عن سائر إنتاج هيغل حتى إن مؤلفه دعاه «أفكار الله قبل الخلق». كان هيغل آنذاك قد صار علمًا شهيرًا في سماء الفلسفة عندما طلبت إليه جامعة هايدلبرغ أن يقبل فيها منصب الأستاذية، حيث أمضى في هذه الجامعة عامين قبل أن يقدّم له وزير التربية البروسي منصب أستاذ الفلسفة في برلين. كان يتمنى منذ زمن طويل

الاستقرار في مركز الحياة الثقافية والسياسية في ألمانيا، وقد وفّرت له جامعة برلين حقلاً واسعًا للكشف والدراسة، واستطاع أمام جمهور مختار من الطلبة أن يقدّم محاضراته الشهيرة حول فلسفة الدين والجماليات وفلسفة التاريخ، ونشر عام ١٨٢١ كتابه (مبادئ فلسفة الحق).

غير إنه أثار منذ وصوله برلين حفيظة الأوساط المحافظة التي اتّهمته بأنه يغلّف أفكاره السياسية الإصلاحية بتعابير فلسفية غامضة، وقد أغضب السلطات بمحاضراته وأعماله، مما أدى إلى أن تتم مراقبته من قبل الشرطة. ولم يقتصر خصومه على اتهامه بوحدة الوجود وإنكار خلود النفس، وإنما كانوا يهزؤن من كل تفكيره الديني. وقد روى لنا الشاعر هايني الذي كان تلميذًا لهيغل أنه كان يتحدث يوميًا مع أستاذه عن الثواب والعقاب في الحياة الآخرة، فما كان من هيغل سوى أن يبادره بالقول: «أتريد أن تحصل على مكافأة لأنك اعتنيت يومًا بوالدتك المريضة، أو لأنك لم تدسّ السم في يوم من الأيام في طعام أخيك؟» وكذلك روى لنا هايني أن هيغل رأى أمام إحدى الكنائس أحد الباعة الذين يبيعون الميداليات المقدسة، فاستشاط غضبًا لهذا المنظر وراح يقول: «انظر إلى ديانتكم، وإلى المناظر التي تقدّمونها لنا، لكَم أودّ أن أرى قبل موتي اختفاء كل هذه الترهات». وقد كانت شهرته سببًا في تكاثر أعدائه وتزايد الحملات عليه، وكان شوبنهاور في مقدمة الذين سخروا من فلسفة هيغل واعتبرها مضيعة للوقت، لكنه لم يهتم وواصل عمله، إلا أن أصابته بمرض الكوليرا لم تمهله طويلاً، فمات في الرابع عشر من تشرين الثاني عام ١٨٣١. ولم يكن أحد ينتظر له مثل هذه الميتة، فكانت وفاته حدثًا اهتزّت له الأوساط العلمية وقد بذل طلبته وزملائه جهودًا لإقامة تشييع يليق بمعلمهم، حيث رافقوا جنازته بمشاعل في أيديهم تحيةً للمفكر الكبير. بعدها قام طلبته بنشر مخطوطاته التي تركها وكانت عبارة

عن محاضرات ألقاها في الجامعة، فيما انقسم طلبته فيما بعد ليشكلوا جناحين؛ جناح يميني حاول أن يطبع الفلسفة الهيغيلية بطابع لاهوتي، وجناح يساري حاول أن يطوّر أفكار المعلم، وكان على رأس هذا الجناح فيورباخ وكارل ماركس.

***

العقل والحرية

يُنظر إلى فلسفة هيغل على أنها القمة التي بلغها تطور المثالية الألمانية، فمن غير هيغل يستحيل تصور ماركس، وعلى ذلك فمن الصعب بدونه تخيل الخلافات الأيديولوجية السائدة في عصرنا الحالي. لكن هيغل كانت له آثار أخرى عديدة أثّرت في الفكر الحديث، وهي آثار لا تقتصر على الفلسفة بل تشمل النظريات الاجتماعية والتاريخ والقانون، وحتى في الفيزياء كانت لهيغل مساهمات جادة. وتختلف الآراء حول فلسفته، فالبعض ينظر إليه كما ينظر إلى أرسطو على أنه هو الفيلسوف الذي أتى بمذهبٍ رحبٍ يضمُّ في داخله كل الفلسفات السابقة، والبعض الآخر يعدّه الخطأ الأكبر في الفكر البشري. وليس في هيغل الإنسان أي جانب طريف، إذ يبدو أن الهدف الوحيد لحياته كان القيام بدور كاتم سر «المطلق»، لقد وصف هيغل فلسفته بأنها: «محاولة لجعل الفلسفة تنطق بالألمانية».

يكتب هربرت ماركيوز في كتابه (العقل والثورة.. هيغل ونشوء النظرية الاجتماعية): «في عام ١٧٩٣ كتب هيغل إلى شيلينغ: العقل والحرية يظلان مبادئنا، فإذا تناسج العقل والحرية مع الجدل أمكننا أن نتبيّن التوليفة الهيغلية الفريدة التي تنعكس في أي موضوع تناوله، سواء كان في التاريخ أو المنطق أو الدين أو الفلسفة أو الفن». لقد كان هيغل الذي جعل من القراءة صلاةً يومية مشبعًا بأحلام الثورة الفرنسية التي رفعت شعار الحرية، غير أنه كان

يرفض العنصر الغوغائي فيها واستسلامها لببغائية الجماهير، لكنه -وكما يخبرنا جورج لوكاش- يكنُّ احترامًا أعمق للجماهير التي يقودها العقل ولا تندفع بحسها التلقائي الذي قد ينجح أحيانًا، لكنه يفضي إلى كوارث أحيانًا أخرى. إلا أنه كان من أعدى أعداء الاستسلام للرأي العام، ونراه يكتب في مقدمة كتابة (في الحقوق): «أن تكون مستقلاً عن الرأي العام هو الشرط الصوري الأول لإنجاز أي شيء عظيم أو عقلاني، سواءً في الحياة أم في العلم».

لقد كان هيغل دائمًا ضد الفجاجة في النفس البشرية، ولهذا فإنه يرفض القول بأن الإنسان حرٌّ بالطبيعة، وإنما الإنسان بقوته الذاتية يمارس حريته، فالحرية عند هيغل هي فعل ممارسة الحرية، إنها فعالية الإنسان.

إذن لا مجال هنا للقول إن هيغل مجرد فيلسوف مثالي يتحدث في المطلق، لأنه لا يريد من الإنسان أن يمارس حريته من دون إرادة، فهو يذهب إلى أن الإنسان إذا ما عرف المعنى الحقيقي للحرية، فإنه بالضرورة سيختار المشاركة في تقدم المجتمع والفرد والبشرية بإرادته الحرة. إن هيغل مهتم أساسًا بكيف يختار الفرد بحرية أن يسير مع حركة التاريخ، وكيف تتحدد حريته بالحتمية التاريخية. فما هي وسيلته لتحقيق هذا الأمر؟ إن وسيلة هيغل الأساسية هي اعتناق المنهج الجدلي، حتى يتحرر الفرد من ربقة الواقع الذي قد تحتمه الظروف ولا يتماشى مع حركة التاريخ. أن تريد الحرية ذاتها يعني أن تريد قانونها، وقانونها هو الحق، وليس الحق الفردي، بل الحق المتمشّي مع منطق العقل، ومنطق العقل هو منطق التاريخ، منطق الحتمية التاريخية. غير أن هذه الحتمية التاريخية ليست آلية وإلا كانت هناك خيانة للجدل، بل هي حتمية بمعنى أن الذي يصنع حتميتها هو الوعي الحرّ للأفراد والشعوب التي تختار بإرادتها القانون، لا ليكون خانقًا، بل ليصبح مساعدًا لها على مزيد

من التنفس.

***

العام ١٨٤١، تستقبل باريس الشاب ماركس الذي جاء إليها ليجرِّب حظه في الصحافة، يصادف شابًا أصغر منه بعامين، يرتبطان منذ اللحظة الأولى بصداقة تنتج عشرات المؤلفات. إنه فريدريك إنجلز. في تلك السنة يقرأ ماركس كتاب هيغل الشهير (في الحقوق)، فينشر ردًا بعنوان (نقد فلسفة هيغل في الحقوق) حيث يقترح قلب الجدل الهيغلي لوضعه على قدميه، أي الانطلاق ليس من النظريات، وإنما من ظروف الحياة الواقعية. ويصوغ لأول مرة فكرة أن الوظيفة التاريخية للبروليتاريا هي قلب الرأسمالية، ويكرّر على خلاف هيغل أن الدولة ليست هي التي تُسيِّر التاريخ، بل التاريخ هو الذي يُشكّل الدولة، وأن الإنسان لا يتمكن من التحرر إلا بأفعاله، وليس بنزوة مُحسنٍ أو بإرادة دكتاتورٍ متنور، إذ لا يمكن للثورة أن تأتي إلا من خلال طبقة اجتماعية محرّرة بامتياز

***

ما الذي يجب أن تقرأه لفيلهلم هيغل؟

- المكتبة الهيغلية، وهي في ثمانية عشر مجلدًا ترجمها إلى العربية وأعدّها الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، الذي يعدُّ من أبرز دارسي وشرّاح هيغل بالعربية، وقد كرّس حياته لدراسة أعمال الفيلسوف الألماني وترجمتها.
- الأعمال الكاملة لهيغل، وهي في عشرة أجزاء ترجمها إلى العربية مجاهد عبد المنعم مجاهد.
- فينومينولوجيا الروح «ظاهريات الروح»، ترجمة وتقديم: ناجي

العونلي.

• علم ظهور العقل، ترجمة: مصطفى صفوان.

• مكتبة هيغل في علم الجمال، ترجمة: جورج طرابيشي.

• جدلية الدين والتنوير، ترجمة: أبو يعرب المرزوقي.

وماذا بعد عن مصادر هيغل في العربية؟

• العقل والثورة.. هيغل ونشأة النظرية الاجتماعية، تأليف: هربرت ماركيوز، وترجمة: فؤاد زكريا.

• مدخل لقراءة هيغل، تأليف: ألكسندر كوجيف، وترجمة: عبد العزيز بومسهولي.

• هيغل.. قلعة الحرية، تأليف: مجاهد عبد المنعم مجاهد.

• حياة هيغل، تأليف: عبد الرحمن بدوي.

• تجربتي مع هيغل، تأليف: إمام عبد الفتاح إمام.

• هيغل والهيغلية، تأليف: جان فرانسوا كيرفغان، وترجمة: فؤاد شاهين.

• هيغل.. مقدمة قصيرة جدًا، تأليف: بيتر سينجر، وترجمة: محمد إبراهيم السيد.

• هيغل أو المثالية المطلقة، تأليف: زكريا إبراهيم.

• هيغل من سلسلة نوابغ الفكر الغربي، تأليف: عبد الفتاح الديدي.

-7-

مهمّتي أن أخلق المشاكل والصعاب في كلِّ مكان

في ٢٩ تشرين الأول عام ١٩٤٥، رفض سارتر أن يتسلّم وسام جوقة الشرف الذي منحه إياه ديغول بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لأن مثل هذه التكريمات بالنسبة له تقييد لحريته، وتجعل من الكاتب تابعًا. وفي الرسالة التي أرسلها سارتر كانت هناك عبارة تقول: «عند اختيار أي شيء على الإطلاق، فإنني قبل أي شيء أختار الحرية». كان سارتر قد نشر قبل أشهر آنذاك كتابه الشهير (الكينونة والعدم)، هذا الكتاب الطويل الصعب، الذي لم يحقق مبيعات كبيرة، لكنه ما يزال مثل كتاب (أصل الأنواع) لداروين وكتاب (النسبية) لآينشتاين وكتاب (الوجود والزمان) لهيدغر؛ كتب يُقتبس منها أكثر مما تُقرأ.

لم تكن سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية سنوات الخوف من المجهول، إلا على نحو سطحي، فما حدث بعد الحرب هو العكس، حيث هبّت رياح الحرية على العالم الغربي؛ الحرية الفكرية، حرية الوجود، حرية المرأة، الضجة التي أحدثها كتاب سيمون دي بوفوار (الجنس الآخر)، ثم المثال الحي للموقف الحر الذي قدّمه الثنائي سارتر وكامو.

في الفترة نفسها نشر المسرحي والفيلسوف غابريل مارسيل كتابه المثير (يوميات ميتافيزيقية)، والذي طالب فيه أن تعود الفلسفة الوجودية إلى أصولها الأولى، إلى المعلم سيرون كيركيجارد الذي ظلَّ الدارسون منذ وفاته

عام ١٨٥٥ يعتبرونه مجرّد مفكر ديني حاول إصلاح الأوضاع المتردية في عصره، فيما عدّه آخرون ممثلاً للعدمية بنصوصه الأدبية التي حاول من خلالها إقناع القرّاء بفقر الحياة وعدم جدواها. غير إن غابريل مارسيل شكّك بوجهات النظر هذه، وكتب مقالاً في العدد الأول من مجلة (الأزمنة الحديثة) التي يصدرها سارتر أكد فيه: «أن لكيركيجارد تأثيرًا في عدد من التطورات الفلسفية الهامة، بل إن تحدّيه لوجهة نظر هيغل إلى العقل هي تحديات فلسفية بقدر ما هي دينية. إنها محاولات لنزال الفلاسفة على أرضهم». كان كيركيجارد نفسه يخشى أن يُنظر إليه بعد موته على أنه فيلسوف، ونراه يعترف بصراحة ووضوح في كتابه (خوف ورعدة): «كاتب هذه السطور ليس فيلسوفًا، وهو لم يفهم «المذهب» بل لا يدري إن كان هناك ما يسمى بالمذهب الفلسفي أم لا، ولا يدري إن كان قد اكتمل، يكفيه ما لديه فعلاً في رأسه الهزيلة من تفكير».

وصاحب الرأس الهزيلة هذه لم يكن يعنيه من الفلسفة سوى الرد على الألماني هيغل الذي أراد أن يفسر كل شيء تفسيرًا عقليًا خالصًا، مع أن حياة الإنسان، على حد تعبير كيركيجارد، مليئة بألوان كثيرة من الغموض والألغاز يعجز العقل البشري عن تفسيرها، لأنها تحتاج إلى منهج آخر يختلف عن منهج هيغل: «فالخلط الذي أحدثه هيغل في الحياة الإنسانية أمر لا يصدق». ومن هنا كان كيركيجارد يريد أن يحلّ الوجود الإنساني بكلّ ما يحيط به من قلق وصراع، وتوتر ويأس، وإيمان وخطيئة ومعاناة، محل الوجود العقلي الذي حوّل الواقع الإنساني إلى مجموعة هائلة من التصورات العقلية. »أية فائدة يمكن أن ترتجى إذا درست جميع المذاهب الفلسفية وأظهرت ما في كل هذه المذاهب من تناقضات؟ أية فائدة تعود عليّ لو أنني استطعت تطوير نظرية في الدولة ورتبت جميع التفصيلات في كلّ واحد، وبنيت بهذا الشكل

عالمًا لن أعيش فيه؟ إنّ ما ينقصني في الحقيقة هو أن أرى نفسي بوضوح، أن أعرف ما يجب عليّ أن أعمله، لا ما ينبغي عليّ أن أعرفه إلا بمقدار ما تسبق المعرفة العمل بالضرورة، إن المهم أن أفهم مهمتي في هذه الدنيا». كانت هذه هي بداية الوجودية، كما يقول جون ماكوري في كتابه (الوجودية)، إنها فلسفة تدور حول الإنسان. كيركيجارد يقدّم للإنسان وجهة نظر عامة عن المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه وهو يقول له: لا تبحث عن الحقيقة خارج نفسك، إن الحقيقة لكي تكون جديرة بهذا الاسم لا بد أن تكون ذاتية: «إن ما أريده وما أبحث عنه في كل إنسان هو ألا يفكر بالنهار إلا في مقولات حياته، وأن يحلم بها في الليل».

التقط سارتر عبارة كيركيجارد هذه ليقدم أول محاضرة عن الوجودية بعنوان (الوجودية مذهب إنساني)، أي أنها تضع الإنسان في مركز اهتمامها، وعلى قمة هرم أولوياتها، ونجد هيدجر يقدم التحية لكيركيجارد في مقاله الشهير (رسالة في النزعة الإنسانية) حيث يرى أن كيركيجارد استطاع أن يقدّم فلسفة قادرة على الانفتاح على الوجود الإنساني، وفي تعبير شهير يكتب هيدجر عن هذا الإنسان الوجودي أنه «راعي الوجود».

بعد ٦٠ عامًا على وفاة كيركيجارد يكتب الوجودي الروسي نيقولاي بِرديائف: «إن كيركيجارد يريد أن تكون الفلسفة نفسها وجودًا بدلاً من أن تكون مجرد بحث في الوجود». كان برديائيف تلميذًا مخلصًا لأفكار المعلم النمساوي الذي طالب بأن على الإنسان أن يغيّر نفسه أولاً قبل أن يغيّر العالم، ويعلنها برديائيف صريحة في كتابه الشهير (الحلم والواقع): «غيّر نفسك يتغير العالم لك، وبك، ومن حولك».

***

كان في السادسة من عمره حين أدرك أنه لن يتمكّن من تذوّق صحبة أقرانه

في المدرسة، الذين كانوا يسخرون من هذا الصبي ناحل الجسم. فالطفل الذي ولد لأب يبلغ من العمر السادسة والخمسين، جمع مالاً كثيرًا، لكنه أيضًا جمع نظرة متشائمة إلى الحياة، يتصور أن لعنة الله قد حلّت به وبعائلته. كان أصغر الأبناء السبعة للأسرة، وقد هيمنت على البيت النزعة الأبوية الصارمة، فقد كانت للأب نظرة كئيبة إلى الحياة، وكان يعاني من نوبات متقطعة من الاكتئاب واليأس، والشعور بأنه ارتكب خطيئة كبيرة. وقد ورث الابن عن أبيه الاكتئاب والسوداوية التي كانت تنتابه بين الحين والآخر، فنراه يكتب في مؤلفه (وجهة نظر) والذي هو أشبه بالسيرة الذاتية: «وأنا طفل تربيت على المسيحية بصرامة وشدة، وإذا جاز لي أن أعبّر عن نفسي بإنسانية، لقلت إنني تربيت على نحو جنوني، وحتى في طفولتي المبكرة، قيدتني انطباعات حطّت عليّ من سوداوية الرجل العجوز الذي كان هو نفسه محاصرًا بها، لقد كنت طفلاً تربّى على أنه رجل عجوز سوداوي».

ولد سورين كيركيجارد في كوبنهاغن في الخامس من أيار عام ١٨١٣، حاول في سن الشباب أن يتخلص من جو الكآبة الذي عاشه مع أبيه، فأقبل بكل قوة على حياة اللهو، ورفع شعار «تلذذ بكل ما هو حسي». ونراه يحاول إيجاد أعذار لهذه المرحلة من حياته، فيكتب في يومياته: «لقد ولدت كهلاً حين أتيت إلى الوجود، ولكن يعزى إليّ الفضل في إخفاء أحزاني بسعادة ظاهرة».

يرسم جون ماكوري في كتابه الممتع (الوجودية) صورة طريفة لصبي منعزل يرتدي سروالاً قصيرًا وقميصًا ملونًا، وجوارب طويلة، حتى أطلق عليه زملاؤه في المدرسة لقب «صبي الجوارب». لم يكن يملك أية لعبة في منزله، وحين كان يطلب الخروج من البيت كان والده يمنعه، فالاختلاط خطر: «لقد سرقوا طفولتي، وأعطوني وأنا طفل هيئة رجل عجوز، كان

ذلك رهيبًا». كانت تسيطر على أبيه فكرة الخطيئة، وقد قال لأولاده إنه عندما كان شابًا يرعى الأغنام، شعر باليأس والضجر، فأنكر الله الذي لم يساعده في الحياة، وإنه رأى بعد ذلك في المنام أن عاصفة رعدية ضربته، ومنذ ذلك التاريخ وهو يظن أن الله سينزل عليه في يوم من الأيام عقابًا رهيبًا. وحين ازدهرت تجارته، بدت له الثروة والحياة المرفهة كنوع من الاختبار، وحين وقع لابنه الأصغر سورين عدد من الحوادث، اعتقد الأب أن لحظة سداد الدين قد حانت، وأن عليه أن يقدم آخر أبنائه قربانًا كما فعل النبي إبراهيم مع آخر أبنائه. ولعبت الأقدار دورًا في ازدياد كآبة الأب الذي دفن خمسة من أبنائه بالإضافة إلى زوجته، هذا المزاج السوداوي يصفه لنا كيركيجارد في يومياته: «تلك الحياة هي العالم معكوسًا، حياة قاسية وغير محتملة، أحيانًا نقول الوقت يمر، والحياة تتدفق، ولكني لا أرى ذلك، بل يبقى الوقت ساكنًا، وأنا كذلك، كل خطط المستقبل التي أرتبها ترتد إلي، وحين أرغب في أن أبصق، فأنا أبصق في وجهي».

وكان كيركيجارد يذكر الماضي الذي عاشه مع أبيه ويتعذب، لكنه لا يريد أن يغادر هذا الماضي، إنه يصرّ على أن يجعل من عذابه نقطة انطلاق نحو فهم للحياة: «مهمتي هي أن أصرخ وأدعو الناس، أن أخلق المشاكل والصعاب في كل مكان».

في السابعة عشرة من عمره ينهي تعليمه الثانوي ويستجيب لرغبة والده بدراسة اللاهوت، وتبدأ مرحلة جديدة من حياته كان فيها مولعًا بقراءة أعمال الفلاسفة المثاليين الألمان، فنراه يبدي سعادة كبيرة حين يلتقي الفيلسوف الألماني شيلنغ: «أنا سعيد سعادة لا توصف لسماعي محاضراته، حتى إنني تنهدت طويلاً بما فيه الكفاية، وتنهدت الأفكار بداخلي». وقد اتفق مع هجوم شيلنغ على هيغل.

عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره توفى والده، الأمر الذي أحدث تحولاً كبيرًا في حياته: «لقد توفى والدي قبل أن يتم العقاب حبًا لي، وذلك حتى أتحمل وحدي العقاب». وبعد عامين حصل على شهادة في اللاهوت وخطب رجينا أولسن، لكنه فسخ خطوبته بعد عام، معلنًا بوضوح أنه لا ينفع للحياة الزوجية، فقد أصبح مقتنعًا بأنه إنسان لديه رسالة عظيمة، وأن الزواج والعائلة يتعارضان مع هذا الهدف.

في عام ١٨٤٣ ينشر أول كتبه (إما - أو) وفيه يعبّر للمرة الأولى عن موقفه من الحياة، وهو موقف المتشائم: «لندع الآخرين يشتكون من هذا العصر الذي هو عصر الشر، إنني أشكو لأنه عصر تعس، عصر بلا عاطفة، وأفكار الناس نحيلة وهشة كرباط الحذاء، إن نفسي مثقلة حتى إنه ما من فكرة بقادرة على تعزيتها». بعدها بأشهر ينشر كتابه الثاني (خوف ورعدة)، وتبع هذين العملين في عام ١٨٤٤ كتاباه (مفهوم التهكم) و (شذرات فلسفية). وبعد عام نشر كتابه الخامس (مراحل على طريق الحياة)، ويبدو أنه كان يشعر أن حياته قصيرة فأخذ يكتب بشكل محموم، فنشر خلال ثلاثة أعوام أكثر من مؤلف، وأصدر مجلة خاصة حاول من خلالها أن يبثَّ أفكاره التي أراد أن يقول من خلالها إن على الكنيسة أن تعود إلى جوهر المسيحية، إذ يجب على المسيحية الكنسية أن تعترف بأنها ليست مسيحية. وقد اتهم الكهنة بأنهم يتلاعبون بالدين، وجعلوا من الكنيسة مصدر كسب للعيش، لكنهم لم يفهموا أن الدين هو الولاء، وقبل كل شيء «في الارتفاع عن هذا»، وعن الكهنة الذين وصفهم بأنهم: «أكلة لحوم البشر».

في أحد الأيام من شهر تشرين الأول عام ١٨٥٥ وبينما كان كيركيجارد يسير باتجاه الصحيفة، وقع مغشيًا فنقل إلى المستشفى، حيث رقد شهرًا كاملاً، والغريب أن أول عبارة قالها عند دخوله المستشفى هي: «لقد جئت

هنا لأموت».

وفي المستشفى طلب منه بعض أصدقائه أن يتراجع عن هجومه ضد الكنيسة، فكان جوابه: «لقد أردت أن أموت، وحينئذ أستطيع أن أتأكّد أنني قد أنجزت مهمتي، وسوف يكون الناس أكثر إنصاتًا إلى كلمات إنسان ميت عن الإنصات إلى كلمات الإنسان الحي». وحين يسأله الطبيب المعالج إذا ما كان يريد أن يتلقى المغفرة، فيجيب: «نعم، ولكن ليس من قس، بل من إنسان عادي. إن الكهنة موظفون رسميون، والموظفون ليست لهم علاقة بالكنيسة». ويوصي الطبيب قائلاً: «لو سئلت عن العبارة التي أتمنى أن تكتب على قبري، فلن أطلب إلا عبارة واحدة هي: «ذلك الفرد».

***

كان نتاج كيركيجارد على الرغم من وفاته في سن الحادية والأربعين نتاجًا ضخمًا، وميادين البحوث التي تعرّض لها تبلغ من الاتساع ما بلغته تلك التي ناقشها هيغل. وبما أن الوجود يعني القيام باختبارات أخلاقية فهو «إما - أو» مستمر وحياة عمل، خلال سنوات عمره التي لم تتجاوز الواحد وأربعين عامًا قضى الجزء الأكبر منها في صراع مع هيغل، ذلك أن نظرة كيركيجارد للفلسفة تعتقد أنه لا توجد باستمرار حدود حاسمة أو واضحة المعالم للحياة، فخبرتنا ومعرفتنا هما باستمرار شذرات غير مكتملة. ولعل أولى السمات وأوضحها في فكر هيغل أن التفلسف يجب أن يبدأ من الإنسان، لا من الطبيعة، فالوجودية فلسفة عن الذات أكثر منها فلسفة عن الموضوع، وأن الإنسان عند كيركيجارد هو الموجود في نطاق تواجده الكامل، فهذا الموجود ليس ذاتًا مفكرةً فحسب، وإنما هو الذات التي تأخذ المبادرة في الفعل وتكون مركزًا للشعور والوجدان، ولهذا فإن الفيلسوف الوجودي حسب كيركيجارد هو الذي يندمج في الوقائع الفعلية للوجود. ويصرح

سارتر بأن: «الفلسفة هي نتاجٌ لإنسانية كل فيلسوف، فالإنسان هو الذي يتفلسف». لقد رفض كيركيجارد كل محاولات الفلاسفة في خلق تفسيرات عن الإنسان والعالم، ووقف بوجه هيغل الذي أراد أن يفسّر الوجود من خلال العقل، حيث أكّد كيركيجارد على أن الفلسفة لا يجب أن تكون مجرّدة، بل على العكس من ذلك يجب أن ترتكز على تجربة شخصية، وعلى موقف تاريخي يجد الفرد فيه نفسه، ومن هنا كانت الفلسفة عند كيركجارد بمثابة نقطة ارتكاز لكل حياة فردية، وليست وسيلة للتأمل العقلي المجرد.

ربما تكون رسالة كيركيجارد الأكثر أهمية هي أنْ فهم العالم والعمل على النفس يتطلب وجودك الكامل. لقد كان لعمله وحياته عمق أخلاقي حقيقي، إلى جانب فيض من المرح والسخرية. بالنسبة لكيركيجارد، كانت السخرية هي الأداة التي من خلالها نستطيع أن ندخل في فحص ذاتي دون غطرسة وتكبر: «فالشك للعلم، مثل السخرية للحياة الشخصية».

اليوم وعلى الرغم من أن الوجودية تظل مصطلحًا كثير التداول، وعلى الرغم من أن سارتر لا يزال هو أشهر فلاسفتها، فغالبًا ما يتذكر مؤرخو الفلسفة الفيلسوف الدنماركي كيركيجارد الذي جعل من الفلسفة ظاهرة ثقافية تترك آثارها في فروع الثقافة الأخرى، واستطاعت منذ الكتابات الأولى لكيركيجارد صياغة مصطلحات من عينة القلق وخداع الذات والالتزام والصدق، والكثير من المصطلحات التي ما تزال تتداخل في أحاديثنا اليومية. ولعبت الوجودية -وخصوصًا في السنوات الأخيرة من القرن العشرين- دورًا رئيسيًا في الفلسفة الأوروبية، وساهمت في الحوار الفلسفي المستمر، وكانت تعبر بصدق عن الهموم الأخلاقية الدائمة للوضع الإنساني، وما زالت كتابات روادها الأوائل تدافع عن الحرية الفردية والمسؤولية الاجتماعية.

قبل يوم من وفاة كيركيجارد يكتب رسالة إلى خطيبته السابقة ريجينا

أولسن: «سلامي إلى جميع البشر، لقد أحببتهم وحرصت عليهم كثيرًا، قولي لهم إن حياتي كانت عذابًا هائلاً لم يعرفه ولم يفهمه الآخرون، ربما كانت تبدو كبرياءً وغرورًا، لكنها لم تك قط شيئًا من ذلك، لقد استنتجت طوال حياتي أن مهمتي غير عادية، ولقد حاولت أن أقوم بهذه المهمة قدر استطاعتي».

ما الذي يجب أن تقرأه لسورين كيركيجارد؟

- خوف ورعدة، ترجمة: فؤاد كامل.
- إما.. أو، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد.
- في نقد الدين الجماهيري، ترجمة: قحطان جاسم.
- المرض طريق الموات، ترجمة: د. أسامة القفاش.
- استفزازات، ترجمة: فادي فيكتور ومينا مدحت.

وماذا بعد عن مصادر كيركيجارد في العربية؟

- سورين كيركيجارد.. رائد الوجودية، تأليف: د. إمام عبد الفتاح إمام.
- سورين كيركيجارد.. تصوف المعرفة، تأليف: وليام هُبين، وترجمة: سعاد فركوح.
- كيركيجارد، تأليف: فريتيوف برانت، وترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد.
- الحب والإيمان عند سورن كيركيجارد، تحرير وتقديم: عبد الجبار الرفاعي.
- الوجودية، تأليف: جون ماكوري، وترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام.

-8-

الفيلسوف الذي أراد أن يجعل من السلوك الإنساني أشبه بالرياضيات

قبل وفاته بعامين، كتب الفيلسوف وعالم النفس الأميركي جون ديوي ردًا على سؤال حول مصير الفلسفة يقول فيه: «كنت أسعى لإطالة عمر الفلسفة، لكن كلمتين أصبحتا قريبتين من الناس، وهما العلم والديمقراطية، أسدلتا الستار على مهنة الفيلسوف». كان ذلك عام ١٩٥٠، آنذاك كان ديوي يعتقد أن الإنسان المعاصر قد تجاوز الفلسفة، وأن النظم السياسية الحديثة والثورة العلمية كانا وراء موت الأم العجوز «فيلسوفيا»، فهل ماتت الفلسفة حقًا؟ وهل على البشرية أن تؤدي لها الطقوس والمراسم الجنائزية؟كان ديوي من المتحمسين إلى أقصى حد لنجاح العلم ومناهجه في البحث، وكان مؤمنًا إيمانًا جازمًا بالإمكان الحقيقي للتقدم العلمي في الأمور البشرية، فالمجتمع لا يمكن أن يتقدم إلا إذا كان أعضاؤه على قدر من التربية ليكونوا عقلانيين ومرنين، واعتَقد ديوي أنه لا بد من تشجيع الفن لأنه يثير «الحلول» الخيالية ومشكلاتها الفريدة.

***

الانهيار الفلسفي

كان ديوي يرى أن المجتمعات الديمقراطية هي الأفضل لأنها مجتمعات مرنة تتجنب المعتقدات الجامدة، وبذلك تكون قادرة على التغيير. وظل

ديوي مهتمًا بالنظم الجديدة في علم الاجتماع، لأنه يعتقد بقدرتها على حل المشكلات الاجتماعية بعيدًا عن التنظير الفلسفي. وظلّ مصرًا على أن الفلسفة إذا لم تعالج مضامين النسبية والذكاء الاصطناعي والرياضيات فإنها في طريقها إلى الانهيار، الأمر الذي دفعه إلى كتابة مقال بعنوان (الانهيار الفلسفي) أكّد فيه أن الفلسفة نوع من المرض، يحتاج أطباؤه إلى علاج.

وكفيلسوف براغماتي، يقدم ديوي المولود عام ١٨٥٩ مفهومًا مختلفًا عن المعرفة الفلسفية باعتبار أن المعرفة هذه يجب أن تسلط الضوء على الأفكار النافعة فقط. والفكرة النافعة هي التي تجيب عن سؤال لدى الإنسان وتحل المشكلة التي تواجهه. ولهذا يرى أن الفلسفة في السنوات الأخيرة لم تعد تقدم حلولاً مثل العلم والنظم الديمقراطية الحديثة، فهي حسب رأيه أصبحت مخصصة فقط للأفكار التي لم تثبت الخبرة نجاحها. عند ديوي، التفكير العلمي فقط هو الذي يربط مباشرةً بين الفكر والعمل، ويحاكم الأفكارَ بحسب قدرتها على الإنتاج.

في كتابه (إعادة البناء في الفلسفة)، يرى ديوي أن الفلسفة ضلّت الطريق حين فصلت الفكر عن التجربة العملية. وهو يرى أن الفلسفة ومناهجها وموضوعاتها لم تعد لها قيمتها النظرية التي يمكن الاستفادة منها في عصرنا الحديث، ويستند ديوي في دعوته لإحلال العلم والديمقراطية والتربية بدلاً من الفلسفة، إلى التغير الذي حدث في مفاهيم العقل والخبرة والمنطق والمجتمع في القرن التاسع عشر، حيث كان يرى أن الفلسفة بمناهجها القديمة أصبحت عائقًا أمام تطور الأفكار، وما لم تؤسَسُ الأفكار الفلسفية على مفهوم الخبرة والتجربة، فإنها تصبح أفكارًا مجردة.

وفي كتابه الضخم (المنطق)، يدعونا ديوي إلى أن نؤمن بأن المفاهيم الفلسفية تابعة للظروف الاجتماعية، فهناك أسبقية للواقع الاجتماعي

والنفسي على الفكر: «أهم خاصية فكرية للعصر الحاضر هي يأسه من بلوغ أية فلسفة، فبعد تقدم القرن الماضي أشواطًا بعيدة أصبحنا الآن نحس باهتزاز أركان المعتقدات الفلسفية وانقلابها. إن انهيار الأفكار التقليدية فرصة نرحب بها، فبالإمكان حصول التعاون بين العلم والفن للتأثير في الصناعة، والسياسة، والدين، والحياة المنزلية، وعلى العلاقات الإنسانية بوجه عام».

***

بين الفلسفة والعلم

في عام ١٩٥١ يكتب فيلسوف بريطاني اسمه برتراند رسل رسالة إلى كبير فلاسفة أميركا جون ديوي، يحييه باعتباره الفيلسوف الحي الذي له تأثير عميق ليس بين الفلاسفة فقط، وإنما بين المهتمين بدراسة التربية والجمال والنظرية السياسية: «سيدي العزيز، أكاد أتفق معك اتفاقًا تامًا في معظم آرائك، ولكنني مضطر، للأسف، أن أختلف معك في نظرتك لدور الفلسفة في عصرنا، أعني الاستعانة بالعلم ومناهج التربية والديمقراطية كبديل عن معارفنا الفلسفية، فلا تزال معظم معارفنا ونشاطنا العلمي والتربوي والسياسي تخضع لرضا هذه الأم العظيمة: الفلسفة».

ويتساءل رسل: ما الفلسفة؟ إنها بحسب المحاورات التي سُجّلت معه ونُشرت في كتاب بعنوان (محاورات مع برتراند رسل): «تتألف من تأملات عن الموضوعات التي لم تستطع المعرفة العلمية أن تحسمها، والفرق بين الفلسفة والعلم هو أن العلم يدور حول ما نعرفه، أما الفلسفة فتدور حول ما لا نعرفه».

إذن عندما نوقن من شيء ونكتشفه فإنه لا يظلّ فلسفة وإنما يتحول إلى علم، هكذا يجيب رسل على ما كتبه جون ديوي. ويضيف رسل أن

للفلسفة فائدتين، الأولى أنها تغذي التأمل في الأشياء التي لم تخضع بعد للمعرفة العلمية، والثانية أنها توسّع من نظرتنا الخيالية تجاه العالم. فقد ابتكر ديمقراطس الافتراض الذي يقول بأن المادة تتألف من ذرات صغيرة، وبعد ألفي عام ثبت أن هذا الرأي هو العلمي الصحيح، غير إنه في عصره كان ضربًا من الخيال. وكان إريستاخورس أول من أشار إلى أن الأرض تدور حول الشمس، وأن التحركات اليومية للكواكب مرجعها دوران الأرض. وظلّ هذا الافتراض خارج حدود تصديق العقل، إلى أن ظهر كوبرنيكوس. الفلسفة إذن تفكر بالأشياء التي قد تكون صحيحة، ومهمة العلم إثبات صحتها أو خطئها. هكذا حاول فيلسوف بريطانيا برتراند رسل أن يعيد إلى الفلسفة مكانتها بعد أن حاول ديوي أن يستبدلها بالعلم والنظم السياسية الحديثة والفنون وما تضيفها لخبرات الإنسان.

***

كتاب لم يقرأه سوى عشرين شخصًا

«ماتت أمي وأنا في الثانية من عمري، وكنت في الثالثة حين مات أبي، فنشأت في دار جدي الذي لم يشأ أن يجيبني عن مصير والديَّ، حتى لقد شاع في نفسي إحساس بأن يكون في الأمر لغز غامض لقلّة ما عرفته عنهما. ولما بلغت الحادية بعد العشرين أخذت أعرف بعض الخطوط الرئيسية في حياة أمي وأبي وما كان لهما من آراء، وكم دهشت حين رأيتني قد اجتزت المراحل بعينها التي اجتازها أبي في تطور عقله وشعوره».

ويضيف برتراند رسل المولود في الساعة السادسة إلا ربعًا من مساء ١٨ أيار عام ١٨٧٢، في مذكراته التي نشرها في ثلاثة أجزاء أسماها (سيرتي الذاتية) من أن والده خاض قبله مجال الفلسفة، وكان صديقًا للفيلسوف الشهير جون ستيوارت ميل. ويذكر رسل أنه عندما بلغ الخامسة عشرة من

عمره، كان الكتاب المفضل لديه هو كتاب ستيوارت ميل القيّم عن الحرية. فمن خلال ميل يدرك رسل أن تمتع الفرد بالحرية لا يتحقق إلا بعد تحقيق الرفاهية، وكي يتمكن الإنسان من هذا، فإنه يحتاج إلى حرية التعبير، وليس إلى حرية التعبير فقط، بل إلى حرية اختيار أسلوب ممارسة الحياة. ويمضي رسل في الحديث عن تأثير ستيوارت ميل على أفكاره في مرحلة الشباب، فيقول: «إن ميل كان يدرك جيدًا قيمة التنوع داخل المجتمع، ويرفض الاعتقاد بأسلوب واحد للحياة». ويذهب رسل بعيدًا في التأثر بأفكار ميل حين يضع كتابًا بعنوان (انتصار السعادة) يحاول من خلاله أن يؤكد أن فهم ستيوارت ميل للسعادة بأنها ناجحة، ووصف الأفراد الذين يطورون من قدراتهم، يصبح فهمًا صحيحًا. وحتى يتطور الأفراد فإنهم يحتاجون إلى الحقيقة، وحتى يحققوا ذلك التطور أيضًا يجب ألا يكونوا مستقبلين طيّعين لما يردُ إليهم من الناس ويعتبرون أنه الأفضل بالنسبة لهم، ويجب عليهم ألا ينقادوا وراء ما يقوله الآخرون لهم، ويجب أن تتوفر للناس حرية اعتراض بعضهم على بعض بشأن كيفية العيش بالأسلوب الأفضل، وليس بإجبار بعضهم بعضًا على العيش بطريقة معينة.

كان جد برتراند رسل اللورد جون رسل يعيش بوصفه رئيس وزراء سابق، ذا مكانة مرموقة، في منزل كبير منحته إياه الملكة، وعندما ذهب برتراند وأخوه فرانك إلى هذا المنزل، كان الجد قد بلغ الثالثة والثمانين من عمره، وتوفي بعد ذلك بعامين. يتذكر رسل مكتبة جده التي أثارت اهتمامه لما حوته من كتب في التاريخ والسياسة: «كنت أعرف كل كتاب من كتب المكتبة، وكنت أبحث في أركانها عما يثير مخيلتي من التاريخ القديم». إلا أن التربية الصارمة التي كانت تتبعها عائلة رسل لم تكن تسعد برتراند الصبي، ولهذا نجده يدين أساليب التربية المتزمتة هذه فيقول: «كانت الفضيلة هي

الشيء الوحيد الذي تعلق عائلتي الأهمية عليه، الفضيلة على حساب العقل والصحة والسعادة وكل مصلحة». وقد ظهر خلاف رسل مع عائلته في سن مبكرة حول دراسة الفلسفة، فقد كانت العائلة غير راضية عن هذا الاتجاه، وعملت إحدى عماته كل ما في وسعها لكي تثنيه عن هذا الطريق، فكانت تسخر من إصراره على التفرغ لقراءة كتب كانط وديكارت وأرسطو. ولكي يوفّق بين رغبته وإصرار عمته درس الرياضيات في جامعة كامبردج ليتخرج منها بتفوق عام ١٨٩٥. وهنا واجهته مشكلة جديدة، فقد أرادت له العائلة أن يعمل في السياسة لأنها مهنة توارثتها منذ عقود، واعتبرت عمته أن خروج ابن شقيقها على تقاليد الأسرة خيانة، وعرض عليه أحد أعمامه وظيفة في السلك الدبلوماسي، لكن إغراء الفلسفة كان أقوى من غضب العائلة. فقرّر أن يعمل محاضرًا في الجامعة فيختار في البداية تدريس الرياضيات، التي كان يجد فيها لذة من خلال البرهنة على الأشياء. لكنه بعد عام من التدريس غمره شعور باليأس بسبب المناهج المتّبعة في التدريس والتي اعتبرها نوعًا من الألغاز تتطلب من الطالب مهارة في المراوغة، وأنها لا تمتّ بصلة إلى المشاكل الأساسية في فلسفة الرياضة التي كانت تثير اهتمامه بسبب محاضرات أستاذه ألفـرد نورث وايتهد الذي أصبح فيما بعد زميله في الجامعة، وقد وضعا معًا فيما بعد أضخم كتاب عن الرياضيات بعنوان (أصول الرياضيات) نشر الجزء الأول منه عام ١٩٠٢. وكان رسل قد رسم صورة عامة لخطة العمل في هذا المشروع، حيث وزّع العمل بينه وبين وايتهد.

وقد استغرق تأليف الكتاب وقتًا طويلاً حيث كان الفيلسوفان يكتبان كل قضية رياضية على ورقة منفصلة حتى يسمح لهما ذلك بإضافة أية قضايا جديدة. ويخبرنا رسل بعد ذلك أن هذا الكتاب جمّد قريحته، وأنه عذاب استمر سبع سنوات. ويرجع الألم الذي عانى منه رسل إلى أنه، بعد أن حاول

أن يردّ الرياضيات إلى أصولها في علم المنطق، اكتشف أن هناك تناقضات في المنطق لم تنتهِ بعد، ونراه في رسالة يكتبها إلى زميله في الجامعة الفيلسوف جورج مور يعلن بأن علم الرياضيات يهتز من أساسه.

ولعلّ الطريف عن كتاب (مبادئ الرياضيات) أن رسل أخبر كاتب سيرته أنه يعتقد أن لا هو ولا هوايتهد قد قرآ الكتاب بعد صدوره، ولم يقبل على قراءة الكتاب إلا قلة قليلة جدًا، لجفاف موضوعه. ولم يجلب لمؤلفيه أية عائدات مالية، لكنه أكّد سمعتهما الفكرية، حيث تم اعتباره أعظم مساهمة في المنطق منذ أرسطو، ولكن بالتأكيد فإن عدد الذين قرأوه بأجزائه الثلاثة من البداية إلى النهاية لا يتجاوزون في العالم عشرين شخصًا.

***

الفلسفة حين تتجول في الأسواق

في أواسط القرن العشرين أصبح برتراند رسل الممثل الحقيقي لكلمة «فيلسوف»، مثلما كان صديقه أينشتاين يمثّل صورة العالِم للملايين من البشر. لقد بدا لرسل دور الفيلسوف مناسبًا، بشعره الأبيض وملامحه الجادّة الصارمة، والغليون الذي لم يفارقه. كان أول من قدّم محاضرةً إذاعية عن الفلسفة عام ١٩٤٩، وأصبح كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) الأكثر مبيعًا في العالم. بدأ حياته بكتاب (الديمقراطية الاجتماعية) وانتهى بجرائم الحرب على فيتنام. هو أول فيلسوف يمنح جائزة نوبل، وفي عام ١٩٦١ وفي عمر التسعين تحمّل السجن بسبب دعوته للاحتجاج ضد الحروب. كان يدّعي أنه مقاد بـ: «مشاعر ثلاثة بسيطة، لكنها قوية غامرة: التوق إلى الحب، البحث عن المعرفة، والشفقة التي لا تُطاق لمعاناة الإنسان». أفضت كتاباته الواسعة بشكل كبير إلى تسميته بـ«فولتير القرن العشرين». يخبرنا تلميذه لودفيغ وتغنشتاين أن رسل لم يكتب فلسفة حقيقية بعد كتابه (مبادئ الرياضيات).

ومن الطريف أنه تلقى سؤالاً من إحدى السيدات عن سبب تخلّيه عن الفلسفة، فأجاب بسرعة: «لأنني وجدت أنني أفضّل ممارسة الجنس». في العام ١٩٠١ يقرر رفض مبادئ هيغل، شاعرًا كما قال: «بتحرر عظيم، كما لو أنني هربت من بيت حار إلى منطقة تعصف بها الرياح». وانتقل نحو وجهة نظر الفلسفة التجريبية التي كان يقودها هوايتهد التي تؤكد أن العالم «يشبه كومة من نار». كان عمله الأول الذي أسّس له مكانة كفيلسوف اجتماعي كتابه (عبادة الإنسان الحر) الذي كتبه عام ١٩٠٢ . ويهدف الكتاب إلى تأمين عزاء مقبول وعقلاني لغير المتدينين، إلا أن كتابه الذي وضعه على كرسي الفيلسوف هو (مشاكل الفلاسفة) الذي يبدأ بسؤال على الشكل التالي: «هل هناك أية معرفة تكون مؤكدة بشكل لا يستطيع إنسان منطقي أن يشكّك بها؟» هذا السؤال الذي لا يبدو صعبًا للوهلة الأولى هو بالفعل واحد من أصعب الأسئلة التي يمكن أن تُسأل. لقد تمكّن رسل من خلال هذا الكتاب الصغير أن يقدّم لنا الدافع الحقيقي وراء اشتغاله بالفلسفة، كما جعله أول فيلسوف تقرأ كتبه مثلما تقرأ الروايات ودواوين الشعر، وينزل الفلسفة من عرشها ليجعلها تتجول في الأسواق العامة.

في عام ١٩١٤ زار رسل الولايات المتحدة الأميركية، وألقى محاضرات في جامعة هارفرد، وأصدر كتابه (معرفتنا بالعالم الخارجي). وكان الشاعر الإنكليزي ت. س. إليوت واحدًا من بين تلاميذه في الجامعة، وكتب عنه قصيدة بعنوان (السيد أبوليناكس)، صوّره فيها على أنه كائن أسطوري غريب، بل ومفزع.

يخبرنا رسل أن الحافز الأساسي الذي دفعه إلى الفلسفة هو اكتشاف ما إذا كان من الممكن معرفة أي شيء معرفةً يقينيةً. وقد راوده هذا الطموح بسبب أزمتين فكريتين: فقدانه الإيمان الديني، وخيبة أمله في الاضطرار إلى تقبّل

البديهيات كأساس للرياضيات. ولهذا نراه يتجه إلى المشكلات الفلسفية العامة، وكان يأمل من خلال الفلسفة أن يجد حلولاً لأزمة الإنسان المعاصر، وراح يعود إلى معظم المشكلات الإنسانية، الواحدة بعد الأخرى، ساعيًا إلى تطوير آرائه من خلال الأساليب التحليلية المستمدة من عمله في فلسفة الرياضيات والمنطق، والتي أسهم من خلالها إسهامًا كبيرًا في المناقشات التي دارت حول المعرفة، والأخلاق، والسياسة، والدين، والتعليم، وقضايا الحرب والسلام، وكان يرى أن الفلسفة فرع فني من فروع المعرفة.

لم يكن برتراند رسل عالم رياضيات مقتدر وحسب، وعالم منطق من الدرجة الأولى، بل هو أيضًا كاتب أخلاقي وفيلسوف، ورجل سياسة من نوع متميز. وقد تميّزت حياته بالمواقف الجريئة التي اتخذها إزاء مشاكل العالم، لكن بالمقابل أثارت حياته العاطفية والجنسية الكثير من اللغط. فقد تزوج أربع نساء، وقد تم حرمانه من الأهلية عام ١٩٤٠ بسبب مواقفه العلنية التي تؤيد الإجهاض والحرية الجنسية.

وكان أيضًا مولعًا باستفزاز الحكومات، مع إرادةٍ ترفض تقديم التنازلات في القضايا التي تبدو عادلة في نظره، حيث أدان بدءًا من كتابه (عناصر الأخلاق) الصادر عام ١٩١٠ أغلال الأحكام المسبقة، وضيق أفق أحكام معاصريه، وانتقد بشدة بلادة المحظورات الدينية، وعارضها ببحث طالب فيه بإعلاء شأن الحب والسعادة والحريات.

اتّسم برتراند رسل، عالم الرياضيات، العاشق المولع بالحقيقة والعدالة الاجتماعية، بطابع العقلانية العميق، وكان يرفض على وجه التحديد الإيمان بالعقيدة الدينية، وفي عام ١٩٥٧ نشر كتاب (لماذا لست مسيحيًا؟).

ولعل حياته الطويلة - توفي عام ١٩٧٠ - ومؤلفاته العديدة، تحتل اليوم مكانة هامة ضمن مغامرة العقل البشري في البحث عن الحقيقة، وقد اتسمت

دومًا بالشجاعة والمقاومة ضد الأفكار البالية.

***

ما الذي يجب أن تقرأه من مؤلفات برتراند رسل في العربية؟

- النظرة العلمية، وترجمة: عثمان نويه.
- ما وراء المعنى والحقيقة، ترجمة: محمد قدري عمارة.
- الدين والعلم، ترجمة: رمسيس عوض.
- برتراند رسل.. مختارات من أفضل ما كتب، ترجمة: محمد قدري عمارة.
- أثر العلم في المجتمع، ترجمة: صباح صديق الدملوجي.
- انتصار السعادة، ترجمة: محمد قدري عمارة.
- محاورات برتراند رسل، ترجمة: محمد عبد الله الشفقي.
- السلطة والفرد، ترجمة: لطيفة عاشور.
- حكمة الغرب، ترجمة: فؤاد زكريا.
- سيرتي الذاتية، ترجمة: فائز إسكندر وآخرون.
- أصول الرياضيات، ترجمة: د. أحمد فؤاد الأهواني وآخرون.
- تحليل العقل، ترجمة: عبد الكريم ناصيف.
- بحث في المعنى والصدق، ترجمة: د. حيدر حاج إسماعيل.
- ألف باء النسبية، ترجمة: فؤاد كامل.
- مشكلات الفلسفة، ترجمة: سمير عبده.

- تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: د. زكي نجيب محمود.

وماذا بعد عن مصادر برتراند رسل في العربية؟

- برتراند رسل.. مقدمة قصيرة جدًا، تأليف: إيه سي جرايلينج، وترجمة: إيمان الفرماوي.

- برتراند رسل.. سيرة حياة، تـأليف: آلان وود، وترجمة: رمسيس عوض.

- ثلاثية رمسيس عوض عن برتراند رسل الفيلسوف والإنسان والسياسي.

-9-

مهندس السكك الذي قرّر أن يعيد تركيب العالم

في العام ١٨٤٥، وجد مهندس السكك هربرت سبنسر نفسه مطرودًا من العمل، وكان في الخامسة والعشرين من عمره. يكتب في مذكراته: «إنني سعيد. لقد طُردت من العمل، سأتفرغ للقراءة». بعد الطرد من الوظيفة بأسابيع، وبمعاونة صديقه جورج هنري لويس، ينشر سبنسر أوّل مقال له بعنوان (فرض التطور)، ناقش فيه كتابات عالم الأحياء الشهير جان لامارك. لقد أراد سبنسر إحياء فكرة لامارك عن التطور، والتي جوبهت برفض شديد من الكنيسة ورجال الدين. وفي مقاله (فرض التطور) يسعى جاهدًا لوضع أسس جديدة لفلسفة التطور التي سترتبط فيما بعد بكتاب داروين الشهير (أصل الأنواع)، والذي يُنسب إليه اليوم الفضل في كونه أول من قال بمفهوم التطور، فيما أن الحقيقة هي أن داروين كان أول من جعل لنظرية التطور أسسًا علمية، وكان مؤلفاه الشهيران (أصل الأنواع) و (نشأة الإنسان) هما اللذان رفعا في نهاية الأمر راية المنهج التطوري. فلم يكن داروين نفسه فيلسوفًا، وإنما اكتفى بأن ترك لغيره استخلاص النتائج الفلسفية لفروضه العلمية.

***

مقال للتسلية

ورغم أن الأفكار الرئيسية في نظريته كانت معروفة منذ وقت بعيد، ومن

هذه الأفكار ما ناقشه لامارك في كتابه الشهير (الانتقاء الطبيعي)، حيث أكّد فيه قابلية الأنواع للتغيير والانتقاء الطبيعي، وتوارث الصفات المساعدة على الاستمرار البيولوجي، وتسلسل الإنسان من نوع أدنى منه. وكان دور داروين هو جمع كل هذه الأفكار في نظرية موحدة. ولعلّ الشعار الشهير «البقاء للأصلح» لم يقله داروين، وإنما جاء ضمن المقال الذي كتبه هربرت سبنسر (فرض التطور)، فقد كان داروين حريصًا على تجنب أية نتائج أخلاقية لنظريته، كما حاول أن ينفّذ وصية عائلته بعدم التصادم مع رجال الدين.

يكتب داروين في مذكراته الشخصية: «صادف أن كنت أقرأ قبل أيام للتسلية مقالة هربرت سبنسر عن فرض التطور، وكنت مستعدًا استعدادًا جيدًا لتقييم الصراع من أجل البقاء، والذي يستمر في كل مكان لفترة طويلة من المراقبة المستمرة لعادات الحيوانات والنباتات، وحينها خطرت لي فكرة أنه في ظلّ هذه الظروف تنحو الاختلافات المفضلة إلى أن يُحتفظ بها في حين تُدمّر غير المفضلة منها، والنتيجة ستكوّن أنواعًا جديدة».

كان داروين على مدى فترة طويلة يقدّر أبحاث الفلاسفة الذين مهّدوا لصدور مؤلفه الضخم (أصل الأنواع)، وتثبت سيرته الذاتية التي كتبها أحد أحفاده فرانسيس داروين، أنه كان مهتمًا بمتابعة ما يُنشر في مجال المنطق والرياضيات، ومغرمًا بكتاب هيغل (ظاهريات الروح)، لكنه رفض النتيجة التي حاول البعض استخلاصها من نظرية التطور، والتي تؤكّد أن الأنواع العليا أفضل تكيفًا مع بيئتها من الأنواع الدنيا. وكانت هذه المهمة قد تولاها معاصره هربرت سبنسر الذي قرر أن يستخلص النتائج الرئيسية لنظرية التطور، ومن خلال مؤلفاته الفلسفية تحولت تلك النظرية إلى فلسفة خاصة في العلوم والأخلاق والسياسة.

***

في سيرته الذاتية، التي ترجمها للعربية عثمان نويه، يخبرنا هربرت سبنسر أن: «حظ مخّي من الدم كان دون المستوى العادي، ما لم يزده الانفعال». ويضيف أنّ يديه كانتا صغيرتين حسنتي البناء على نحو غير مألوف، ويشير إلى أنه ورث هاتين اليدين عن جده: «لم يكونا يقومان بعمل أشق من الإمساك بقلم الحبر أو قلم الرصاص». ويتحدث مزهوًا عن تحرّره المبكر من الخوف الروحي والعمل الوظيفي، ويضيف واصفًا نفسه: «ورثت عن والدي قوةً خارقة في النفاذ إلى علل الأشياء، فقد تهيأت لي، قبل أن أجاوز دور الطفولة ومن غير أن أتعلم، بصيرةً تنفذ إلى العلاقات الغائبة المبكرة، لم تتهيأ لمن كانوا يكبرونني كثيرًا في السن، ويفضلونني في الثقافة. وفي سن الثالثة عشرة شككت في نظرية القصور الذاتي كما جاءت في كتاب نيوتن الخاص بحركة الأجسام، والتي كان عمّي مدافعًا عنها».

كان هربرت أصغر إخوته السبعة، وقد توفوا جميعًا وهم في سن الطفولة، وتلقّى عن أبيه وعمه -وكانا من المهتمين بالعلوم- قليلاً من المعارف كالعلوم الطبيعية ودروس في الكيمياء، لكنه لم يدرس الفلسفة والآداب. وكان يفخر أنه لا يعرف قواعد اللغة الإنكليزية، لكنه وجد متنفسًا في دراسة الهندسة التي أهّلته للعمل في سكك الحديد. وبعد أن طُرد منها، قرّر أن يتجه إلى الأدب، فحصل على وظيفة في مجلة (الإيكونوميست) وتوثقت علاقاته بعدد من الأدباء والكتّاب، أبرزهم توماس هكسلي، وجورج هنري لويس، والأديب جورج إليوت[1]، لكنه ظلّ يعيش في وضع مالي تعيس: «لعلّ هروب النقود مني هو مبعث إصراري على أن أعيش أعزبًا». إلا أن

1- ماري آن إيفانس (١٨١٩-١٨٨٠) روائية إنجليزية إشتهرت باسمها المستعار جورج إليوت.

الحظ يخالفه بعد سنوات، فقد مات عمّه الذي أوصى له ببعض المال، فاعتزل العمل نهائيًا وتفرّغ للقراءة والكتابة. وقد خطرت له فكرة أن كتاباته هذه تصلح أساسًا «لفلسفة علمية جديدة» سوف تحدث انقلابًا في العالم.

يوصينا فريدريك كوبلستون في موسوعته الضخمة (تاريخ الفلسفة) ألّا نكتفي بالحديث عن سبنسر باعتباره منظرًا لمفهوم التطور، بل ينبغي أن نضع كتاباته مقابل كتابات هيغل وكانط، فقد استطاع ثلاثتهم أن يبحثوا عن مسار التاريخ. وإذا كان اهتمام هيغل وكانط منصبًّا في الدرجة الأولى على مسار العقل والأفكار، فقد كان اهتمام سبنسر يتركز على المسائل التي في الكون. وربما تشير المقارنة بين هيغل وسبنسر إلى طريقتين مختلفتين في التفكير، بينما يمكن وضع سبنسر إلى جانب أوغست كونت الذي كان أول فيلسوف لم يخرج من معطف إيمانوئيل كانط. فقد كان يرى أن العلم هو الصورة الوحيدة للمعرفة البشرية، فمعيار العقل الوحيد عنده هو العلم، وكان يرفض اعتبار اللاهوت أو الميتافيزيقا ميادين للمعرفة. فالعالم الذي يصفه العلم هو العالم الوحيد الموجود، وهو يرى أن مسائل الدين والأخلاق يجب أن تخضع لمعايير العلم.

وقد أيقن كونت أن فلسفته تنطوي على أسس لعقيدة جديدة للبشرية، وأنها هي وحدها الملائمة في نظره لعقل البشر في عصر علمي، فالأديان التقليدية تقتضي قبول معتقدات لاهوتية غير علمية. لكن المؤسف أن كونت في السنوات الأخيرة من حياته أصيب بعلّة ذهنية اعتقد فيها أنه يبشّر بديانة جديدة، ولم يكتفِ بالدعوة إلى عقيدته الجديدة، وإنما اتجه إلى وضع طقوس خاصة لها، وكان يؤمن بأنه النبي الحقيقي لعقيدته الجديدة، وبأن زوجته هي القديسة الحامية لهذا الدين.

أما سبنسر، الذي كان يوصف بأنه فيلسوف علمي أيضًا، فقد كان موقفه

من العلم مختلفًا. فهو يرى مثل كونت أن المنهج العلمي هو المنهج الوحيد للبشرية، إلا أن إعجابه بالعلم لم يكن في المنهج فحسب مثلما كان كونت، وإنما في صورة العالم ومركز الإنسان فيه، كما توحي به الفروض الأساسية في العلوم الفيزيائية والبيولوجية. وربما كانت فلسفة سبنسر «التركيبية»، كما أطلق عليها، تعد أعظم جهد بذله واحد من فلاسفة القرن التاسع عشر لتنظيم المعرفة العلمية وتشكيلها في عصره، في مركّبٍ ضخم يسعى لتقديم وصف شامل للعالم الطبيعي بأسره.

***

إهداء إلى داروين

ظهر كتاب (أصل الأنواع) في أواخر تشرين الأول عام ١٨٥٩، وكان مؤلفه تشارلز داروين قلقًا حول عدد النسخ التي يمكن أن تباع، فقد أقنع شقيقته أن تقرضه مبلغًا من المال سيعيده إليها بعد ثلاثة أشهر. صاحب المطبعة التي طبعت الكتاب كان يسخر من المؤلف الذي يريد أن يثبت للناس أنهم سلالة من القردة. كان ينظر إليه ويشير للعامل: «يبدو أن السيد داروين يطيل النظر إلى المرآة ليثبت نظريته». لكن المفاجأة كانت بانتظار الجميع، فقد نفدت ١٢٥٠ نسخة في الأسبوع الأول، وكان باعة الكتب يلحّون على صاحب المطبعة أن يعيد الكرة ويطبع نسخًا جديدة. في السنة الأولى يعاد طبع الكتاب ثلاث مرات، ويتجاوز عدد النسخ التي بيعت منه العشرة آلاف، البعض يبحث عن الكتاب ليرضي تطلعه المعرفي، وآخرون لإرضاء فضولهم والجواب عن سؤال يشغلهم: هل نحن حقًا سلالة من القرود المتطورة؟لكن الكتاب في الواقع لم يكن سوى فرضيّة علميّة يطرحها المؤلف للنقاش. وضعها داروين بعد ملاحظات وبحوث ورحلات وقراءات دامت أكثر من عشرين سنة، أراد من خلالها إيجاد السبل للإجابة

عن سؤال لطالما حيّر العلماء حول الحلقة المفقودة في عملية التطور المعقدة التي تمت عبر ملايين السنين.

يشرح تشارلز داروين العناصر الرئيسية لنظريته في القسم الأول من الكتاب، حيث نجده يناقش الاعتراضات التي يمكن أن تثور ضد نظريته. أما في الأقسام الأخرى من الكتاب، فإنه يخصصها للحديث عن الجيولوجيا، والتوزع الجغرافي للنباتات والحيوانات، والحقائق ذات الصلة بعلم الأجنّة. أما الأساس الذي يبني داروين عليه فرضيته تلك فيتعلق برصد التغيرات التي طرأت على النباتات والحيوانات الأليفة، لا سيما تلك التي يتحكم بها الإنسان. ويقارن داروين ذلك، أي الفروقات في الأنواع الناتجة عن «الانتخاب الصناعي»، بالتغيرات الحاصلة في الطبيعة من دون تدخل الإنسان، أي الناتجة عن «الانتخاب الطبيعي»، ليخلص إلى أنه: «حيثما هناك حياة، فثمة تغير وتطور مستمرين ناتجين أساسًا من الصراع من أجل البقاء، حيث إن الانتخاب الطبيعي يتفحص، في كل يوم وكل ساعة وفي كل أنحاء العالم، أبسط التغيرات، رافضًا السيء منها ومضيفًا الجيد إليها، عاملاً بصمت ومن دون إحساس على تحسين كل خلية حية». وهو يؤكد أننا في الحياة اليومية: «لا نلاحظ أيًا من هذه التغيرات البطيئة أثناء عملها، بل ستلاحظ حين تحفرها يد الزمن على مر العصور».

ما إن صدر الكتاب حتى سارعت الكنيسة إلى مهاجمته معتبرةً إياه خطرًا على الدين، ما جعل المؤلف يقول ردًا على هذا الهجوم: «إنهم بالتأكيد لن يحرقوني، لأن ليس ثمة قانون يمكّنهم من ذلك، لكنهم سيجهزون الحطب وعود الثقاب.»

بعد صدور كتاب داروين بأشهر، كان فريدريك إنجلز يضع اللمسات الأخيرة على مقاله الشهير (دور العمل في الانتقال من القرد إلى الإنسان).

كان إنجلز مثل صديقه ماركس معجبًا بتشارلز داروين الذي كان يعيش على بعد عشرين كيلومترًا عن بيت ماركس في مقاطعة كِنت جنوب لندن. وقد كتب ماركس إلى إنجلز عند صدور كتاب (أصل الأنواع) قائلاً: «على الرغم من أن الكتاب موضوع بأسلوب إنكليزي جاف، فإنه يمثّل الأساس في التاريخ الطبيعي لأفكارنا». ثم يزداد حماسةً فيكتب بعد شهر قائلاً:

«كتاب داروين هام جدًا، وهو يفيد كأساس في العلم الطبيعي للصراع الطبقي اجتماعيًا». وعندما صدر الجزء الأول من (رأس المال) أرسل ماركس نسخةً بإهدائه إلى داروين، وقد تلقّى ماركس بعد أيام رسالة من داروين جاء فيها:

«سيدي العزيز، أشكرك على الشرف الذي منحتني إيّاه بإرسال كتابك العظيم عن رأس المال. ولقد تمنّيت من كل قلبي لو كنت جديرًا بهذا الشرف، لكنني كما تعرف لا أفهم شيئًا في الاقتصاد السياسي، هذا العلم الهام والعميق. وعلى الرغم من اختلاف موضوعاتنا فإنني أعتقد أننا نعمل سويًا على مدّ آفاق المعرفة، وأن هذا سوف يضيف في المدى الطويل إلى سعادة البشرية».

ويخبرنا أيزايا برلين في كتابه (كارل ماركس) أن الأخير قرّر أن يقدّم الجزء الثاني من (رأس المال) بإهداء إلى داروين.

في نفس العام ١٨٥٩، ظهر كتاب هربرت سبنسر (المبادئ الأولى) -ترجمه للعربية الراحل زكريا إبراهيم- والكتاب جزء من مشروع ضخم ضمَّ عناوين مثل: (مبادئ علم النفس) و (مبادئ البيولوجيا) و (مبادئ علم الاجتماع)، ومشروع المبادئ الذي كرّس سبنسر له أكثر من أربعين عامًا من العمل المتواصل ضم ١٨ مجلدًا.

***

كيف نغير العالم؟

في (المبادئ الأولى)، الفكرة الأساسية التي يركز عليها هربرت سبنسر هي أن التغيير عملية تحلل مثلما هو عملية تطور، وعملية تفكك مثلما هو عملية تكامل. ويقترح سبنسر قانونًا للتطور الاجتماعي، ففي المرحلة الأولى لا توجد أنماط أو طبقات اجتماعية محددة المعالم، وإنما تكون المجتمعات ما زالت صغيرة، ويكون نمط التنظيم الاجتماعي متجانسًا وغير متنوع نسبيًا بحيث يؤدي كل فرد شيئًا لنفسه. والمرحلة الثانية ذات طابع عسكري، تكون الحكومة فيها فائقة التركيز ويكون العرف صارمًا، والفروق الطبقية واضحة. وأخيرًا تأتي مرحلة تتميز بها المجتمعات الصناعية الحديثة ويتزايد فيها تقسيم العمل، ويزداد الاهتمام بالتجارة والإنتاج، ويتضاءل دور الحكومات المركزية، وتضعف بالتدريج النظم الاجتماعية والتقليدية والتسلطية.

وقد رأى سبنسر أن حضارة إنكلترا في القرن التاسع عشر تقترب تدريجيًا من هذا النظام، بما فيه من تقدم علمي وتكنولوجي سريع، ومن تجارة حرة عالمية، ونظم سياسية واجتماعية متحررة، تتحدد فيها العلاقات البشرية بالاتفاق أو التعاقد، لا بالمركز الموروث أو الوظيفة. فالعدل ينبت في قلوب الناس من حاجات المجتمع، والنظام الاجتماعي للجنس البشري أسمى ما عبّرت به الحياة عن نفسها: «فالتاريخ ظلَّ تقويمًا من تقاويم استعباد الأمم»، كما كتب في آخر حياته، وأن حوادث قصة الإنسان على الأرض لهي بيان بما قارف الإنسان من سرقة وقتل، لكن قانون التقدم الاجتماعي ماضٍ في طريقه. فقد نادى سبنسر بمجتمع النقد الاجتماعي بديلاً عن مجتمع الأمر الواقع. وكان سبنسر عديم الثقة بالدولة: «يجب أن تقتصر وظيفتها على منع

الافتئات على الحرية المتساوية للأفراد»، وإذا جاوزت الدولة مهمتها وهي كفالة العدالة، فإنها لا تستطيع شيئًا غير قضم هذه العدالة. وكان سبنسر قليل الثقة بالنظم الحكومية، حتى لقد كان يحمل مخطوطاته إلى المطابع بدلاً من أن يأتمن عليها مصلحة البريد الحكومية.

وفي حين أن صديقه جون ستيوارت ميل كان يدعو إلى الاشتراكية في كتاباته، فإن سبنسر كان يدعو للنظام الديمقراطي الحرّ والاقتصاد الفردي. فالاشتراكية -في رأيه- تخلق مجتمعًا كمجتمع النحل والنمل، يتم فيه آخر الأمر حشد جهود الأفراد وتعبئتها لخدمة النظام المركزي. وكان سبنسر قد قرر بيع كتاب (المبادئ الأولى) عن طريق الاشتراك، وقام أصدقاؤه بجمع الاشتراكات، حيث وافق ستمئة شخص على شراء الكتاب، وبدا سبنسر مطمئنًا من أن جهوده الفلسفية ستثمر نجاحًا. لكن النسخ الأولى من الكتاب لم تكد تظهر، ويقرأ بعض المشتركين عقائد المؤلف المتشددة حتى انصرفوا عنه، فأصابه اليأس واضطر إلى أن يتوقف عن الكتابة، ونشر إعلانًا يذكر فيه أنه لن يستطيع إتمام مشروعه الفكري، لأن أوضاعه المادية لا تساعده. إلا أن أصدقاءه، ومنهم جون ستيوارت ميل، جمعوا له مبلغًا كبيرًا لطبع ما تبقى من مؤلفاته، وادّعى هؤلاء الأصدقاء أن مجموعة كبيرة من المشتركين أقبلوا على شراء كتاب (المبادئ الأولى)، فتابع سبنسر عمله ليصوغ فلسفته الخاصة التي حققت له شهرة واسعة جعلت رجال الدين يهاجمون آراءه، فيما اعترض عليها الاشتراكيون، وهاجم دعاة الإمبراطورية البريطانية موقفه المناهض للحروب، لكنه ظلّ طوال حياته فردًا مسرفًا في فرديته، لا يقبل المهادنة في آرائه.

لقد كان واضحًا أن إيمان سبنسر بإمكان التطبيق الكلي لقانون التطور قد ألزمه بأن يثبت أن حركة التطور تقف بالضد من «العبودية القادمة»

للدولة. ولهذا نراه يهاجم بعنف أي ميل للدولة لأن تنظر إلى نفسها على أنها قادرة على كل شيء: «إنّ الخرافة السياسية العظيمة للماضي كانت هي الحق الإلهي للملوك، أما الخرافة السياسية العظيمة للحاضر فهي الحق الإلهي للبرلمانات»، كما أن «وظيفة الليبرالية في الماضي كانت وضع حد لسلطات الملوك، ووظيفة الليبرالية الحقيقية في المستقبل ستكون وضع حد لسلطة البرلمانات.»

***

ضد الحكومات

كرّس سبنسر حياته التي تجاوزت الثمانين عامًا لتنقيح فلسفته التركيبية، وعانى وهو في الأربعين من عمره من سوء صحته، وكانت مثابرته برغم كثرة أمراضه أمر يدعو إلى الدهشة، وقد استطاع أن يتغلب على عجزه عن طريق ذاكرته الغريبة، وعن طريق قدرته على التركيز بصورة فعالة. لقد كان لديه عقل منطقي غير عادي، وكان قد رسم الخطة العامة لمذهبه في فترة مبكرة من حياته ونادرًا ما كان يغير آراءه في الموضوعات الأساسية. توفي في الثامن من كانون الثاني عام ١٩٠٣ بعد إصابته بمرض تصلب الشرايين. وقد تجاهلت الحكومة خبر وفاته بسبب معارضته لحرب البوير التي نظر إليها على أنها تعبّر عن القوة العسكرية البريطانية الغاشمة والتي كان يكرهها كثيرًا، فقد كان يرى أن التقدم الحقيقي للبشرية يكمن في الانتقال من التحرر بالقوة إلى التحرر بالإقناع، وهو يرى أن مثل هذا لا يتحقق إلا بالتسامح ورؤية شيء من الحق في كل وجهة نظر، واعتماد العلم بديلاً للخرافات.

لم يكن سبنسر في آخر أيام حياته وهو يعاني من أمراض الشيخوخة ليتصور أن موسوعته في المبادئ ستدخل التاريخ، وأن اسمه سيساهم في تغيير الحقيقة تغييرًا جذريًا. ينتمي سبنسر إلى تلك الفئة الصغيرة من المعلمين

الكبار، إذ ما من أحد استطاع أن ينهض حقًا بمشروع بضخامة مشروعه، وربما لأنه كان الوحيد القادر على تصور هذا البناء الضخم الذي سيظل شاهدًا على المعارف التي صبغ بها عالمنا المعاصر.

ما الذي يجب أن تقرأه لهربرت سبنسر؟

- المبادئ الأولى، ترجمة وتلخيص: د. زكريا إبراهيم.
- التربية، ترجمة: محمد السباعي.
- هربرت سبنسر.. سيرة حياة موجزة، ترجمة وإعداد: عثمان نويه.

وماذا بعد عن مصادر سبنسر ونظرية التطور في العربية؟

- نظرية التطور وأصل الإنسان، تأليف: سلامة موسى.
- منذ زمن داروين.. تأملات في التاريخ الطبيعي، تأليف: ستيف جوولد، وترجمة: ستار سعيد زويني.
- قصة حياة تشارلز داروين، تأليف: فرانسيس داروين، وترجمة: مجدي محمود المليجي.

-10-

كيف نكون متسامحين حتى مع أولئك الذين يصعب التسامح معهم؟!

قال الثري ماري آرورويه يشكو حاله لأحد الأصدقاء: «للأسف لقد أُبتليتُ بولدين مجنونين، الكبير يهيم بالخرافات، والصغير بنظم الشعر». الولد الصغير كان اسمه فرانسو -والذي عُرف فيها بعد باسم فولتير- أعظم عقلٍ أنجبته فرنسا، بل العبقري الذي لن يتكرر، على حد قول فكتور هيجو وهو يرثيه: «إذا كان لنا أن نحكم على الناس بما أنجزوه من أعمال، فإننا نعتبر فولتير أكبر كتّاب أوروبا الحديثة دون شك. لقد منحته الحياة أربعًا وثمانين سنة من العمر، فكان له فيها متسع من الوقت لسحق مساوئ ذلك العصر الفاسد. وعندما انتهت سيرة حياته وسقط ميتًا، كانت كل الشواهد تشير إلى أنه المنتصر».

***

نكتة تقود إلى السجن

ولد فرانسو ماري آرورويه «فولتير» في باريس عام ١٦٩٤ من أبوين من طبقة الأثرياء، فقد كان والده كاتب عدل مدينة باريس، وأمه من الطبقة الأرستقراطية الفرنسية المعروفة بثرائها وبذخها.

ومثل عدوّه اللدود جان جاك روسو، الذي جاء إلى الدنيا بعده بثمانية عشر عامًا، فإن فرانسو لم يشاهد أمه، إذ لم تستطع الأم تحمل متاعب آلام الوضع فماتت إثر ولادته، وكانت الممرضة التي سهرت على ولادته قد أخبرت والده أن ابنه لن يعيش أكثر من أربع وعشرين ساعة بسبب ما كان عليه من ضعف شديد. وحين عُرض على الأطباء كان قرارهم أنه لن يعيش أكثر من أيام معدودة، لكن الأقدار تشاء أن يعيش لأكثر من ثمانين عامًا، ألّف فيها أكثر من مئة كتاب ورسالة فلسفية، سلّم في نهايتها برميل الثورة المتفجر الذي ظل يصنعه لأعوام طوال إلى كل من روبسبير ومارا ودانتون، ليفجّروه صبيحة يوم ١٤ تموز عام ١٧٨٩، بعد أحد عشر عامًا على وفاته، ليكتبوا نهاية النظام الملكي. وقد استمدّت الجمهورية الفرنسية أفكارها من كتابات فولتير وروسو، فكانت أول ثورة تقرّر فصل الدين عن الدولة، وتنتهج المساواة وحرية التعبير، وتلغي الإقطاع وامتيازات النبلاء ورجال الدين، وتضع أموال الكنيسة تحت تصرف الدولة، وتنشر مبدأ مجانية التعليم، ومشاريع العدالة الاجتماعية.

المعروف أن فولتير بدأ حياته بنظم الشعر، وكانت شكوى أبيه تزداد منه إذا ما عرفنا أن الشقيق الأكبر لفولتير حُكم عليه بالموت بسبب كتاباته المعادية للكنيسة، إذ كان الأب يخشى على ابنه أن يتخذ من الأدب مهنة له، وهي مهنة يعيش أفرادها مفلسين طول العمر. لكن الشاب الصغير أصرّ على المضي في سبيله، فقرر والده أن يمنع عنه المصروف، إلا أن إحدى قريباته الثريات وجدت في الفتى نبوغًا، فقررت أن تمنحه مبلغ ألفي فرنك ليصرف منها، فاشترى بالمبلغ أكثر من خمسة آلاف كتاب. وحين بلغ الثامنة عشرة من عمره كان يتباهى أمام أصدقائه بأنه قرأ هذه الكتب جميعها، ولهذا قرّر أن يجرب الجانب الآخر من الحياة، فترك الأدب والشعر، ليمضي في حياة

اللهو والعبث. وحين يسأله والده عن هذا التقلب المفاجئ في حياته يجيبه: «لا يمكنك أن تعيش الحياة دون أن تجرّب كل دروبها». لكن الأب لم يقتنع بالجواب فيقرر أن يرسله إلى أحد أقاربه في الريف، ليحتجزه هناك مدةً من الزمن لإبعاده عن حياته العابثة، غير أن صديق والده سرعان ما أحب ذكاء فولتير ونباهته، فأشفق عليه من حياة العزلة، فأطلق سراحه ليعود إلى باريس. عند ذلك قرّر والده أن يرسله إلى خارج فرنسا، لكنه لم يستطع العيش بعيدًا عن باريس، ليعود عام ١٧١٥ وكان حينها في الحادية والعشرين من عمره، لم يتغير شيء في حياته سوى أن كلامه أخذ طابع السخرية من كل شيء؛ الكنيسة، والنظام الملكي.

في هذا العام كان لويس الرابع عشر قد توفي، وكان ولي العهد في سن صغيرة، فتولى وصاية العرش ماريشال دي فيلروا، وكان أحد أصدقاء فولتير المقربين. وذات يوم يلتقي الصديقان في حديقة القصر الملكي فيبادر الوصي صديقه فولتير بالقول:

- سأريك شيئًا لم تره في حياتك.

قال فولتير: وما هو؟

أجاب فيلروا: سجن الباستيل.

وفي اليوم التالي، كان فولتير نزيلاً لهذا السجن الرهيب، وكانت التهمة السخرية من الملك. ففي تلك الأيام حلّت أزمة اقتصادية في فرنسا بسبب بذخ لويس الرابع عشر، فقرّر الوصي على العرش أن يبيع نصف الخيول الموجودة في الإسطبل الملكي، وعندما سمع فولتير بالخبر أطلق نكتةً ساخرة اهتزت لها باريس بالضحك على الوصيّ والبلاط، لما تنطوي عليه من جرأة، فقد علّق قائلاً: «كان من الأنفع لفرنسا لو أن الوصي باع نصف حمير البلاط

أيضًا»، وكان يقصد حاشية الملك. أصبح فولتير نزيل الباستيل، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، نحيف الجسم، ضعيف البنية، لكنه استطاع أن يمضي أحد عشر شهرًا في الزنزانة، وفيها وضع أول كتبه وكانت ملحمة شعرية بعنوان (هنرباد)، وقّعها لأول مرة باسم فولتير، ويقول مؤرخو سيرته إن الاسم كان تخليدًا لذكرى أمه، فقد كان بعض أفراد عائلتها يحملون اسم فولتير.

قاوم إرادة الاشتغال بالفلسفة

هل فولتير فيلسوف؟ البعض يقول إنه قاوم إرادة الاشتغال بالفلسفة. في مرات كثيرة كان يسخر من الذين ينادونه بلقب الفيلسوف، مؤكدًا عدم ثقته بالفلاسفة: «يخطئ الفلاسفة حين يعتقدون أنهم عندما يتناولون مسائل نظرية صرفة، فإنهم يَحلون على الفور مشكلات الواقع». كان يقول إن حلم تغيير العالم يجب أن يقوم به الناس البسطاء، لا أصحاب كتب المنطق، وكثيرًا ما كان يسخر من صورة الفيلسوف المتجهم الوجه: «ويلٌ للفلاسفة الذين لا يستطيعون إزالة تجاعيد وجوههم بالضحك، إنني أنظر إلى الوجوم الذي يسيطر على الفلاسفة نظرتي إلى المرض». وعلى الرغم من نأي فولتير بنفسه عن الفلسفة إلا أن مكانه الشرعي بين الفلاسفة الذين صنعوا فكر التنوير يحتل مركزًا متقدمًا يفوق كثيرًا من أبناء عصره. أولاً، لأن انتقاداته لعمل الفيلسوف لم تمنعه من أن يصبح -بالإضافة إلى جان جاك روسو وديدرو- أبرز الذين قسموا تاريخ الفكر الفلسفي إلى نصفين، ما قبل فولتير وما بعده. فضلاً على أنه كان الأكثر حسمًا في حدوث الانقلاب الحقيقي الذي انتقلت به أوروبا من عقلية القرون الوسطى إلى عقلية العصور الحديثة. وبفضل كتاباته وكتابات زملائه خرجت البشرية من مرحلة الطائفية الهمجية، لتدخل مرحلة العقلانية الحضارية، الأمر الذي دفع فيلسوفًا بحجم نيتشه

إلى أن يهدي إليه كتابه الشهير (ما وراء الخير والشر)، قائلاً: «إلى فولتير، أحد كبار محرّري الروح البشرية».

كان فولتير في بداية حياته كاتبًا مسرحيًا، وقد انتقل من سجن الباستيل إلى الشهرة في زمن قصير جدًا، حين قُدمت له عام ١٧١٨ مسرحيته الخالدة (أوديب). وقد حظيت بإقبال كبير، حتى إنها عُدّت آنذاك واحدة من درر المسرح الفرنسي، وقد عادت عليه بأموال كثيرة، جعلت والده يقتنع أن الأدب يمكن أن يجلب المال، فكان يقول لأقاربه وهو سعيد: «فرانسو هذا ولدٌ خبيثٌ، استطاع أن يجني المال الوفير من ضحكات الناس ودموعهم». بعد (أوديب) قدّم عددًا من الأعمال المسرحية أشهرها (بروتوس)، (موت القيصر)، (الابن البار)، (زوليم)، (محمد)، (ميروب). وفي القصة كتب الكثير غير أن قصة (زاديغ) التي ترجمها طه حسين كانت الأشهر. أما رواية (كانديد) فكانت تمثل خلاصة وجهة نظره بمستقبل أوروبا، وقدّمت عبر بطلها ما يشبه السيرة للكاتب. عرفت (كانديد) شهرة واسعة، خاصة أن فولتير، وبعد أن تطرق للأزمنة الماضية وسرد أحداث التاريخ وتطوره، قدّم نظرته للعالم الجديد الذي انطلق بعد الحروب التي وصفها فولتير بقوله: «هذا القرن شبيه بحوريّة البحر، النصف الأول منها جميل مثل أسطورة، والنصف الآخر قبيح ومخيف في شكل ذيل سمكة». وحين كتب (كانديد) قرّر الابتعاد عن العالم الخارجي، وعن صخب المجتمع الذي كان يستهويه، وعزل نفسه: «أريد أن أمتلك الأرض بكاملها أمام عيني في عزلتي».

***

اختار أن يكون سندانًا

عاش فولتير ظروفًا صعبة، وكلّفته جرأته وصراحته الكثير من التضحيات، حتى إنه وضع وصفًا طريفًا لحياته: «في فرنسا يجب أن تكون

السندان أو المطرقة. أنا اخترت أن أكون سندانًا»، وكان يسعى إلى أن تصبح الحياة من حوله أكثر حيوية وقوة: «كل من ليس حيويًا ومستعدًا للمواجهة فهو لا يستحق الحياة، وأعتبره في عداد الموتى». عُرف فولتير أيضًا بلهجته القاسية اللاذعة، وبحسّه الساخر الممزوج دائمًا برغبة في التغيير، وشكَّل ظاهرة فريدة في الفكر الفرنسي، انتقلت عدواها إلى عواصم ثقافية أخرى، فتأسست ما تشبه «المدرسة الفولتيرية الفلسفية» التي بدأت مظاهرها تتّضح أكثر من خلال كتابه الشهير (القاموس الفلسفي) الذي ترجم بعضًا منه المفكّر المصري حسن حنفي. ويعتبر قاموس فولتير هذا أهم عمل أُنتج خلال عصر التنوير، ففيه نقدٌ للطغيان، وفيه كراهية للتعصب، وفيه إدانة للحروب، وفيه إنكار للميتافيزيقيا بكل غيبياتها، وفيه دعوة إلى المساواة. يُعدّ هذا الكتاب في نظر مؤرخي الفلسفة أول مؤلف فلسفي يستخدم اللغة العادية في التعريف بالأفكار الفلسفية، ونرى فولتير من خلال صفحات الكتاب يلجأ إلى أسلوب السخرية.

في مقدمة الكتاب يوضّح فولتير هدفه من هذا القاموس، فهو يبغي أولاً: رفض عقيدة العناية الإلهية التي تدور حولها الديانة المسيحية، وبالتالي رفض كل ما يتعارض مع العقل في ميدان العقائد، أو ما يتعارض مع الأخلاق في مجال العلاقات الإنسانية. وثانيًا: هدم الفلسفات التي تحاول أن تُدخل الإنسان في متاهات الخرافات. وثالثًا: الدعوة إلى السلام والتسامح، ورفض الحروب الدينية والدنيوية، وشجب التعصب العقائدي. ولعلَّ هدف فولتير من خلال القاموس كان واضحًا حين كتب لفريدرك الأول رسالة يشرح فيها مضمون كتابه: «أسعى إلى أن أعيد بناء الدين والمعتقدات على أسس عقلية، والقضاء على الخرافة والأساطير وكل ما يشذّ عن العقل».

يطرح فولتير في القاموس رأيًا جريئًا وصادمًا حين يؤكد أن معظم العقائد

في الأديان هي نسيج من الأساطير ومن وضع جماعات دينية، ونراه يلخّص قضية الدين بجملة مؤثرة: «إن كل المناقشات حول هذه العقائد تضر أكثر مما تنفع، ولا يبغي الدين أكثر من الإحسان والعدل، إن هناك فرقًا بين ما قاله المسيح وبين ما يُعرف باسم المسيحية، فالمسيح لم يدعُ إلى العقائد بل إلى الأخلاق الفاضلة، لم يؤسس عقائد، ولم يقم دينًا ولم يسن شعائر أو طقوسًا». وينبهنا فولتير إلى أن الفضائل الحقيقية هي التي تقدّم الخير إلى المجتمع، فالاعتدال فيه محافظة على الصحة، والإخلاص والتسامح فيهما إبقاء على العلاقات الاجتماعية. وبهذا نرى أن فولتير يرفض الفضائل التي جاءت بها الكتب الدينية، والتي تتلخص بالشجاعة والكرم والحكمة، فالدين بالنسبة له هو الحياة، والحياة هي رعاية مصالح الناس، ويرفض فولتير الفكرة القائلة بأن المتدين لديه أخلاق، أما غير المتدين فلا أخلاق له. ويصرّ فولتير على أن الدين الوحيد الصحيح الناتج عن استعمال العقل هو التنزيه المطلق الذي يظهر في الأخلاق العملية، من خلال ممارسة العدل، أو الإيمان بأن تعامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به. ويحاول فولتير وضع المبادئ العامة للدين الشامل ويجعلها في سبع نقاط هي:

١. لا يقوم التدين على العناية الإلهية أو خلود النفس.

٢. عبادة الله بطريقة شاملة، لا بالطقوس.

٣. طاعة الله بطاعة قوانين الدولة المستنيرة.

٤. الأخلاق هي الدين الصحيح.

٥. الاعتدال ضد التعصب.

٦. رفض الأضاحي والقرابين والكنيسة.

٧. التوحيد نتاج العقل المستنير، لا نتاج التوراة والإنجيل.

وإذا كان الهدف الأول من قاموس فولتير هو إعادة دراسة الدين ونقد الخرافات، فقد كان يرى أن الطقوس والشعائر والاحتفالات الدينية جرائم يجب أن يُعاقب عليها كل من يزاولها لأنها ضارة بالمجتمع: «أنا أعلم أن الله ليس بحاجة إلى قرابيننا أو صلواتنا، إن عبادة الله لا تتم بالطقوس ولكن بالسلوك الشامل والعمل الأخلاقي».

والهدف الثاني كان الدعوة إلى السلام والنظام الجمهوري وللمساواة بين البشر، حيث يرى فولتير أن أفضل نظام سياسي يقوم على العقل، ويصرّ على إشاعة مفهوم الجمهورية التي تقوم على الديمقراطية ومبدأ تبادل السلطات: «إن الجمهورية هي أفضل نظام ملائم للبشرية، لأن الملكية تنتهي إلى الطغيان، ولا يمكن طاعة البشر باسم طاعة الله، بل لا بد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة. يضيح الدكتاتور بأنه يحب وطنه وهو في الحقيقة لا يحب إلا نفسه». وينكر فولتير على رجال الدين تدخلهم في شؤون السياسة، ويدعو إلى علمانية الحكم، ويهاجم ادعاءات الكنيسة التي تريد أن تسيطر على البشر. لذلك اعتبر القاموس الفلسفي لفولتير أهم مصادر الثورة الفرنسية، وظلّ وقتًا طويلاً بمثابة دستور لها.

***

لا شيء مخالف للقانون، إلا أنا

عاش فولتير معظم حياته منفيًا، وظلّ القصر الملكي يخشى من وجوده في باريس، ولم تنفع كل المحاولات للسماح له بالعودة إليها، فعاش سنواته الأخيرة في جنيف. كان قد بلغ الرابعة والثمانين من عمره، وأصبح أحد أعلام أوروبا، الكل يسعى للتقرب منه. في عام ١٧٧٨ أصدر لويس السادس عشر أمرًا ملكيًا جاء فيه: «إننا لا نرحّب بمسيو فولتير، ولا نتمنى عودته، لكننا لن نقبض عليه إذا ما عاد». وعلى الفور قرر فولتير العودة، فقد طال الغياب أكثر

من ثلاثين عامًا. وعلى الحدود وقف رجال الشرطة يفتشون عربته، وفوجئ أحد الجنود بصوت نحيل يقول له: «لا شيء في العربة مخالف للقانون إلا أنا»، ضحك الجندي وهو يقول «أهلاً مسيو فولتير، تفضّل.. إن باريس كلها بانتظارك».

كانت باريس قد خرجت إلى الشوارع تستقبل فيلسوفها المشاغب، ورفعت صوره في كل مكان، الأمر الذي أزعج لويس السادس عشر، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا، كل ما فعله أنه منع زوجته ماري أنطوانيت من حضور حفل تتويج فولتير، وقد كانت ترغب في رؤية أشهر شخصية أنجبتها فرنسا عبر عصورها. ويبدو أن صخب باريس وضجيجها وكثرة الزوار أثّرت على صحته، فرحل بعد ثلاثة أشهر من عودته من المنفى، وهو يلفظ آخر كلماته: «أموت في هذه اللحظة وأنا أشعر بحبي لأصدقائي، وبعدم كرهي لأعدائي، وبرفضي المطلق للمعتقدات الباطلة.»

وكُتب في اللافتة التي تعلو قبره:

(أعدُ الناس ليكونوا أحرارًا).

***

الكرملي يدلّني على فولتير

ما زلت أتذكر المرة الأولى التي سمعت فيها اسم فولتير. ففي المتوسطة كان لنا أستاذ يهوى الفلسفة، يخصص جزءًا من درس اللغة العربية للحديث عن هوايته هذه. وأتذكر أن أستاذي هذا كان يردد دومًا أن أفكار فولتير وكلماته مهّدت للثورة الفرنسية. وبعد سنوات أعثر في مجلة الكاتب المصرية على مقالٍ كتبه طه حسين عن فولتير فيه معلومات قيِّمة عن هذا الفيلسوف، وعرفت أن فيلسوف الثورة الفرنسية إضافة لاهتمامه بالفكر ومشاغله، فهو

روائي وكاتب لعدد من المسرحيات. بعدها حصلت على روايته الشهيرة (كانديد) بترجمة لواحد من شيوخ المترجمين؛ عادل زعيتر.

بعدها وقعت في يدي أعداد من مجلة (الرسالة) المصرية، فإذا بي أكتشف أن العراقيين سبقوا العرب جميعًا في التعريف بهذا الفيلسوف. ففي عام ١٩٣٦ يكتب الأب أنستاس الكرملي مقالاً عن فيلسوف التنوير، والمقال فيه شرح وافٍ لفكر فولتير وفلسفته. ويسلط الكرملي الضوء على موضوع قيمة العقل التي صبغت فلسفة فولتير، فيقول الكرملي: «يجب أن تفكر أنت.. فكر لنفسك.. يجب أن تتشكّك في كل ما يُقال لك.. إذا أخطأت فلأنني حاولت أن أعرف، وإذا عرفت فإنني أخطئ، لأن الذي عرفته قليل جدًا، والذي لا أعرفه كثير جدًا». ثم يمضي الأب الكرملي بالقول: «إن فولتير ولجرأة أفكاره اتهم بتضليل الشباب وإفساد الرأي العام والوقوف بوجه الدين»، ويضيف: «هو الرجل الذي حوّل الغضب إلى سخرية، والذي حطّم الأصنام». وينقل الكرملي عن فولتير عبارته الشهيرة: «إن الدول بكل أجهزتها وجبروتها لا تستطيع أن تقاوم سلاحًا يطلق النار في كل الاتجاهات اسمه: الكلمة».

***

الخلاف مع روسو

كان فولتير يكره جان جاك روسو، ويرى أن أفكاره في تقديس الغرائز الفطرية في الإنسان دعوة تؤدي إلى تعصب وحماسة مفرطة، ولم يكن فولتير يرى ما رآه روسو من أن الإنسان مفطور على الخير أو خيّر بالفطرة، وإن ما به من شرور هو وليد الحياة الاجتماعية المصطنعة، ولا بد من العودة إلى الطبيعة وإلى الفطرة الإنسانية المطلقة. فقد كان فولتير يرى أن الإنسان يحمل الشر والخير معًا، وهو وليد العوامل المختلفة وأهمها الجهل والاستبداد، وإن الشر يمكن إزالته بإزالة أسبابه من خلال تدعيم سلطة العقل وإرساء

مبادئ القانون والدولة. ورغم الخلاف الشديد الذي طغى على علاقة روسو بفولتير، والردود الساخرة التي كان يكتبها روسو على مؤلفات فولتير، والتي اتسمت بالحدة، إلا أن فولتير ما إن سمع بقرار السلطات الفرنسية بحرق كتاب (العقد الاجتماعي) لروسو، كتب مقاله الشهير عن حرية الرأي والذي تضمّن العبارة الشهيرة: «قد أختلف معك بالرأي، لكني على استعداد لأن أموت دفاعًا عن حقك في أن تبديه وتعلنه على الناس».

***

ما الذي يجب أن تقرأه لفولتير؟

- رسالة في التسامح، ترجمة: هنرييت عبودي.
- رسائل فلسفية، ترجمة: عادل زعيتر.
- القاموس الفلسفي لفولتير، تلخيص: حسن حنفي، من سلسلة تراث الإنسانية.
- كنديد أو التفاؤل، ترجمة: عادل زعيتر.
- القدر، ترجمة: طه حسين.
- خمس قصص فلسفية، ترجمة: نديم خشفة.
- قصص وحكايات، ترجمة: سلمان حرفوش.

وماذا بعد عن مصادر فولتير في العربية؟

- فولتير.. حياته وفلسفته وآثاره، تأليف: أندريه كريسون، وترجمة:

صباح محي الدين.

- نصوص مختارة من فولتير، تقديم: أندريه موروا، وترجمة: محمد غلاب.

- تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، تأليف: جوزيف لوكير، وترجمة: د. جورج سليمان.

-11-

الخروج من كهف أفلاطون إلى الشيوعية

في الرابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٧٤٩، اقتحمت قوة من الشرطة منزلاً قديمًا في إحدى ضواحي باريس، بناءً على شكوى تقدّم بها عدد من الجيران يتهمون صاحب الدار بممارسة الشعوذة والسحر، ولم تجد الشرطة سوى أوراق كتب عليها (رسالة حول العميان). كانت هذه الأوراق دليلاً على أن صاحبها المدعو دنيس ديدرو يمارس عملاً مخالفًا للقانون، وهو التحريض على النظام الملكي في فرنسا: «إنه شخص خطير، يتحدث عن الدولة والقانون باحتقار»، هكذا كتب ضابط الشرطة في لائحة الاتهام. ولكن لماذا وجد رجل الأمن أن رسالة ديدرو عن العميان خطيرة إلى هذا الحد، وما الأفكار التي أراد الفيلسوف الشاب أن يعبّر عنها؟

يحكي ديدرو في (رسالة حول العميان) عن حداد أعاد له الطبيب نظره الذي حُرم منه طوال عمر. كان قد تعوّد طوال خمسة عشر عامًا على أن يتحرك ويتعامل مع العالم بواسطة حواس السمع واللمس والشم والتذوق، فلما عاد له نظره صار لفرط ارتباكه يغلق عينيه، حتى يتمكن من التعامل مع العالم الذي تعَّوده، أو بالأحرى لكي يتجنب التعامل مع مشاكل الواقع الجديد الذي أصبح فيه يبصر كل شيء. يسأل ديدرو: كيف سيجيب الأعمى حين تسأله عن الأشياء التي تحيط به؟ إن تعريفاته ستتناسب مع خبراته ومع الطريقة التي يعيش بها في هذا العالم. رؤية العالم هي الموضوع الذي شغل ديدرو

الذي آمن بأن: «الطبيعة لم تعطِ أي إنسان الحق في التحكم بالآخرين»، ولهذا عند الحديث عن هذا الفيلسوف المشاغب المولود عام ١٧١٣ سوف نرى أن الإنسان في نشأته الأولى كان متحررًا من القوانين، الدينية والأخلاقية، وأنه عاش حياة سعيدة لم تعرف الترف ولا الملكية، وهذه المرحلة التي يسميها مرحلة الإبصار. بعدها جاءت المرحلة التي تم فيها سلب البصر من الإنسان ليصبح أعمى، عصاه التي يستخدمها في التعرف على الطريق هي الكنيسة وقوانين البلاد: «آه.. إن الفأس في أيديكم! توجهوا بالضربة النهائية لشجرة الخرافة، ولا تقتنعوا ببتر الفروع، بل استأصلوا العشب الذي استفحلت أضراره المعدية، كونوا على وعي مطبق بأن نظام الحرية والمساواة يتناقض تناقضًا صريحًا مع المهيمنين على مذابح الكنيسة، وكراسي السلطة».

كان لأفلاطون تصور شبيه لما طرحه ديدرو في رسالة العميان. كان يرى أننا في هذا العالم نُشبهُ مَن يجلسون منذ ولادتهم في كهف وظهورهم متجهة إلى مدخله، كلّما مر أحد أو شيء من أمام مدخل الكهف رأوا ظله على الحائط، كلّ تصوراتهم عن العالم تنبع من هذه التجربة المحددة، هذه الظلال هي العالم بالنسبة لهم. في هذا المثال الذي تخيّله أفلاطون، يقرّر أحد هؤلاء في وقت ما أن يقوم من مكانه ليخرج من الكهف. تؤلمه عيناه في البداية، لكنه يقرر البقاء في العالم الجديد، يظل حائرًا لأيام، بعدها لعلّه سيبدأ في تفهم الحقائق الجديدة التي يقابلها، لعلّه سيُدرك أن ما كان يعتبره من قبل هو كل العالم، لم يكن سوى ظلالٍ لحقيقةٍ أوسع وأعمق وأكثر تنوعًا، وحين يقرر فيما بعد العودة إلى الكهف، تكون كل تصوراته القديمة عن العالم قد اختلفت بالكامل. ما الذي سيحدث إن حاول أن يخبر رفاقه في الكهف عما رآه؟ كانت حكاية الكهف هذه قد جاءت في الباب السادس من كتاب (الجمهورية) لأفلاطون، الفيلسوف الذي يعد الأشهَر والأعلى

قامةً ومكانةً في تاريخ الفكر الفلسفي العالمي، وقد عاش قبل أربعة وعشرين قرنًا، لكنه ما يزال حتى هذه اللحظة يحظى بالثناء، حتى إن برتراند رسل، وهو يكتب موسوعته في تاريخ الفلسفة الغربية، وصفه بأنه: «الأعظم بين الفلاسفة، صاحب بصيرة نافذة مكّنته من مشاهدة عالمٍ متسامٍ، قوامه الخير والصلاح والحب والجمال»، وقال عنه الإنكليزي الفريد وايتهد: «إن تاريخ الفلسفة ليس سوى سلسلة من الملاحظات الهامشية عن أفلاطون»، وقال عنه الفرنسي برجسون: «أفلاطون هو الفلسفة، والفلسفة هي أفلاطون».

***

المعرفة أولاً

يتفق معظم مؤرخي الفلسفة على أن أرستوكليس ابن أريستون قد سُمي أفلاطون لامتلاء جسمه وقوة بنيانه، وُلد عام ٤٢٧ قبل الميلاد لأسرة أرستقراطية ترجع بأصولها إلى ملوك أثينا الأوائل. وطبقًا لموسوعة الفلسفة التي كتبها فردريك كوبلستون، فإن أسرته الغنية أتاحت له أن يتعلم البلاغة والموسيقى والرياضيات والشعر، كما كتب في شبابه أشعار الغزل وألّف مسرحية متأثرًا بيوربيدس. وقد ظلّ حتى العشرين من عمره تحرّكه طموحات عائلته في العمل السياسي، لكن حدث أن التقى الشاب أفلاطون بالمعلم سقراط، ولم يكن هذا الارتباط أول علاقة لأفلاطون بالفلسفة، فقد سبق له أن تعرّف على السفسطائيين، واستهوته آنذاك أفكار هراقليطس. وقد تركت هذه الأفكار في نفسه أثرًا قويًا، ولكنه في الوقت الذي أخذت عائلته تطالبه بأن يعمل في مهنة أجداده، جاء سقراط ساخرًا ليقول له: «المعرفة أولاً». لقد كان هذا هو الدرس الأول الذي تعلّمه أفلاطون من سقراط، فقلب حياته، وجعله يعيد التفكير في كل ما تعلّم من قبل. فبمجرد أن انتهى من حواره مع سقراط ذهب إلى البيت ليحرق كل قصائده، ويمزق كل ما

كتبه من قبل، وينسى هيامه بالمسرح، وكل ما يتعلق بعشقه للرياضة، وتبع أستاذه الشيخ الذي بدا وكأنه مارس عليه السحر، على حد تعبير ديورانت في (قصة الفلسفة): «وقد رفض كل محاولات عائلته للحصول على وظيفة كبيرة في الدولة، فضّل أن يبدأ بالمعرفة أولاً». كان سقراط يحاول أن يوضّح لأفلاطون مفاهيم الشرف والوفاء والأخلاق، وكيف يكون الإنسان إنسانًا، وكيف يمكن له أن يعيش تحت حكم العقل حياة إنسانية متميزة: «إن أعظم خير للإنسان هو أن يكون حديثه كل يوم عن الفضيلة والأخلاق والعدالة، فالحياة غير المحصّنة بهذه القيم ليست حياة».

لم تدم رفقة أفلاطون لسقراط طويلاً، فبعد ثماني سنوات من تاريخ أول لقاء يتم إلقاء القبض على سقراط وتقديمه للمحاكمة التي تأمر بإعدامه، كان أفلاطون حينها في الثامنة والعشرين من عمره، وفي محاورة (الدفاع) يقدّم لنا أفلاطون وقائع المحاكمة الشهيرة التي رفض فيها سقراط الاعتذار عن أفكاره وآرائه، ورفض توسلات تلامذته بترتيب هروبه، معللاً ذلك بأن الهرب فعل خاطئ لكونه مخالفًا للقانون ومنافيًا للأخلاق، معتبرًا أن الأفراد الذين يخالفون قوانين مجتمعهم يقوِّضون الأساس الذي تقوم عليه الحياة الاجتماعية.

بعد موت سقراط يرحل أفلاطون عن أثينا، وتطول أسفاره، لكنه في النهاية عاد إلى مدينته ليشتري قطعة كبيرة من الأرض، أنشأ عليها أكاديميته الشهيرة، والتي ظل يُعلِّم فيها طوال أربعين عامًا. وكانت الأكاديمية مدرسة ومعهدًا للأبحاث الفلسفية والعلمية، وكان تلامذته من الشباب الذين هيّأهم لكي يمارسوا العمل السياسي والفكري. وبعد عشرين عامًا يتلقى رسالة من ملك صقلية الشاب الذي كان معجبًا بأفكار الفيلسوف، يدعوه فيها لتطبيق أفكاره على نظام الحكم في مملكته: «الآن توجد فرصة طيبة يمكن

من خلالها الوصول إلى غايتك، وتتحد الفلسفة الحقّة والسلطة كمُلك عظيم في الشخص ذاته». في صقلية حاول أفلاطون أن يطبّق نظريته عن الفيلسوف الذي يصبح ملكًا أو الملك الذي يصبح فيلسوفًا، والتي شرحها لنا في كتابه الشهير (الجمهورية) وفيه يعرض برنامج عمل للحكومة المثالية لمجتمع مثالي.

***

أول نظام شيوعي في التاريخ

«لا ينبغي لأحد منهم أن تكون له أية ملكية خاصة من أي نوع عدا ما يكون ضروريًا بصورة مطلقة، ثانيًا لا ينبغي لأحد منهم أن يكون له أي مسكن أو مخزن على الإطلاق، وهم وحدهم من بين كل رجالات المدينة لا يجرؤون على أن تكون لهم أية معاملات في الذهب أو الفضة أو ما يمسوهما أو الوجود معهما تحت سقف واحد».

يتساءل كوبلستون في موسوعته عن الفلسفة: «هل هذا وصف لنظام ديني قائم على الزهد، أم وصف لجماعة ثورية ماركسية تريد إقامة نظام شيوعي، أم أنه نوع من أنواع روايات اليوتوبيا لمجتمع مستقبلي؟» إنها في الواقع جزء من وصايا أفلاطون للحكّام، كما وردت في كتابه الأشهر (الجمهورية) التي يطرح فيها عددًا من الأسئلة أبرزها:

١. ما الذي يربط أجزاء الدولة بعضها ببعض ويعطيها الاستقرار؟

٢. هل الدولة شيء طبيعي ولازم، أم أنها مسألة ثقافة يمكن أن تتغير؟

٣. هل الموجودات البشرية تتعاون أم تتنافس؟

٤. هل الناس متساوون؟ ولو صحَّ ذلك، فبأي معنى؟

٥. هل القوانين ضرورية؟

٦. ما الذي يحدث لو أن مختلف الناس لم يتفقوا على أشياء معينة؟

٧. هل للدولة غرض أم غاية؟

٨. هل الدولة شيء خيِّر أم شيء سيء؟

وقد جرت عادة مؤرخي الفلسفة على أن يصفوا المدينة التي صوّرها في (الجمهورية) بأنها أول ما عرف العالم من مدن فاضلة، وكانت غايته الأساسية في محاورة (الجمهورية) هي البحث عن العدالة وشروط تحقيقها، وهذا الموضوع يستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الكتاب. وفي الربع الأخير يعرض أفلاطون مصادر الفساد التي تصيب الدولة والمواطنين، وكيف تتدهور الدول فتتحول إلى صورة فاسدة من الحكم.

يدور الحديث في الجمهورية بأسلوب رواية يرويها سقراط لمستمعيه، وهم خليط غير متجانس، منهم السفسطائي ومنهم الباحث عن الحقيقة، ومنهم من يؤمن بالديمقراطية، ومنهم من يرى في الحرية ضررًا على الاستقرار. ويبدأ سقراط في السؤال عما هي العدالة؟ فيقول بوليمارخوس إنها تقتضي بأن يرد الإنسان كل ماله، وإنها معاملة كلٍ حسب ما يستحق، ويرفض سقراط هذا التعريف، إذ كيف يضر العادل أعداءه، وبمعنى آخر كيف يقترف العادل ظلمًا من خلال عدالته. ويعترض تراسيماخوس الذي يقدم تعريفًا ثانيًا للعدالة يؤكد فيه: «إن العدالة ليست سوى العمل بمقتضى مصلحة الأقوى». وفي مقابل هذه الآراء نجد سقراط يلجأ إلى تشبيه الحكم بأنه فن من الفنون المفيدة للإنسان، غايته تحقيق فائدة للغير لا لأصحابه، ولهذا فإن الحاكم ضمن مفهوم أفلاطون هو من يعمل لا لمصلحته الشخصية، بل لمصلحة رعيته. ثم يحاول سقراط أن يقدم وصفًا للعدالة، فيقول إن لكل

شيء وظيفة خاصة به، فكما أن للعين وظيفة لا تشاركها فيها الأذن وفضيلتها في أدائها لهذه الوظيفة، كذلك تكون للنفس وظيفة هي الحياة وفضيلتها في حسن توجهها للحياة لتبلغ السعادة، وما العدالة إلا فضيلتها التي هي وسيلتها للسعادة.

وفي رأي برتراند رسل أن العدالة في محاورة (الجمهورية) مبنية على الأخلاق لا العكس، والسؤال الأول الذي يثار في المحاورة هو سؤال أخلاقي: ما هي قاعدة الخير التي يتعيّن على الإنسان أن ينظّم حياته وفقًا لها؟ وهنا يثير أحد التلاميذ مفهوم العدالة عند الناس، فيقول إن الناس لا ترغب في العدالة لذاتها، وإنهم لا يلتزمون بها إلا مجبرين حتى لا يصيبهم أذى من غيرهم إن عرفوا بالظلم .

وهنا يردُّ سقراط لكي يثبت أن العدالة قيمتها في ذاتها، وأنها الخير الوحيد للنفس الإنسانية، وبها وحدها يدرك الإنسان السعادة.سقراط: لتعلم إذن منذ البداية وعندما شرعنا في تأسيس مدينتنا، أخذنا على عاتقنا واجبًا هو أن نبيّن ما هي العدالة، ولقد ذكرنا مرارًا إن كنت تذكر أنه لا ينبغي لأحد أن يمارس إلا عملاً واحدًا في المجتمع، وهو العمل الذي هيّأته له الطبيعة.

***

أجل قلنا ذلك.

سقراط: وقلنا إن العدالة تتلخص في انصراف كلٍّ إلى عمله وبدون أن يتدخل في أعمال الغير، أي أن العدالة هي في اهتمام كلٍّ بما يخصه.

هكذا يبين أفلاطون أن خير الأمم هي تلك التي تقدر التخصص، وسيؤدي كل المواطنين العمل الذي يتمتعون بالأهلية الطبيعية له، بغض النظر عن المولد والنسب، ويمكن للمرأة أن تصل إلى أعلى المراتب بسهولة.

لم يكن أفلاطون مناصرًا للمرأة بالمعايير الحديثة، لكنه يقول في الجمهورية إن المرأة يجب أن تحصل على الفرص نفسها التي يحصل عليها الرجل، وأن أية امرأة أثبتت كفاءتها يجب أن يسمح لها بالترقي في مراتب المجتمع.

وإذا تساءلنا عن الأسباب التي دعت أفلاطون إلى تقديم هذا التعريف للعدالة والمساواة، فإن الإجابة سنجدها في الفصل الذي خصّص لمفهوم الدولة والمجتمع، فالدولة تنشأ في رأي أفلاطون من «عجز الفرد عن الاكتفاء بذاته وحاجته إلى أشياء لا حصر لها»، ولما كانت حاجات الفرد عديدة لا يستطيع القيام بها لوحده، فهو إذن في حاجة إلى مساعدة المجتمع. وهنا يبيّن لنا أفلاطون ضرورة الاجتماع البشري كأصل لنشأة الدولة، فالدولة لا تنشأ إلا لتلبية الحاجات المعنوية والمادية التي لا يستطيع الإنسان أن يلبيها بمفرده.

إن الدولة المثالية عند أفلاطون هي التي تقوم على مبدأ تقسيم العمل بين أفرادها الذين يضعهم أفلاطون في جمهوريته في ثلاث طبقات أساسية هي: طبقة المنتجين، وطبقة الجنود، وطبقة الحكام. وكل طبقة من هذه الطبقات ينبغي أن تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل متحلّية بفضائلها وبدون أن تتدخل أية طبقة في عمل الأخرى، ويشترط في طبقة الحكّام أن تكون من الفلاسفة: «ما لم يتولَّ الفلاسفة الحكم في الدول، أو أن يتحول من نسميهم ملوكًا وحكامًا إلى فلاسفة حقيقيين، وما لم نرَ القوة السياسية تتحد بالفلسفة، وما لم تسنّ قوانين دقيقة تبعد من لم يجمعوا هاتين القوتين، فلن تنتهي الشرور من الدول».

وهنا نتساءل ما الذي يعنيه أفلاطون بالفلسفة، إنها عنده السعي إلى المعرفة والحقيقة، فأين الحقيقة؟ هنا يخبرنا أفلاطون أن الحقيقة ليست في الظواهر المحسوسة التي تتوالى على أبصارنا وأسماعنا، لأن هذه الظواهر ليست دائمًا كذلك، ولا هي مطلقة فيما لها من صفات. فلو فرضنا أنها جميلة

أو خيِّرة فإنها ليست جميلة ولا خيّرة إلا في جهة معينة ولوقت معين، أما المطلق الدائم الحقيقي فهو مثالها العقلي، الجمال في ذاته والخير في ذاته، وهذه المثل هي وحدها موضوع علم الفيلسوف. لذلك يفرّق أفلاطون بين الظن، وهو المعرفة التي تقف عند حدود الظواهر الحسية، وبين العلم وهو المعرفة اليقينية التي تدرك الحقائق العقلية أو المُثل. ولتوضيح هذه الصورة يقدم لنا أفلاطون حكاية الكهف التي ذكرتها في بداية المقال، فواجب الفيلسوف في قومه هو أن يكشف لهم وهمهم، بعد أن يرتفع بهم من إدراك المحسوس إلى المعقول.

ويؤكد الدكتور فؤاد زكريا في دراسته المطوّلة التي كانت مقدمة للترجمة العربية لجمهورية أفلاطون إن الهدف الرئيسي لأفلاطون هو وضع فن رفيع لتدبير شؤون النفس، يتسع بحيث يشمل شؤون الدولة. ولهذا فإن الكمال الأخلاقي لديه لا يتحقق إلا بالتربية السليمة، وقد عرض في (الجمهورية) نظامًا مفصلاً للتربية وربطه بالأخلاق ربطًا محكمًا، وقد جعل ديف روبنسوف في كتابه الشهير (فلسفة أفلاطون) من فكرة التربية محورًا لتفسير فلسفة أفلاطون، فكل الأبحاث التي تضمنتها محاورة (الجمهورية) وضمنها مناقشة الأنواع المختلفة للدساتير، وأسباب انحلال الأنظمة السياسية، تستهدف في آخر الأمر غاية تربوية. ويوضح روبنسون وجهة نظره بالقول: «قد نظنُّ لأول وهلة أن أفلاطون كان يهتم بتأسيس دولة مثالية، تحكمها صفوة مختارة، وكان يخضع الأخلاق والتربية لهذه الغاية، ولكننا عندما ندرس الجمهورية يظهر لنا بوضوح كامل ما كان يرمي إليه أفلاطون. فهو يبني السياسة على الأخلاق، لأنه يؤمن بأن مبدأ السلوك الذي يرشد المجتمع والدولة هو نفسه الذي يرشد الفرد في سلوكه الأخلاقي».

***

يقولون إن الحكماء أربعة: اثنان قبل الإسلام، وهما أفلاطون وأرسطو، واثنان بعده هما الفارابي وابن سينا. وقد لُقّب الفارابي بالمعلم الثاني، ويقول كارا دي فو في ترجمته للفارابي في دائرة المعارف الإسلامية: «مذهب الفارابي هو مذهب الفلاسفة، أعني الأفلاطونية الجديدة»، فرغم خوض أبي نصر الفارابي في الأمور الفلسفية كافة، إلا أنه اشتهر بكتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) الذي يقال إنه سار فيه على خطى أفلاطون، محاولاً بناء عالم مشابه لما جاء به أفلاطون في (الجمهورية): «إنما البشر، على تنافرهم، محتاجون إلى الاجتماع والتعاون». أي أن الإنسان، وفق مفهوم الفارابي: «لا يستطيع أن يبقى وأن يبلغ أفضل كمالاته إلا في المجتمع». وهو يصف لنا مدينته الفاضلة بأنها: «شبيهة بالجسم الكامل التام، الذي تتعاون أعضاؤه لتحقيق الحياة والمحافظة عليها»، وكما أن: »مختلف أجزاء الجسم الواحد مرتّبة بعضها لبعض، وتخضع لرئيس واحد، هو القلب، كذلك يجب أن تكون الحال في المدينة». وكما أن «القلب هو أول ما يتكوّن في الجسم، ومن ثم تتكوّن بقية الأعضاء فيديرها القلب، كذلك رئيس المدينة». والرئيس هو إنسان تحققت فيه الإنسانية على أكملها. وهي الفكرة المستعارة بحذافيرها من أفلاطون، الأمر الذي دفع المستشرق الفرنسي هنري كوربان للقول إن: «المدينة الفاضلة تحمل سمة يونانية باستلهامها الأفلاطوني، لكنها تتجاوب مع التطلعات الفلسفية والصوفية لفيلسوف إسلامي».

***

البحث عن يوتوبيا

صاغ توماس مور المولود عام ١٤٧٨، كلمة «يوتوبيا « لتكون اسم البلد الخيالي الذي وصفه في كتابه القصير الذي ظهر عام ١٥١٦، تحت اسم

«يوتوبيا»، وقد ترجمه إلى العربية إنجيل بطرس سمعان في ترجمة متميزة. وفيه يتخيل توماس مور، والذي كان مستشارًا للملك هنري الثامن، وجود المدينة الفاضلة -أو جمهورية أفلاطون- في جزيرة متخيلة، تأسس عليها مجتمع قائم على مساواة واسعة النطاق، يحكمه رجال حكماء، له قوانين صارمة، لكنه يوفّر الحياة الكريمة لمعظم مواطنيه. ويذهب مؤرخي حياة توماس مور إلى أن الرجل كان متأثرًا بفلسفة أفلاطون، وقدّم ترجمة من اللاتينية لجمهورية أفلاطون أهداها للملك هنري الثامن. في «يوتوبيا مور»، كما هو الحال في «جمهورية أفلاطون»، ليست ثمة ملكية خاصة، هناك الخير العام والمساواة. وقد حلم كاتبها -وكان من المقربين للملك- بأن يعيش مواطنيه الإنكليز حياة أفضل وبنظام سياسي مثالي، وهو الأمر الذي أدّى به إلى أن يسجن ويقدّم إلى المحاكمة ويقطع رأسه.

***

على مدار قرون، حاول الكثير من الأفراد والمجموعات البشرية تطبيق رؤاهم على أرض الواقع، حاول البعض أن يحقق ذلك من خلال السلطة، وحاول آخرون من خلال الفكر والحكايات الاجتماعية، حتى إن ماركس كتب ذات يوم إلى إنجلز: «أعود بين الحين والآخر إلى كتاب الجمهورية، الحلم الذي أراد أن يحققه أفلاطون، مجتمع عادل في دولة يسودها العدل والمساواة.. هذه هي الشيوعية».

ما الذي يجب أن تقرأه لأفلاطون؟

- محاورات أفلاطون، ترجمة وتقديم: زكي نجيب محفوظ.
- الجمهورية، ترجمة ودراسة: د. فؤاد زكريا.

- القوانين لأفلاطون، ترجمة وتعليق: محمد حسن ظاظا.
- مائدة أفلاطون، ترجمة وتقديم: محمد لطفي جمعة.
- محاورة فايدروس لأفلاطون أو عن الجمال، ترجمة وتقديم: أميرة حلمي مطر.

وماذا بعد عن مصادر أفلاطون في العربية؟

- أفلاطون في الإسلام، تأليف: عبد الرحمن بدوي.
- أفلاطون من سلسلة نوابغ الفكر الغربي، تأليف: أحمد فؤاد الأهواني.
- أقدّم لك أفلاطون، تأليف: ديف روبنسون وجودي جروفز، وترجمة: إمام عبد الفتاح إمام.
- مدخل لقراءة أفلاطون، تأليف: ألكسندر كواريه، وترجمة: عبدالمجيد أبو النجا.
- أفلاطون.. قراءة جديدة، تأليف وترجمة: داود روفائيل خشبة.
- أفلاطون في إنتاجه، تأليف: محمد غلاب.
- أفلاطون، تأليف: أوجست دييس، وترجمة: محمد إسماعيل محمد.

-12-

كيف نجعل للحياة معنى ولا ندحرج الصخور بلا هدف؟

«لست فيلسوفًا لأنني لا أؤمن بالعقل بما يكفي لأن أؤمن بالأنظمة، فما يروقني هو معرفة كيف يجب علينا أن نتصرف، وبتعبير أدقّ، كيف يتصرف المرء عندما لا يؤمن بالرب أو العقل؟ لست وجوديًا مع أن الفلاسفة بالطبع مجبرون على التصنيف. حصلت على انطباعاتي الفلسفية الأولى من الإغريق، وليس من ألمانيا القرن التاسع عشر والتي هي أساس الوجودية الفرنسية الحديثة. لست على يقين أنني مفكر، أما فيما يتعلق بسائر الأشياء الأخرى، فأنا أؤيد الجناح اليساري رغمًا عني وعنه».

تلك الإجابة أراد من خلالها ألبير كامو أن يغلق السِّجال الذي أُثير حول كتابه (الإنسان المتمرد)، وكانت من نتائجه معركة فلسفية بينه وبين صديقه سارتر أدّت إلى قطيعة استمرت حتى موت كامو. فإذا لم يكن كامو فيلسوفًا وأحد أعمدة الفلسفة الوجودية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وإذا لم يكن مفكرًا يمثّل الضمير الأخلاقي لجيل ما بعد الحرب، فمن يكون إذن؟ هذا السؤال يُطرح كلما تطرّق أحد للحديث عن صاحب (الغريب) و (أسطورة سيزيف). فبالرغم من كتابات كامو في الفلسفة وخصوصًا ما يتعلق بمفهوم العبث والتمرد، فإن أروع أعماله بالتأكيد هي رواياته التي حاول أن يجمع فيها بين الأدب المتميز والفلسفة المشاكسة. ففي كتابه (أسطورة سيزيف) يعلن كامو: «إن الروائيين العظماء فلاسفة عظماء». وفي

عرضه لرواية جان بول سارتر (الغثيان) يضع كامو أساس تمييز الروايات الفلسفية: «ما الرواية إلا فلسفة تمت صياغتها في صور خيالية، وفي الرواية الجيدة تختفي الفلسفة في ثنايا الصور الخيالية».

وقد اتّهم بعض النقاد كامو بأنه أديب لا يخلو من الفلسفة، وبأنه تصدّى لمشكلات فلسفية لم يكن مؤهلاً لها. وقد جرى هذا الاتهام أيام اشتدت المعركة بينه وبين سارتر حول كتابه (الإنسان المتمرد)، وكان كامو يؤكّد أن كتابه هذا هو تأملات مباشرة في قضايا كان له هوس بها، وهي قضايا في رأيه تميّز بها العصر الذي أسهم هو فيه. كان كامو يتندّر في أحيان كثيرة فيقول إن أفكاره تعطي للجرائد جزءًا من شعاراتها: «ما عدت أقول ولو على نحو عابر (عبث). هناك من يحاول أن يجعل من هذه الكلمات مجرد شعارات»

وفي السنين التي كان اسم سارتر يعقبه دائمًا اسم كامو، أنكر صاحب (المنفى والملكوت) أن تكون له صلة بالوجودية. وكان قد صرّح: «إن الكتاب الوحيد المعني بالأفكار مما نشرت (أسطورة سيزيف) موجهًا ضد ما يسمى بالفلاسفة الوجوديين». كان أقرب إلى نيتشه الذي قرأه بإمعان، ويحمل تحفظًا إزاء هيغل وماركس:» كنت أطالع كتب الفلسفة كما أقرأ الروايات، أي طلبًا للنور الذي تلقيه على تفكيري».

ولعلّ كثيرين يتساءلون ما الذي فعله ألبير كامو في عصرنا الحديث. نجد الإجابة في مقدمة كتابه الشهير (الإنسان المتمرد): «ما الذي فعلته سوى أنني رحت أجادل حول فكرة وجدتها هائمة في الطرقات».

***

طفولة صماء

طفولته كانت فقيرة، ولد في السابع من تشرين الثاني عام ١٩١٣ في

مدينة القسطنطينية بالجزائر. لم يكن يتجاوز السنة الأولى من عمره عندما قتل والده، الذي كان عاملاً زراعيًا، وكانت والدته عاملة نظافة من أصل إسباني أميّة نصف صمّاء. نشأ كامو في شقة صغيرة من ثلاث غرف يتقاسمها مع والدته وشقيقه الأكبر، وعمه الأخرس، وجدته لأمه. وقد وصف كامو الجو العام لمنزله في مفكرته التي نشرت في ثلاثة أجزاء: «أشدّ ما يشغلني التفكير في غلام كان يعيش في أحد الأحياء الفقيرة، يا له من حي، ويا له من منزل. لم يكن يتألف إلا من طابق واحد ودرج لا يعرف النور. كان هذا الغلام يستطيع أن يتحسّس طريقه إلى هناك في أحلك الليالي، وهو يعرف أن في استطاعته قفز هذه الدرجات دون أن يتعثر أبدًا. لقد تملّكه البيت وسيطر على مشاعره، وما زالت قدماه تعرفان المسافة بين الدرجتين من درجات السلم بالإحساس المجرد، وما زالت يداه تهلعان من قضبان السلم هلعًا غريزيًا لا يقهر، وذلك بسبب ما يجري فوقها من الصراصير».

التحق كامو بمدرسة ابتدائية سنة ١٩١٨، وفي هذه المدرسة استرعى انتباه أساتذته الذين رشّحوه للقبول في مدرسة «الليسيه». وبينما كان كامو تلميذًا في الليسيه، بدأ يَطلّع ولأول مرة على الأدب الفرنسي، ويبدو أن أندريه جيد أثّر فيه تأثيرًا كبيرًا، كما أنه قرأ لفاليري وبروست. بعدها التحق بجامعة الجزائر طالبًا للفلسفة. عام ١٩٢٦، أصبح كامو حارسًا للمرمى في أحد الأندية المحلية: «كانت الرياضة شغلي الشاغل، فهي المجال الوحيد الذي تلقيت فيه دروس الأخلاق».

بعد التخرج في الجامعة اتّجه إلى المسرح، فأنشأ عام ١٩٣٥ مسرح العمل، وقد أعدّ للمسرح عددًا من الأعمال كان أبرزها قراءة لبروميثوس أسخيلوس ومقاطع من الإخوة كارامازوف لدستويفسكي. وما أن نشبت الحرب حتى تطوّع للخدمة العسكرية، لكنه أُعفي من الخدمة لأسباب تتعلق بحالته

الصحية. عام ١٩٤٠، سافر للسكن في باريس وبعد عام أصبح عضوًا في الحزب الشيوعي الفرنسي، لكنه سرعان ما اختلف معه حول قضية الجزائر فترك الحزب. في باريس أكمل دراسته العليا في الفلسفة، وكانت أطروحة تخرجه عن العلاقة بين الفلسفة اليونانية والفلسفة المسيحية. عام ١٩٤٢، ينضم للمقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألماني، ويتولى إدارة تحرير جريدة المقاومة (كومبا) والتي استمرّ العمل بها بعد نهاية الحرب. في تلك الفترة نشر كتابه الشهير (أسطورة سيزيف)، والذي قدّم فيه للمرة الأولى مفهومًا فلسفيًا للعبث. بعدها أصدر أعماله الكبرى: (الغريب) و (الطاعون) ومسرحيته الشهيرة (سوء تفاهم)، ثم (السقطة) و (المنفى والملكوت) وكتابه الشهير (الإنسان المتمرد). في أواخر عام ١٩٥٧، مُنح جائزة نوبل للآداب وكان في الرابعة والأربعين من عمره، ويعدُّ أصغر الحاصلين على الجائزة.

***

العبث لعبة الحياة

شرع كامو في كتابة مقال عن العبث منذ عام ١٩٣٨، أما العمل النهائي الذي انتهى منه على شكل كتاب أسماه (أسطورة سيزيف) فقد أتمّه عام ١٩٤١ ونشره عام ١٩٤٣. وفي الكتاب يركّز كامو على مشكلة الحياة اليومية: «في هذا الكتاب سيتم وصف لعبة الحياة بدقة وتحديد أصولها وقواعدها». وهو يخبرنا في مقدمة الكتاب أن موضوعه يدور حول مرض معين أصيب به العصر، معتبرًا أن الحياة الإنسانية لا يفهمها الإنسان: «الاعتراف بأن الحياة لا معقولة وأنها، لكل واحد منا، ذات قيمة لا تقدر ويزيد من قيمتها وعينا الحاد لرفضها أن تخضع للفهم الإنساني».

يستمر كامو بعد ذلك ليوضح معنى لفظة «العبث» من خلال تتبع سريع لأوضاع الناس اليومية، فيقدّم أمثلة من العبث شائعة الاستعمال: «يتفق أن

يتهاوى حولنا ديكور حياتنا اليومية في حطام الرتابة: الاستيقاظ، وسائط النقل، أربع ساعات في المكتب أو المصنع، وجبة أكل، أربع ساعات أخرى من العمل، الإثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة، السبت، كلها في نفس الإيقاع، والطريق يسهل لنا السير في معظم الوقت. ولكن كلمة (لماذا) تظهر ذات يوم، وإذا كل شيء يبدو متعبًا ملونًا بالوحشة. أوجه العبث هذه كلها تنتهي ليس بالموت بل باحتضارنا، وما من جهود يمكن تبريريها مسبقًا إزاء الرياضيات الدموية التي تنظم حالتنا. وسبل النجاة كلها مسدودة لأنها جميعًا وهمية، فالأمل الذي تقدّمه الأديان أو اللجوء إلى تفسير ما عن طريق الفلسفة، إن هو إلا إسقاط الإنسان في عبثية الوجود. ولعلّ خط الحياة السريع، أننا نموت ونحن نعلم أننا نموت، وهذا كل ما نعرف عن نصيبنا في الدنيا، لكننا مرغمون على التفكير بلغة الحياة، لأن الموت بالنسبة لنا لا معنى له، يقيننا الوحيد هو حياتنا. فالمنطق يقتضي بأن نرفض رفضًا عنيفًا فكرة مهادنة الموت، لأن حياتنا لا معنى لها فيها وراء ذاتها. إن التمرد على الموت هو الموقف الوحيد الممكن للإنسان».

في نهاية (أسطورة سيزيف) يقول كامو: «إنني الآن أترك سيزيف عند الحضيض من جبله، فالمرء دائمًا يعود إلى عبثه، إلا أن سيزيف يعلّمنا ذلك الضرب السامي من الولاء الذي لا يعترف بالآلهة ويرفع الصخور، الكفاح صعودًا إلى القمة كفيل بأن يملأ قلب الإنسان بالأمل، فعلينا أن نتخيل أن سيزيف وهو يكافح صعودًا إلى القمة مع علمه بأنه لن يبلغها، قد يكون رمزًا للإنسانية جمعاء، وعظمة سيزيف تتأتى من أنه لا يستطيع أن يترك للصخرة البقاء في أسفل المنحدر».

***

«أو ربما كان ذلك بالأمس، لا أدري على وجه التحديد، تلقيت برقية من البيت مؤداها (أمك ماتت.. الجنازة غدًا) ولا يعني هذا أي شيء، إذ ربما كان ذلك بالأمس». يقرّر أن يذهب لدفنها وهو حزين، لكن بلا شعور بالاهتمام، ثم يعود إلى المدينة ليقابل الفتاة التي يحبها، ويذهب معها إلى السينما، ثم يذهب مع صديقه إلى ساحل البحر، فيفاجأ ببعض الأشخاص يهددونهم بسكين، يأخذ ميرسو من صديقه المسدس الذي يحمله خوفًا من أن يتورط بجريمة قتل، ويفترق الصديقان، لكن ميرسو يلتقي صدفة من جديد بأعداء صديقه، ويشهر أحدهم سكينًا، ويشاهد لمعان نصل السكين في الشمس التي تضرب أشعتها عينيه، فيخرج المسدس ويطلق رصاصة على حامل السكين. «صدفة سخيفة»، هكذا يقول للقضاة عندما حاكموه، وهو يشرح لهم كيف أنه ذهب لدفن أمه، ثم شاهد فيلمًا سينمائيًا والتقى بصديقته، وأطلق الرصاص من دون سبب، وتقرّر المحكمة أنه يستحق الإعدام رغم تعاطف المحلّفين معه. في اليوم التالي، تصفّق باريس للكاتب الجديد الذي يريد أن يقول إن مأساة الإنسان المعاصر تتلخص في عبث الحياة الذي نعيشه كل يوم. رواية لا بداية لها ولا نهاية، لكنها تعكس التحولات التي تجري على حياة الناس كل يوم.

«أما أنا فقد كنت أصغي وأسمع. إنهم يرونني شخصًا ذكيًا، لكنني لم أكن أفهم جيدًا كيف يمكن أن تصبح سمات شخص عادي تهمًا فادحة». تقول جيرمين بري في كتابها (ألبير كامو): «ربما كان كامو يفكر في سارتر عندما خطّ هذه السطور من روايته (الغريب)، غير إنها تنطبق عليه شخصيًا، كأنه كان يتنبأ بما سيقدمه للناس».

بعد عام على صدور (الغريب) يكتب سارتر في الأعداد الأولى من مجلة

الأزمنة الحديثة: «ليست الجريمة الحقيقية هي ما يحاكم ميرسو عليها، بل هي جريمة أخرى سيفهمها فهمًا تامًا في النهاية، عندما يدرك مستوى جديدًا من الوعي. إن رواية (الغريب) عمل كلاسيكي منهجي مؤلف عن العبث، وضد العبث». قبل ذلك كان سارتر قد قرأ (أسطورة سيزيف) وهو يعد مسوّدات كتابه الكبير (الوجود والعدم)، فيقرّر أن ينشر مقالاً مطولاً عن كامو وسيزيفه فيكتب: «العبث ليس كامنًا في الإنسان ولا في العالم إذا ما فكرنا في كل منهما بمعزل عن الآخر، ولكن حيث إن الخاصّية المهيمنة للإنسان هي الوجود في العالم، فإن العبث في النهاية جزء لا انفصال له عن الظرف البشري، ومن ثم لنقل بادئ ذي بدء أن العبث ليس موضوع فكرة مجردة، وإنما يتكشّف لنا في استنارة باعثة على الحزن». يكتشف سارتر في (الغريب) و (أسطورة سيزيف) نمطًا جديدًا من الكتابة يستلهم الوجودية لكنه يخلطها بالعبث. فيما بعد بسنوات يقول سارتر: «الشعور بالعبث يسطع وجه الإنسان عند أية زاوية من زوايا الطريق». ونجد في صفحات (أسطورة سيزيف) كلمات قريبة مما قاله بطل (الغثيان)، وإذا قلبنا الصفحة الأولى من كتاب كامو، سنجد اسم رواية سارتر يُشار إليه بشكل واضح: «هذا الغثيان كما يسميه كاتب من كتّاب اليوم هو أيضًا العبث».

***

سنوات الفراق والخصام

ظل كتاب كامو الشهير (الإنسان المتمرد) الذي صدر بالعربية عام ١٩٦٥ لا يحظى بالاهتمام من القرّاء العرب الذين وجدوا في روايات صاحب (الغريب) ومسرحياته متعةً تفوق كتبه الفلسفية، التي انشغلوا عنها بما كتبه سارتر عن الوجودية وغرائبها. ولم يعرف القارئ العربي للأسف كامو الفيلسوف، حيث طغت صورة المعلم سارتر على صور معظم تلامذته

وأبناء جيله، وظلّ هو وحده الذي يحظى بالاهتمام والمناقشة. واعتبر البعض (الإنسان المتمرد) الصادرة عام ١٩٥١ إسهامًا بارزًا في النظرة المناهضة للماركسية، واعتبره آخرون فهمًا جديدًا للفكر اليساري يتصف بالحيوية والنقاء، وكان من أهمية هذا الكتاب أنه أثار هجومًا عنيفًا من قبل مجلة (الأزمنة الحديثة)، وأصبح سببًا في القطيعة الشهيرة مع سارتر.

كان الخلاف بين المعلم والتلميذ حديث باريس، فقد ندّد كامو في (الإنسان المتمرد) بالاستبداد الستاليني، وهاجم سارتر على نحو خفي لتعاطفه مع الحملة الستالينية، وكما رأى كامو فإن المتمرد لديه عقل مستقل، في حين أن الثوري هو شخص تسلطي يعقلن القتل دائمًا، وقد حاول كامو أن يبرهن أن العنف دائمًا غير مبرر حتى إذا كان وسيلة لغاية.

في اجتماعات هيئة تحرير (الأزمنة الحديثة) تجري مناقشات حامية حول المتمرد، من منهم سيكتب نقدًا عنه؟ أخيرًا وقع الاختيار على فرانسيس جانسون الذي كتب مقالة نقدية قاسية أكثر مما طلب منه سارتر أن تكون، لكنه بصفته رئيس تحرير للمجلة مرّرها دون أية إضافات أو تعديل.

شعر كامو بالخيانة، وفي الرد الذي بعثه إلى المجلة يعبّر عن غضبه إزاء ما اعتبره تشويهًا فاضحًا ومنافيًا للذوق لكل ما جاء في كتابه (الإنسان المتمرد)، ورغم أن سارتر لم يكتب شيئًا ضد الكتاب، إلا أن كامو ظلّ يعتقد أن محرّر المجلة كتب المقال بوحي من سارتر: «أخيرًا، لا أحد سوى صحيفتكم سيراوده التفكير في الطعن في الدعوى بأنه إذا كان ثمة تطور قد حدث من رواية الغريب إلى الطاعون، فإن هذا التطور مضى في طريق الإنسان المتمرد، لكنكم تريدون أن تثبتوا للأسف أنني في هذا الكتاب منفصل عن الواقع والتاريخ». والمقال الذي نشر في ١٧ صفحة يغمز فيه كامو من قناة سارتر، ويحاول أن يصوّر للقارئ أن كاتب مقال الهجوم على (الإنسان المتمرد) هو

سارتر لا غيره.

لم يسكت سارتر أمام هذا الهجوم الشديد، فأراد أن يقدم درسًا قاسيًا لتلميذه، فيكتب مقالاً مطولاً في (الأزمنة الحديثة): «من المؤسف أن تضعني عن عمد أمام محكمة وبمثل هذه اللهجة القبيحة، بحيث أصبحت عاجزًا عن التزام الصمت من دون أن أفقد ماء وجهي، لذلك سوف أجيبك من دون غضب، ولكن في إسهاب لأول مرة منذ عرفتك. إن جمعك بين تصورات كئيبة وموقف هش حال دائمًا بينك وبين الناس، واطلاعك على الحقيقة من دون تجميل أو مواربة، والنتيجة أنك أصبحت ضحية زهو أخرق، يخفي مشكلاتك التي تطوي عليها صدرك.. عاجلاً أم آجلاً سيخبرك أحدهم بهذا، وربما من الأفضل أن أكون أنا».

كانت رسالة كامو حادة، فجاء رد سارتر موجعًا. تتذكر سيمون دي بوفوار أن انقطاع العلاقات بين سارتر وكامو كان أشبه بنهاية قصة حب، وهي تعترف أنها انحازت إلى سارتر وستكتب في (قوة الأشياء): «كامو الذي كان عزيزًا عليّ لم يعد له وجود بالنسبة لي».

***

موت المتمرد

في نهاية عام ١٩٥٩ تنشر غاليمار رواية كامو الأخيرة التي كانت أشبه بالسيرة الذاتية، ولأنه لا يزال يعتبر أن سيمون دي بوفوار ليست طرفًا في الخلاف مع سارتر أرسل إليها نسخة من الكتاب مع إهداء يقول فيه: «أعرف أنك لن تقرئي هذا الكتاب الآن، لكنه سيثير اهتمامك في يوم من الأيام». لم يكن كامو يعرف أنه يتنبأ بنهاية خلافه مع سارتر وبوفوار. فبعد أسابيع قليلة يسافر مع صديقه صاحب دار النشر الشهيرة غاليمار، وفي الطريق تفلت

السيارة من السيطرة وترتطم بشجرة، صباح اليوم التالي كانت بوفوار تجلس كعادتها تقرأ الصحف بصمت، لتقع عيناها على صورة كامو مضرجًا بدمه، مع عنوان كبير: «مات المتمرد».

***

الوريث الأخلاقي

«يمثل كامو في هذا القرن، وضد حركة التاريخ، الوريث المعاصر لتلك السلسلة الطويلة من فلاسفة الأخلاق الذين قد تشكّل أعمالهم الأكثر أصالة في الكتابات الفرنسية، ففي صفائها وبساطتها وحسِّيتها شنت نزعته الإنسانية العنيدة حربًا غير مضمونة العواقب على أحداث ذلك الزمان. ولكنه على غير ذلك استطاع بصرامة مواقفه الرافضة أن يشدّد على وجود الحقيقة الأخلاقية في قلب الحقيقة التاريخية التي نعيش فيها، ضد أنصار الميكافيلية وضد عجل الواقعية الذهبي». كانت هذه مرثية سارتر لكامو التي جاءت بعد أيام قليلة على رحيله، ليقدم فيها اعتذارًا عن سنوات الفراق والخصام، ومراجعة لآرائه حول فيلسوف التمرد والعبث.

***

ما الذي يجب أن تقرأه لألبير كامو؟

- الغريب[1] وقصص أخرى، ترجمة: عايدة مطرجي إدريس.
- أسطورة سيزيف، ترجمة: أنيس زكي حسن.
- الطاعون، ترجمة: سهيل إدريس.

1- هنالك طبعة جديدة صدرت عام ٢٠١٤ عن دار الجمل وبترجمة محمد آيت حنا.

- الإنسان المتمرد، ترجمة: نهاد رضا.
- سوء تفاهم، ترجمة: إدوارد الخراط.
- أعراس المقصلة، ترجمة: جورج طرابيشي.
- أوراق ألبير كامو، ترجمة: نجوى بركات.
- الموت السعيد، ترجمة: عايدة مطرجي إدريس.
- خطاب السويد أو الفنان وزمانه، ترجمة وتقديم: أحمد المديني.

وماذا بعد عن مصادر ألبير كامو في العربية؟

- ألبير كامو، تأليف: ديفيد شيرمان، وترجمة: عزة مازن.
- ألبير كامو وأدب التمرد، تأليف: جون كروكشانك، وترجمة: جلال العشري.
- ألبير كامو، تأليف: جيرمين بيري، وترجمة: جبرا إبراهيم جبرا.
- ألبير كامو.. محاولة لدراسة فكره الفلسفي، تأليف: عبد الغفار مكاوي.
- ألبير كامو.. سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر، تأليف: كونر كروز أوبراين، وترجمة: عدنان كيالي.

-13-

إذا أردت أن تعرف أنك موجود.. عليك أن تعبّر عن نفسك بحرية

ذات مرة تلقّى آينشتاين رسالة من أحد رجال الكنيسة يسأله فيها: هل أنت مؤمن؟ فيجيبه صاحب النظرية النسبية ببرقية من سبع كلمات: «أجل مؤمن بالذي فصل إسبينوزا في فلسفته». كان آينشتاين في الثلاثين من عمره عام ١٩٠٩، حين كتب قصيدة عن إسبينوزا، وحين سئل عن مغزى القصيدة قال: «إنني لست شاعرًا، لكني أحب الشعراء وإبداعاتهم وأحبّهم إلى قلبي الشاعر المتمرد هاينرش هاينه». بعد ذلك بسنوات، أصرّ آينشتاين أن يدوّن بخط يده تلك الكلمات في سجل الزوار بعد أن قام بزيارة إلى البيت الذي عاش فيه الفيلسوف باروخ إسبينوزا في مدينة ليدن الهولندية: «كم أحب هذا الإنسان النبيل.. أكثر مما أستطيع التعبير عنه بالكلمات».

بدأ اهتمام آينشتاين بالفلسفة مبكرًا بتعرفه لأول مرة في مكتبة عمّه الكبير على كتب أرسطو التي قال عنها إنها أول الألغاز التي واجهته في حياته. ومنذ ذلك الحين صارت الفلسفة أكثر ما يتحدث فيه مع عمه الأكبر، الذي رشّح له مجموعة من كتب الفلسفة اليونانية، ففتنه بشدة سقراط. لم يتأمل فلسفته، وإنما حياته الفوضوية، وإصراره على طرح الأسئلة على الناس في الأسواق وأماكن العمل: «تعرفت على هذا الساحر اليوناني وأنا في الرابعة عشرة من عمري، ما أزال أتذكر صورته التي وجدتها في كتاب ملون ومبسّط عن

الفلسفة، صورة تركت أثرًا عميقًا ودائمًا في نفسي، وأدركت حينها أن هناك أمورًا خفية تتوارى خلف إصرار هذا الرجل على الوقوف رافعًا يده باتجاه المجهول. وكان لمعرفة آينشتاين، الطالب الصغير، بعالم إيمانوئيل كانط وكتابه (نقد العقل المحض) أبرز الأثر في تغذية حبه للفلسفة، والذي لم ينقطع طوال حياته، لكنه حين اقترب من سن العشرين وقع بيده كتاب إسبينوزا (رسالة في اللاهوت والسياسة).

كان آينشتاين طالبًا في الجامعة حين وجد الكتاب مثيرًا ومفزعًا في الوقت نفسه، كانت كل صفحة منه حافلة بـ «ومضات نارية»، هكذا قال آينشتاين لكاتب سيرته والتر إيزاكسون، وإضافة لذلك يقول آينشتاين إنه وجد في إسبينوزا أفكارًا تدل على تبصّر عقلي بالمشكلة التي يطرحها والتي كانت تؤرّق آينشتاين أيضًا، وهي علاقة الدين بالتفكير العقلي والعلمي، وكما كتب آينشتاين فيما بعد: «في البداية تساءلت: ما إذا كان إسبينوزا قد أجاب على الأسئلة قبل أن تتشكل في ذهني، ناهيك عن الإجابة الواضحة والجريئة التي قدّمها لي». كان آينشتاين قبل قراءة إسبينوزا قد اتخذ لحياته اتجاهًا غير متوقع، إذ تحوّل إلى التدين الشديد، وكان والده يحاول أن يعلّمه أصول العقيدة اليهودية. والغريب أن آينشتاين أقبل عليها بمنتهى الحماس وبشكل اقترب من التطرف، وكان في بداية مراهقته قد ألّف مجموعة من التراتيم الدينية. لكنه بعد سنوات قال لأستاذه هاينريش فيبر: «لم تدمْ علاقتي بالدين طويلاً، لأنني كلما أعدت قراءة هذا المشاغب إسبينوزا أدركت كيف يتعارض الدين مع منهج العلم، حيث تتنافى الكثير من المعجزات المذكورة في النصوص الدينية مع منهج التفكير العلمي». وفي النهاية يصل آينشتاين إلى هذه النتيجة: «من خلال قراءتي لإسبينوزا وصلت سريعًا إلى قناعة بأن كثيرًا مما جاء في قصص التوراة لن يكون حقيقيًا».

كانت هذه الآراء صادمة بالنسبة لوالده الذي كان يقول للابن: «ليس هناك من السخافات ما لم يتفوّه به الفلاسفة!». وقد فكّر آينشتاين في فترة من فترات حياته أن يصبح أستاذًا للفلسفة، لكنه واجه معارضة من والدته التي قالت له: «اترك هذا الهراء وانتبه لمستقبلك». وكان المستقبل بالنسبة لهذه الأم أن يعمل ابنها في المصنع الذي يمتلكه والده، وأن يحافظ على إرث عائلته التي اهتمت بالصناعات الكهربائية.

***

الإنسان المنبوذ

عندما كان مراهقًا، قالت والدة باروخ إسبينوزا عنه: «طفلي مخلوق حسن النيّة، لكنّ مستوى ذكائه للأسف أقل من أقرانه، وهو خامل طوال الوقت». وكان مقدّرًا لهذا الابن الخامل أن يصبح أذكى عقلية في القرن السابع عشر، فهو أشد الفلاسفة العقلانيين قسوةً وميلاً لهدم الخرافات، وكان يتلذّذ بهدم المزاعم التي وضعها رجال الكهنوت، وإعلاء شأن القوانين الفلسفية التي أدخلت البشرية عصر التنوير.

تبدو حياة باروخ إسبينوزا في ظاهرها غير حافلة بالأحداث. فقد وُلد في أمستردام بهولندا في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٦٣٢، وكانت أسرته من الأسر اليهودية الغنية. كان أبوه ميخائيل تاجرًا ميسورًا، تلقّى تعليمه في إحدى المدارس الدينية، ودرس الكتب المقدسة وكتبًا دينية وفلسفية، حيث كان الأب يطمح في أن يصبح ابنه حاخامًا. تعلّم اللغة اللاتينية، وفي الثالثة عشرة من عمره بدأ يقرأ أعمال ديكارت، وقد وجد إسبينوزا أن ديكارت يواجه بشكّه الفلسفي عادات الفكر الموروثة التي تضع الإنسان خارج عقله، فقرّر أن يتفرغ لدراسة أعمال الفيلسوف الفرنسي الشهير. واستغرقته تأملات ديكارت، فقرّر أن يضع كتاباً عنه:

«علّمني ديكارت أن أعرف معنى الجديد، ووجدت في توطيد الجديد ما يقضي بدحض القديم، لا ينفصل الجديد المعرفي عن الحاضر الذي يقاضي تحرير المعرفة من أزمتها، ويسعى إلى إطلاق الإمكانيات الإنسانية». ويعلن إسبينوزا الشاب أن سلطة أفلاطون وأرسطو لا تعني له شيئًا، فهي حسب رأيه لا تلائم تقدم العلم والفلسفة: «أعلم حقيقة أن هذه الأحكام المسبقة تمنع البشر من التفلسف، وأعتقد أن من المفيد أن أقوم بفضح هذه الأحكام، وأن أخلّص منها العقول المفكرة».

وقد جعلت دراسته لمنهج ديكارت من المستحيل عليه قبول كل عبارات التوراة، وأيضًا تفسيرات رجال الدين، حيث بدأ يفكر بعلاقة الإنسان بالدين والعلوم بطريقة تخالف ما تعرّف عليه في وجهة نظر اليهود والمسيحيين التقليدية. وقد أعلن مواقفه بطريقة صادمة لعائلته، الأمر الذي دفع شقيقته الكبرى، والتي كانت تريد أن تحرمه من إرث والده، إلى أن تبلغ السلطات الدينية اليهودية عن «هرطقات» شقيقها. فحاول كبير الحاخامات في أمستردام استمالة إسبينوزا الشاب، حيث أبدى استعداده لأن يقدم له معاشًا شهريًا ثابتًا لو أنه احتفظ بآرائه لنفسه ولم ينشرها بين الناس، غير أن الشاب المتحمس باروخ رفض العرض، الأمر الذي دفع الحاخامات إلى إصدار قرار بمنع جميع اليهود من أن تكون لهم علاقات معه، وألا يقرأوا له شيئًا، وألا يقتربوا منه. وحاول متعصب يهودي أن يقتله، فطعنه بسكين أحدثت جرحًا عميقًا في جسده، ظلّ يتذكره في كل مرة يقف فيها ضد تعاليم رجال الدين. وهكذا أصبح وهو في الرابعة والعشرين من عمره منبوذًا، حيث قرّر مجلس الحاخامات طرده من الطائفة اليهودية، كما أصبح بلا مورد مالي بعد أن حُرم من ميراث والده، فامتهن صقل العدسات البصرية، وهي المهنة التي ظلّ يمارسها حتى وفاته، واضطر إلى أن يغادر مدينته أمستردام،

فتجوّل في عدد من المدن، ليستقر أخيرًا في مدينة ليدن، حيث عاود الاهتمام بالفلسفة التي كرّس لها كل حياته، وقرّر أن يغيّر اسمه إلى بندكت، كي يبتعد عن ملاحقة رجال الدين، مثلما قرّر ألا ينشر أثناء حياته سوى كتابين، الأول قام بجمعه طلبته وهو يتعلق بفلسفة ديكارت، والثاني رسالة في اللاهوت والسياسة لم يضع اسمه الصريح عليها إلا بعد وفاته ترجمها إلى العربية الدكتور حسن حنفي. وأصبح بمرور الزمن معروفًا في الأوساط الفلسفية، حيث عرضت عليه جامعة هيدلبرغ منصب الأستاذية، لكنه رفض المنصب وأصرّ على الاستمرار بمهنة صقل العدسات، وقدّم له لويس الرابع عشر معاشًا بشرط أن يهديه أحد كتبه، فرفض العرض أيضًا، وصمّم على أن يستمر بحياته البسيطة التي كانت تؤمن له دخلاً متواضعًا، لكنها تساعده في التعبير عن معتقداته دون تحفظ. وذهب إليه الفيلسوف الألماني ليبنتز ليزوره في بيته الصغير، وكان شغوفًا بفلسفته بصورة مفرطة، فليبنتز يعترف أنه توصّل إلى بعض الأفكار الرئيسية لفلسفته الخاصة عندما قرأ إسبينوزا. ويكتب ليبنتز وصفًا لإسبينوزا قائلاً: «التقيت الأستاذ، كان رجلاً متواضعًا يعيش في مستوى الكفاف، لا يملك سوى مكتبة كبيرة وأدوات يصقل بها العدسات، زاهدًا في الملذات. كان بإمكانه أن يملك كل الوسائل التي تكفل له ثراءً هائلاً، لكنه تركها بمحض إرادته، فقد كرّس حياته للبحث وراء شيء مختلف».

ولما كان إسبينوزا قد ولد ضعيف البنية، وكان في أواخر حياته مجبرًا على استنشاق الغبار من صقل العدسات، ونظرًا لأن العمل الزائد في دراسته قد أجهده، فقد أصيب بالسل، وتوفي في سن الخامسة والأربعين.

***

قليل من الفلاسفة من قاموا بمهمتهم بجديّة وحرص تامّين كما فعل إسبينوزا، فرغم حرمانه من أهله وأصدقائه وميراث عائلته، لكنه كرّس حياته للفلسفة إيمانًا منه بأنها تقدم خيرًا دائمًا يمنح العقل المستقل الهدوء والسكينة: «أدركت أنني في حالة خطيرة للغاية، فأرغمت نفسي على البحث بكل قوتي عن علاج، مع أنني كنت متيقنًا أنني لن أجده، لأن الإنسان المريض الذي يصارع مرضًا مميتًا، عندما يرى أن الموت يحدّق به بصورة أكيدة إذا لم يجد علاجًا، يكون مجبرًا على أن يبحث عن ذلك العلاج بكل قوته، حيث تنعقد عليه كل آماله».

لقد كان إسبينوزا يعتقد أن ليس ثمة رضا ولا أمان دائمين في الثروة والشهرة، أو التعلق في حب أي شيء زائل، فالخير هو في تحريك العقل بالاتجاه الصحيح، ويشبه منهجه في البحث الفلسفي بوجه عام منهج ديكارت. يصر إسبينوزا أن يجمع ما لا تقبل به الفلسفة ولا يقبل بالفلسفة في مصطلح واحد هو «الخرافة». وهو يقيم فكرة الخرافة على مبدأين أساسيين يوضّحهما بقوله: «يولد البشر جميعًا جاهلين بأسباب الظواهر التي يتعاملون معها، وتحكم البشر جميعًا رغبة في البحث عن المفيد، ويخترق الحاجة المفيدة عقل قاصر يلقي بالإنسان في أوهام متعددة، منها أن البشر ليس بمقدورهم أن يديروا أمورهم وفق خطة واعية». وقد أصرّ إسبينوزا على أن الخرافة تفسد الأديان، لأن الدين ليس خرافة، قابلاً من الدين الحقيقي قيمةُ التي تعلي شأن الحياة، ونراه يصر على إرجاع الخرافة الدينية إلى الجهل بقوانين الطبيعة، وإلى أغراض سياسية، إذ أن كل خطاب ديني حسب رأي إسبينوزا هو خطاب سياسي، غايته الطاعة والخضوع.

ويرى إسبينوزا أن الدين الذي يتأسس على الجهل والعبودية ينطوي على

حالات كثيرة من التعسف والإرهاب، بسبب إصرار رجال الدين على أن يحتكروا الحقيقة لوحدهم، وهو يرى أن ثنائية الجهل والإرهاب الديني تمنع الفيلسوف عن التفلسف، وتقمع كل العقول الحرة التي تتطلّع إلى المعرفة، ولهذا يمثّل الدفاع عن الفلسفة عند إسبينوزا دفاعًا عن حرية التعبير، وهو أيضًا يتحوّل إلى إقامة دولة تنقض الخرافة بالفلسفة، وتستبدل الوعظ الديني بتسامح المعرفة. وينتهي إسبينوزا إلى أمرين ضروريين؛ الأول ضرورة تحرير الإنسان من سلطة رجال الدين، والثاني ضرورة تحرير الدولة من السلطة الدينية.

***

الخوف الخرافي

يحذّرنا إسبينوزا من الخوف الذي تشيعه الخرافة في المجتمعات، ووجد أن مهمة الفيلسوف هي محاربة هذا الخوف الذي أطلق عليه صفة «الخوف الخرافي»، لأنه يسلب الإنسان وجوده الحقيقي الذي يليق به في الحياة. وإذا كان المعلم ديكارت قد اصطدم بالقيود الدينية وهو يدافع عن حرية الفكر الإنساني، فإن إسبينوزا واجه مؤسسات الدين مطالبًا بمجتمع إنساني حر، مطالبًا بإعلاء شأن إله حقيقي يتآلف مع المعرفة والتسامح ولا يروّع أحدًا، وطالب أيضًا بتقصير المسافة بين المتدين العاقل والفيلسوف عن طريق دين يصوغه الفلاسفة، دين يأخذ بمبادئ الأخلاق ويرى الله مرجعًا للفضيلة والإحسان، لا مرجعًا للحساب والعقاب. ومثلما اشتهر ديكارت بمقولته الفلسفية: «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، قال إسبينوزا: «أنا أعبّر عن نفسي بحرية، إذن أنا موجود»، مصرًا على أن دينًا ينهي عن التفكير ويسوغ العبودية والخرافة، لا علاقة له بالله، ولا ضرورة له مطلقًا.

ويرى فريدريك كوبلستون في موسوعته عن تاريخ الفلسفة أن ديكارت

يصالح رجال الدين، وإسبينوزا يثير الناس ضد رجال الدين وضد الأنظمة القائمة. ويعتبر كوبلستون ديكارت محافظًا وإسبينوزا تقدميًا، ويرى أن إسبينوزا يستغلّ دعوة ديكارت إلى تطبيق المنهج العقلي أحسن استخدام، فإذا كان ديكارت يرى أن العقل هو العدل، فإن إسبينوزا كان يرى أن العقل هو أفضل شيء في الوجود، وأن خير الإنسان هو في كمال العقل.

***

المبادئ الستة للدولة العادلة

كان الغرض الثاني من رسالة إسبينوزا (في اللاهوت والسياسة) بعد الغرض الأول الذي كان يدور حول الدين هو التأكيد على أن حرية التفكير هي شرط لتحقيق الدولة العادلة، إذ يرى إسبينوزا أن حرية الفكر تمثّل دعامة للرأي العام. ويرى أن الرأي العام هو الراصد لكل ما يحدث في الدولة، فإذا قضي على حرية الفكر قضي على الرأي العام وأصبحت الدولة بلا دعامة حقيقية، فنرى الحاكم يفعل ما يشاء، وتفعل أجهزة الحكم ما تريد دون محاسبة. لذلك يصر إسبينوزا على أن الدولة يجب ألا تتدخل في الحريات الفردية، لأن ذلك يعرّض الدولة للخطر. فالحرية هي حق طبيعي للأفراد، وكل فردٍ حر بطبيعته، وكل فرد هو الضامن لحريته، والدولة هي الممثلة لسلطة الأفراد الذين خوّلوا لها حقهم بموجب عقد اجتماعي، لذلك لا يحق لها سلب الأفراد حريتهم وإلا تحوّلت إلى نظام ديكتاتوري استبدادي، ينصر البعض ويعادي البعض الآخر. وهو يرى أن مهمة الدولة في وضع التشريعات لضبط أفعال البشر، لا أقوالهم أو أفكارهم، فللمواطن الحق في أن يعبد الله كما يشاء، وله الحرية في أن يتصوره كما يريد، وألا تقطع رقاب الناس لمجرد أقوال أو تصورات لا تؤمن بها الدولة أو القائمين عليها، ولا تتطابق مع رؤية رجال الدين.

ويلخّص إسبينوزا تصوّره لحرية الأفراد في المبادئ الستة التي وضعها في كتابه (رسالة في اللاهوت والسياسة) وهي:

١. لا يمكن سلب الإنسان حرية التفكير والتعبير.

٢. لا يهدد الاعتراف بالحرية الفردية هيبة السلطة.

٣. لا يمثل التمتع بالحرية الفردية أي خطر على سلامة الدولة.

٤. لا تهدد الحريات الإيمان بالأديان.

٥. لا تستطيع القوانين تنظيم شؤون الفكر.

٦. ضرورة الحرية الفردية للمحافظة على السلام.

يرى إسبينوزا أن النظام الديمقراطي هو النظام الكفيل بحماية الحقوق الطبيعية للأفراد في الدولة الديمقراطية، وأن جميع الناس يتفقون على العمل بإرادة مشتركة لكنهم لا يتفقون على أن يفكروا بطريقة واحدة، وإذا شاء الإنسان أن يعيش آمنًا راغدًا في مجتمع منظم يستهوي بنور العقل، وجب عليه أن يخضع لقواعد العدل ويتجنب الأهواء الظالمة.

***

فيلسوف التنوير الأول

يجمع مؤرخو الفلسفة على أن إسبينوزا هو فيلسوف التنوير الأول، قبل أن تظهر حركة التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر. فهو الذي عاش قبل مئة عام من ظهور فولتير وروسو كان قد واجه رجال الدين وسلطة الدولة في ظروف أشد صعوبةً وخطورةً. لقد تجرأ إسبينوزا على نفي الطابع الخارق للمقدسات، في وقت كان فيه رجال الدين يسيطرون على أوروبا، ومع ذلك تجرّأ هذا الرجل المنبوذ من قومه، لأن يقول بوضوح بأن الكتاب المقدس

له طابع تاريخي وبشري أيضًا، ويصرّ على نفي المعجزات، ولا يعترف إلا بما يمليه العقل على الإنسان، كل ذلك في كتاب لم يتجرأ ناشره وكاتبه على وضع أسمائهم الحقيقية عليه، كتاب مثّل ثورة في تاريخ الفكر البشري، ثورة دشّنت العصور الحديثة ومهّدت لها. وكما قال آينشتاين أن: «رسالة إسبينوزا في اللاهوت والسياسة كانت دليلي إلى النظرية النسبية».

***

ما الذي يجب أن تقرأه لباروخ إسبينوزا؟

- رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم: د. حسن حنفي.
- علم الأخلاق، وترجمة: جلال الدين سعيد.
- رسالة في إصلاح العقل، ترجمة: جلال الدين سعيد.

وماذا بعد عن مصادر إسبينوزا في العربية؟

- إسبينوزا، تأليف: فؤاد زكريا.
- إسبينوزا ومشكلة التعبير، تأليف: جيل دولوز، وترجمة: أنطوان حمصي.
- حياة إسبينوزا من الطائفة إلى الدولة، تأليف: د. عبد القادر جموسي.
- إسبينوزا واللاهوت، تأليف: منذر الشيباني.
- عصر العقل فلاسفة القرن السابع عشر، تأليف: ستيوارت هامبشر، وترجمة: د. كاظم الطحان.
- إسبينوزا والسياسة، تأليف: إتيان باليبار، وترجمة: منصور القاضي.

-14-
أنا أُجرِّب.. إذن أنا موجود

في العام ١٩٠٠، وصل إلى باريس مدرس الفلسفة هنري لويس برجسون ليلقي أولى محاضراته في الكوليج دي فرانس. كان في الحادية والأربعين من عمره، وكانت باريس آنذاك تبحث عن الرمز الثقافي، وكان الأستاذ الأربعيني بجبهته العريضة وعينيه اللامعتين ملائمًا جدًا لهذا الدور، كان قد أصدر عملين؛ الأول أطروحته الجامعية (بحث في المعطيات المباشرة للوعي)، والثاني كتاب (المادة والذاكرة)، أخذ يلقي محاضراته كل يوم جمعة، وقد اجتذبت جمهورًا كبيرًا، لا من الطلاب فقط بل من السيّاح ورجال الدولة وسيدات المجتمع. يصف لنا أندريه جيد محاضرات برجسون بالقول: «كان من سَحرة الكلام، وكان يبلغ الكمال في ارتجاله، كما كان يأسر القلوب والأفهام في اعتداله. وكنت تجد في محاضراته متسعًا من الأفكار الأكثر جرأةً، والشروح الأكثر دقة». الجميع من الذين كانوا يستمعون إلى هذا الأستاذ صاحب النبرة الواضحة، أخذوا يدركون أن تغيرًا ما سيحصل في الحياة الثقافية والفلسفية في فرنسا.

كانت باريس المتمردة والرومانسية قد روّجت لمصطلح «نهاية القرن» في وصف أجواء نهاية القرن التاسع عشر: «اليأس العقيم لرجل مريض». وكان برجسون قد خاض في نهاية القرن صراعًا مع الأفكار السائدة في الفلسفة، ليجعل من نفسه بطلاً لأسلوب أرقى في فهم العالم المحيط بنا، والذي

يقوم على الحدس والغريزة، والذي أطلق عليه برجسون تسمية «الوثوب الحيوي». كان العقل التجريبي آنذاك هو خادم الغريزة وليس سيدها وكان عالم مجتمع القرن التاسع عشر الصناعي والعلمي، يتطلب القوة الدافعة للوثوب الحيوي الخالد للطبيعة. وأعلن برجسون أن الوثوب الحيوي يتدفق بقوة متخللاً الحياة، مثل موجة عالية توقظها إمكانية كثيرة كامنة تنساب عبر الأجيال، وتوزّع نفسها بين الأفراد.

أراد برجسون أن يحتفي بتجربة الفرد التاريخية الذكية والنشطة، كتغير مستمر للماضي الذي يشقّ طريقه في المستقبل: «إن المستقبل يتبعنا في كل لحظة، وكان لا بد أن يكون شعار حركة برجسون: «أنا أجرب، إذن أنا موجود».

***

معنى الأمل

على مشارف الحرب العالمية الأولى كان برجسون هو المعلم الأشهر لجيل من الطلاب الفرنسيين، حيث وجدوا في حيويته وسيلة لطرد التشاؤم بخصوص الانحلال والانهيار الثقافي، هذا الجيل الذي أطلق عليه «جيل ١٩١٢». كانت السمة المميزة له هي صنع النظام والانسجام في كل شيء، وكان بطلهم برجسون يصف ظهورهم بأنه معجزة تطورية وتحوّل غير مسبوق في الطبيعة الإنسانية، أما هم فكانوا مثل بطلهم ينفثون التفاؤل والعزم والأمل في كل ما يضعون أيديهم عليه. لكن كل هذه الآمال تحطمت بقسوة خلال الحرب العالمية الأولى، وكثير من أبناء هذا الجيل المتفائل تحوّلوا إلى طبقة ثقافية مكسورة ستهرب إلى الدادائية والسريالية. كان أندريه برتون قد أعلن: «لم نقل كلمتنا الأخيرة بعد، سوف يختفي أكثر من شعب قبل أن نختفي». فتحت باريس الباب أمام شكل فرنسي من التشاؤمية الثقافية،

وكان آراغون يعلن بكل فخر: «نحن انهزاميو أوروبا».

أما برجسون فقد أعدّ المسرح لما هو قادم بإعلائه من شأن الغريزة على الذكاء، ومن شأن التجربة الحيوية على القيم والعادات الاجتماعية. وحين يتساءل الطلبة: «أيستطيع أحد أن يؤمن بالتقدم والمدنية إزاء ما يجري من أحداث؟» يجيب برجسون بصوت هادئ: «إنكم الآن مكدودون وقد حرمتم الأمل، لا تفزعوا، لقد كنت أنا أيضًا مكدودًا ذات يوم، ثم تكشف لي حين بغتة معنى الأمل».

***

أستاذ الفلسفة

في شتاء ١٩٤١، تسلّل موريس ميرلوبونتي، الذي كان أشدّهم تقديرًا وإعجابًا بأفكار برجسون، إلى الضاحية الشمالية من باريس ليلقي نظرة أخيرة على هنري برجسون. كان الفيلسوف الذي عاش واحدًا وثمانين عامًا، قد آثر العزلة في سنواته الأخيرة، وأقعده المرض عن الحركة. لاحظ ميرلوبونتي الطبعة الجديدة من كتاب (منبعا الأخلاق والدين) الذي أصدره برجسون بعد ربع قرن من الصمت، وقد أحدث الكتاب ضجة في صفوف الفلسفة الفرنسية، التي اعتقد مريدوها أن صاحب المادة والذاكرة قد خبا نجمه. مات برجسون في ظل الاحتلال الألماني لفرنسا، ولم يسر في جنازته سوى عدد من أفراد عائلته، وكان قد أوصى بعدم إقامة طقوس دينية له. فقد أعلنت زوجته أنه رفض حتى آخر لحظة استقبال أحد رجال الدين.

ولد في ١٨٥٩، في نفس العام الذي ولد فيه زميله الأميركي جون ديوي، وقد تأثّر كلاهما بوليام جيمس مؤسس الفلسفة البراغماتية، والذي لعب دورًا كبيرًا في تعريف برجسون لقرّاء اللغة الإنكليزية، وقد كان من عادة

الفيلسوف الأميركي أن يقول لتلامذته: «اقرأوا هنري برجسون، ستجدون في كل صفحة من صفحاته، لا بل في كل سطر من سطوره أفقًا جديدًا، فكأنكم تشعرون بنسمات الصبح أو تسمعون تغريد الطيور، وكأن اللغة التي يكلّمكم بها هي لغة الحقيقة والوجود، لا لغة التعليم التي ينقل غبارها إليكم طائفة من الأساتذة الذين تعوّدوا أن يغربلوا أفكار غيرهم». وكتب جيمس مرةً إلى أحد أصدقائه يصوّر له أثر كتاب برجسون (التطور المبدع) في نفسه: «لقد تراءى لي كل كتاب هزيلاً من فرط روعة هذا الكتاب الجيد، أو الفجر الإلهي المنبثق.. إن برجسون إنما هو فخر الإنسانية وعنوان مجدها الخالد».

كان والده طبيبًا وأمه ثرية ومثقفة، وابتلي بمرض الهُزال طفلاً. أحبّ الأدب والفن والموسيقى كوالدته. افتتن بفلسفة هربرت سبنسر، ورأى في نظريته عن التطور تفسيرًا جديدًا للمادة والحركة، وبأنهما صورتان لقوة الحياة في تركيباتها المختلفة. جذبته علوم الرياضيات، وكان أساتذته مندهشين لقدرته الفائقة على حل المسائل الرياضية، فكان بعضهم يتنبأ له بمستقبل باهر في مجال العلوم الرياضية، لكن برجسون شعر منذ صباه بميل شديد نحو الفلسفة، فلم يتجه في دراسته العليا نحو كليات العلوم، بل التحق بمدرسة المعلمين ليتخصص في الفلسفة. فتتلمذ على يد إميل بوترو الذي كان في ذلك الحين أستاذ الفلسفة الأول بلا منازع في فرنسا، ولم تشغله دراسته للفلسفة عن ممارسة هوايته في قراءة الأدب والرواية، إلا أن نقطة التحول الأولى التي حصلت في حياته كانت عندما وقع في يده كتاب هربرت سبنسر (المبادئ الأولى)، فوجد في الفلسفة القول الحق الذي اطمأنّت إليه نفسه، حتى إن زملاءه في الدراسة كانوا يعدونه ماديًا متطرفًا:

«من الناحية الذاتية، تراني غير قادر على منع نفسي من أن أعزو أهمية فائقة

إلى التغيير الذي طرأ على طريقة تفكيري خلال العامين التاليين لتخرجي في مدرسة المعلمين العليا. فلقد بقيت حتى ذلك الحين معتصمًا بالنظريات الآلية التي انسقتُ في تيارها منذ وقت مبكر، تحت تأثير قراءاتي لمؤلفات هربرت سبنسر».

وربما كان السر في إعجابه بهربرت سبنسر هو أنه وجد لديه ما لم يجده عند غيره من فلاسفة ذلك العصر؛ ألا وهو الاهتمام بالوقائع الجزئية والحرص على دراسة الواقع بكل تفاصيله، والانصراف إلى تلمّس آثار التجربة، وقد ظلّ برجسون طوال حياته شديد الإحساس بالواقع، كثير التعلق بالعيني والتشخيصي، حريصًا دائمًا على التمسك بالتجربة.بعد أن حصل على الشهادة العليا عام ١٨٨١، تم تعيينه أستاذًا للفلسفة بدار المعلمين. وفي تلك المرحلة تفرّغ لدراسة الفلسفة اليونانية، واهتمّ بها كُتب عن الزمان والحركة وعلاقتها، فنشر عام ١٨٨٩ كتابه الأول (بحث في المعطيات المباشرة للوعي)، وهو الكتاب الذي عالج فيه مشكلة الحرية الإنسانية في ضوء حركة الزمان. وقد استطاع بهذا الكتاب أن يلفت إليه الأنظار، فتم استدعاؤه للتدريس في معهد هنري الرابع، بعدها عكف على دراسة بعض الظواهر الشعورية وعلاقتها بالإنسان، مثل الإدراك الحسي والذاكرة، ليصدر عام ١٨٩٧ مؤلَفه الثاني (المادة والذاكرة)، فعُيِّن بعدها بثلاثة أعوام أستاذًا للفلسفة في الكوليج دي فرانس، وانتخب عام ١٩٠١ عضوًا بأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، ثم عضوًا بالأكاديمية الفرنسية. وفي عام ١٩٠٧، أصدر مؤلفه الشهير (التطور المبدع) فقدّم أول نقد لفلسفة التطور خالف فيها آراء أستاذه هربرت سبنسر، وبيّن من خلاله صلة الغريزة بالعقل: «لاحقًا، ولشدة دهشتي، أدركت أن الزمان العلمي، أي الزمان الحقيقي، لا يتصف بالديمومة، وأنه ما كان لشيء في أوقاتنا العلمية أن

يتبدّل لو أن مجموع الواقع قد انقضى في ومضة. لقد كانت هذه النقطة إشارة البدء لسلسلة من التأملات التي دعتني، درجة درجةً، إلى نبذ كل ما كان من قبلي حتى الآن وإلى إحداث تبديل في وجهة نظري لأودّع معلمي الأول هربرت سبنسر». ثم نشبت الحرب العالمية الأولى، فانطوى برجسون على نفسه، وراح يفكر في الدلالة السيكولوجية للحروب، فأصدر عام ١٩١٥ مؤلفه (معنى الحرب). وفي هذا الكتاب يتساءل عن مصير الإنسان ومعنى التقدم، ويعرب عن ثقته في انتصار القيم الروحية والقوى الأخلاقية ضد قوى الشر والانحلال، كما كان ينادي بالعدالة والحق والحرية ضد أنصار الظلم والعدوان. وعلى إثر انتهاء الحرب، عُيِّن برجسون رئيسًا للجنة التعاون الفكري التابعة للأمم المتحدة، وفي سنة ١٩٢٨ حصل على جائزة نوبل للآداب تقديرًا للخدمات الفكرية التي قدمها للإنسانية، وتوقف عن الكتابة بسبب المرض وضعف البصر، لكنه أصدر عام ١٩٣٢ كتابه الضخم (منبعا الأخلاق والدين)، الذي أحدث ضجة كبرى في الأوساط الفلسفية العالمية حتى إن جون ديوي وصفه بـ «دستور الفلسفة في القرن العشرين».

***

هناك اتفاق على أن هنري برجسون يُوضع مع جون ديوي ووليام جيمس بين فلاسفة القرن العشرين الأكثر شهرة، والأهمية الكبرى لهؤلاء تعود إلى العدد الكبير من أتباعهم وتلاميذهم. فقد تأثر ببرجسون كل فيلسوف ومربٍ في فرنسا إلى حد ما، على الرغم من أنه لم يستطع أن يحوّل الغالبية من المشتغلين في الفلسفة إلى فلسفته هو.

ولعل مؤرخي الفلسفة الذين رأوا أن هنري برجسون هو الأكبر بين الفلاسفة الفرنسيين من أبناء جيله محقّون، وبخاصة لأنه في ذلك الزمن -عند بدايات القرن العشرين- كان أكثرهم سيرًا على عكس التيار وكان

يُعتبر بالنسبة إلى الكثيرين أكبر فيلسوف عرفته فرنسا خلال الفترة الانعطافية بين القرنين التاسع عشر والعشرين. ويخبرنا عبد الرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية أن برجسون، مثل سارتر، كانت أعماله الفلسفية ولا تزال تُقرأ كقطع أدبية ممتعة.

ولعله في كتابه الشهير (التطوّر المبدع) اتخذ مذهب التطوّر كأساس نهائي لاتجاهه الفلسفي. ولكنه على عكس ما قدمه هربرت سبنسر يحاول:

«أن يؤوّل التطوّر تأويلاً روحيًا، في الوقت الذي كان أنصار نظريات التطور أنفسهم يقدّمون تفسيرات ميكانيكية آلية ومادية. ذلك أن برجسون زعم أن أصل التطوّر إنما كان اندفاعة حيوية انطلقت من شعور معين، أو بالأحرى من ما - فوق - شعور حاول التغلب على العقبات التي واجهتها المادة لكي يجعل منها أداة للحرية. وأعاد بالتالي وضع الإنسان في سلسلة المخلوقات الحيوانية واجدًا مفتاح تركيبه العقلي في جهازه العضوي الحيوي. لكنه هنا سرعان ما عاد للتفريق بين الإنسان والحيوان تفرقة جذرية، فاتحًا أمام الإنسان منظورات تطوّر روحي حقيقي». عبد الرحمن بدوي، (موسوعة الفلسفة)

ولهذا يخبرنا برجسون أنه ليس في الكون مخطط محدّد سلفًا كما الحال لدى أصحاب النزعة الغائية، وليس ثمة ما هو متوقع كما يقول أصحاب النزعة الآلية. فالتطور يأتي مباغتًا، في عالم يُختَرَع ويُعاد اختراعه دون هوادة. وبالتالي فإن برجسون يقرّ بوجود قوة خلاقة أنشأت الكون لتكون ذات فعل حاسم في تطوّره، مؤكدًا في الوقت نفسه أن ثمة في الكون ما هو أعلى من العقل، الذي هو مجرد أداة للفعل وهو الوجدان أو الحدس القادر وحده على فهم الحياة وإدراك ما هو متغيّر في الديمومة الزمنية.

ويمدنا برجسون في كتابه (منبعا الأخلاق والدين) بفلسفته الخاصة عن

التطور التي يرجعها إلى هذين العنصرين «الأخلاق والدين». ففي الإنسان يوجد دافع غريزي نحو التعاون الاجتماعي وهو حسب رأيه يأتي من الله، ومع ذلك عندما حصل الإنسان على العقل أو الذكاء في البداية كان هناك خطر شديد وهو أن تجعله قوته العقلية أنانيًا إلى حدٍ كبير، وأن يستخدم عقله المكتسب حديثًا لأغراض فردية تضرّ المجتمع، وتناقض أغراض الدفعة الحية. ولمنع هذه الكارثة، قامت الطبيعة بدفع الأفراد إلى الشعور بأنهم يواجهون إرادة المجتمع، تلك الإرادة التي يُعبر عنها بالعادات والتقاليد والمحرمات التي يشعرون أنهم مجبرون على الخضوع لها. وقد نشأ فيما بعد خطر مضاد للتطور البشري، إذ أصبح ثقل العادات والمحرمات مسؤولاً عن تقاعس الجنس البشري عن طريق قصورها وقسوتها، وهدّدت الحرية بالضياع وأصبح التقدم مستحيلاً. ويعتقد برجسون أن الدين لو وُظّف بشكله الصحيح لاستطاع أن يعمل كثيرًا لتعزيز تقدم البشرية، وهو يرى أننا بحاجة إلى مجتمع أكثر روحانية، ذي قيم اجتماعية عادلة وديمقراطية، مجتمع يخلو من الحروب والمنازعات، مجتمع تستطيع البشرية أن تعيش فيه بحب وإنسانية، وأن الإنسان يستطيع أن يبلغ حياة أفضل في هذا العالم لو أنه بذل المزيد من الجهد الإنساني الضروري.

ويرى برجسون أننا لو أثبتنا أن الإنسان حر لبدت نظرية داروين في التطور في ضوء جديد. فالإنسان ليس ألعوبة في يد التنازع المادي القاسي لقانون «البقاء للأصلح»، فالحياة ليست نتاج قوانين آلية، وهي ليست كالنهر يجري بقوة ليدفع الإنسان أمامه في طريق التطور، والقوة الدافعة ليست خارجة عن الإنسان، بل هي في داخله. «إن الحياة فنان يعمل من تلقاء نفسه»، فهي تبشّر في كل لحظة بأنها ستزدهر وتغدو شيئًا لم يخطر في البال، إنها تنبع من حقيقة رائعة، «إن جوهر حياة الإنسان الخلاقة هو الله» والحياة

تدفع إلى الأعلى، «فالحيوان يسمو على النبات، والإنسان يبسط سلطانه على الحيوان والبشرية كلها مكانًا وزمانًا، جيش واحد ضخم يركض بجانب كل منّا، وأمامه، وخلفه، في حملة جانحة قادرة على دكِّ كل مقاومة وإزالة كل عقبة».

***

البحث عن الزمن المفقود

اهتم برجسون بتحديد مفهوم للزمن وهو يقول: «ماذا عسانا أن نكون في الواقع، أو ماذا عسى أن يكون طبعنا، إن لم تكن تلك الحصيلة المركزة التي تجمعت من تاريخ حياتنا السابقة، منذ ولادتنا حتى الآن، إن لم نقل قبل ولادتنا، ما دمنا نحمل معنا ميولاً وراثية أو استعدادات سابقة على الولادة؟» ثم يستطرد صاحب كتاب (التطور المبدع) فيقول: «صحيح أننا لا نفكر إلا بجزء ضئيل من ماضينا، ولكننا نرغب، ونريد، ونعمل بماضينا كله، مع ما ينطوي عليه من اتجاه أصلي قد اتخذته نفوسنا منذ البداية. وإذن فإن من شأن ماضينا أن ينكشف لنا بأكمله من خلال قوته الدافعة على شكل ميل أو اتجاه، ولو أن جانبًا ضئيلاً منه فقط هو الذي يستحيل إلى تصور عقلي»

ولكن برجسون لا يقتصر على القول بأن من شأن الماضي أن يظل حيًّا باقيًا في الحاضر، بل هو يقرر أيضًا أن من المحال للشعور أن يمر بنفس الحالة مرتين، وذلك لأنه مهما تكن الظروف متشابهة، أو مهما تكن الملابسات واحدة، فإنها لا تؤثر مطلقًا على شخصية واحدة بعينها، مادامت تعرضت لها في لحظة جديدة من لحظات تاريخها. ولما كانت شخصيتنا في تكون مستمر، لأنها تبني ذاتها في كل لحظة، مستعينةً بما تجمّع لديها من تجارب، فإن شخصيتنا في تغيّر دائم دون أدنى توقف أو انقطاع. وهذا هو السبب في أنه لا يمكن أن تتكرَّر في أعماق شعورنا حالة نفسية واحدة، حتى لو بَدَا لنا -لأول

وهلة- أننا بإزاء ظاهرة واحدة بعينها.

وحين يقول برجسون إن حياتنا الزمانية متجددة لا تقبل الإعادة، فهو يعني بذلك أنه ليس في استطاعتنا أن نعيش من جديد أدنى جزء من أجزاء حياتنا، ولكن استحالة الإعادة -في رأي برجسون- ليست إلا نتيجة لبقاء الذكريات حيّة في باطن الشعور: «إذ تتوالى الحالات النفسية في مجرى الشعور، مكتسبة في كل مرة صبغة جديدة، نتيجة لذكرى الحالات السابقة المختزنة من ذي قبل في صميم الوعي، وبذلك نجد أنفسنا دائمًا إزاء لحظة جديدة أصيلة من لحظات تاريخ حيّ متجدد لشخصية متطورة نامية».

هذه النظرية عن الزمن التي ابتدعها برجسون كان لها تأثير كبير على عدد من أبرز كتّاب زمانه، ومنهم مارسيل بروست، حيث يؤكّد نقاد الأدب أن (البحث عن الزمن المفقود)، وهي رواية بروست الأساسية، ليست في نهاية الأمر سوى تطبيق أدبي لنظرية برجسون حول مفهوم الزمن.

***

ما الذي يجب أن تقرأه لهنري برجسون؟

- الأعمال الفلسفية الكاملة، ترجمة وتقديم: سامي الدروبي.
- الضحك، ترجمة: د. علي مقلد.
- بحث في المعطيات المباشرة للوعي، ترجمة: الحسين الزاوي.
- التطور المبدع، ترجمة: جميل صليبا.

وماذا بعد عن مصادر برجسون في العربية؟

- برجسون، تأليف: الدكتور زكريا إبراهيم.

- المذهب في فلسفة برجسون، تأليف: الدكتور مراد وهبه.
- برجسون في سلسلة تراث الإنسانية، تأليف: الدكتور عثمان نويه.

-15-

عندما تولد حياة جديدة من رماد الحضارة

«إنه يوم حزين»، كتب أوزفالد شبنجلر في دفتر يومياته، وهو يسمع خبر وفاة فيلسوف ألمانيا الأكبر فريدريك نيتشه. كان في العشرين من عمره يدرس في الجامعة ويستعد لتقديم أطروحته عن هيرقليطس الذي كان معجبًا بفلسفته، لكنه في الثانوية كان قد التهم معظم كتب نيتشه التي وجد فيها، مع صديقه توماس مان، تعبيرًا عن أزمة الإنسان المعاصر وقال عنها: «إنها أفضل ما كُتب باللغة الألمانية».

كان نيتشه قد تنبأ بانفجار حروب فظيعة سوف تعصف بالناس، حروب لا مثيل لها في الأرض، هذا هو مصير الناس في القرن القادم: «عرض وطلب، ومن يستطيع أن يكون شجاعًا سينتصر، وسوف يعمّ النور في كل مكان، وابتداءً مني ستكون هناك سياسة عظيمة، وما أقوله سيكون تاريخ القرنين القادمين».

***

هذا هو نيتشه

عام ١٩٨٩ خرج نيتشه من بيته، وكان مريضًا ومحبطًا، شاهد سائق عربة يضرب حصانه بقوة فهرع إليه، الفيلسوف المريض كان يصرخ مدافعًا عن هذا الحيوان المسكين، وفجأة سقط مغشيًا عليه، فحمله بعض المارّة إلى

المصحّة، فحصه الأطباء فشخّصوا الحالة بأنها تدهور عقلي خطير، وتقرّر احتجازه في المصحة، إلا أن الأم وشقيقته قررتا أن ينقلاه إلى منزلهما، حيث احتجز تحت المراقبة الدقيقة. الأطباء شخّصوا حالته بداء جنون العظمة، حيث كان مصرًا على أنه القيصر، وازدادت نوبات الصراخ. كان يعتقد أن حجزه في البيت جاء بأوامر من بسمارك شخصيًا، وفي أحد الأيام حطّم النافذة ليهرب، واستمرت نوبات الغضب والصراخ إلى أن مات عام ١٩٠٠. كانت إليزابيث فوستر، شقيقة نيتشه، شديدة الاهتمام بتراثه، كرست نفسها لرعاية شقيقها المريض ولتصبح الوصية عليه، وكانت مصممةً على ألا تترك فلسفة شقيقها لتكون عرضة للنسيان، مقتنعة أن السنوات القادمة هي سنوات نيتشه، ولهذا قررت بعد وفاته بخمسة أعوام أن تؤسس متحفًا وأرشيفًا لأعماله، كانت إليزابيث مصممة على أن تجعل الجميع يعترفون بشقيقها كأكبر عقلية فلسفية أنجبتها ألمانيا.

في عام ١٨٩٦، وصف الروائي الشهير توماس مان كتابات نيتشه بأنها ثورة فكرية على درجة كبيرة من الأهمية مثل نظرية كوبرنيكوس، فيما يكتب شبنجلر في يومياته: «كانت الصحراء تحيط بنا، وفجأة ظهر نيتشه مثل نبع أخضر»، هكذا أصبح نيتشه، بشاربه الكث ونظراته المجهدة، هو الملصق الذي يعلّقه الجيل الجديد من أدباء العالم ومفكريه، فكتب هيرمان هيسه يقول: «لقد أعاد نيتشه تقييم كل القيم التي كنا نؤمن بها». وفي لندن يستلهم برنارد شو أفكار الفيلسوف الألماني في مسرحية بعنوان (الإنسان والسوبرمان)، والتي أثارت اهتمام شبنجلر فكتب مقالاً عنها. هذا هو نيتشه الذي أصرّت شقيقته أن تطلق عليه لقب «نبي ألمانيا» وهو الذي سيلهم شبنجلر ويشكّل رؤيته عن الغرب ويحفّزه ليضع أهم كتبه (تدهور الحضارة الغربية). كان شبنجلر يرى أن الحضارة الغربية في طريقها إلى الاندثار:

«لكن اندثارها هو أيضًا إيذان بفجر جديد قادم، ستقوم أوروبا جديدة حتمًا»، هكذا كتب لصديقه توماس مان، ليس على أساس القوى القديمة في فرنسا وبريطانيا والتي يرى شبنجلر أنها متفسخة، وإنما عن طريق ألمانيا التي ستجمع بين الثقافة والانضباط العسكري وإرادة القوة النيتشوية، سيتدفق دم كثير حتمًا، هكذا كتب شبنجلر وهو يرى الحرب العالمية الأولى تشتعل، لكن حتى بعد هزيمة ألمانيا فإن شبنجلر كان يؤمن أن الجنس الألماني يواجه مهمة صعبة، لكنه ندّ لها وسينتصر.

***

طفولة كئيبة

ولد أوزفالد شبنجلر عام ١٨٨٠، أمضى طفولة كئيبة مع أبوين متخاصمين، يقول: «كان والدي باردًا عاطفيًا حتى تجاه أولاده، أما والدتي فكانت تعاني من أرق لا ينتهي». وفي محاولة للابتعاد عن هذا العالم الكئيب انطوى على نفسه، ليمارس هوايته في القراءة التي استمدّها من مراقبة عمِّه الصغير الذي كان يسميه «دودة كتب». بعد وفاة نيتشه بثلاثة أعوام توفي والده: «في وقت متأخر من الليل، عاد والدي من جولة من جولاته اللامعقولة في المدينة بحثًا عن عمل جديد، في ظلّ الأزمة الاقتصادية، انهار والدي أمام الباب. سمعت والدتي الأنين لكنها لم تكن تتوقع أنه صادر من الرجل الذي قضى عمره يخاصمها عاطفيًا، وحين فتحت الباب بعد ساعات كان قد توفي جراء نوبة قلبية داهمته، كان في السابعة والخمسين من عمره. بعدها تغيرت حياة أمي ولم تسامح نفسها إلى أن ماتت بعده بعامين. وقد كتبت لي قبل رحيلها: هناك شيء انكسر في داخلي».

كان شبنجلر يكن إعجابًا شديدًا لريتشارد فاجنر الذي سيطر على تفكيره في تلك الفترة، وفي العام ١٩٠١ أكمل دراسته الجامعية، وفي هذا

العام نفسه نشرت شقيقة نيتشه كتاب (إرادة القوة)، وهو الكتاب الذي شنّ فيه الفيلسوف الراحل هجومًا لاذعًا على المجتمع البرجوازي الذي كان يراه يتفسخ. كان نيتشه يريد أن يقولها بصراحة أن هذا المجتمع يجب أن يزول وأن: «إرادة القوة يمكن أن تكون مثل مطرقة قوية تكسر وتزيل الأجناس المنحلة والمتفسخة لإفساح الطريق أمام نظام حياة جديد». ويكتب شبنجلر إلى أستاذه جورج سيمل: «قرأت كتاب نيتشه، إنه يريد لنا السيادة على الأرض كوسيلة لإنتاج نوع أرقى». ويأتي جواب الأستاذ واضحًا: «المطلوب من أجل إنقاذ العالم هو عصيان متمرد من الأبناء على الآباء»، هذه الصورة أوحت لتوماس مان أن يكتب روايته الأولى (أسرة بودنبروك) التي تتحدث عن سقوط المجتمع البرجوازي.

بعد حادثة وفاة أبيه حلّت بشبنجلر كارثة شخصية، فبعد أن أنهى دراسته في الفلسفة من جامعة ميونخ ذهب إلى جامعة برلين لاستكمال أطروحة الدكتوراه، وعندما تقدّم بها خذلته لجنة المناقشة ولم تمنحه الشهادة، وكان السبب هو أن الرسالة تفتقر إلى المصادر وأن شبنجلر طرح فيها آراءه الخاصة. كان موضوع الرسالة عن الأثر الذي تركه هيرقليطس على الفكر العالمي، وعلى إثرها أصيب شبلنجر بانهيار عصبي رافقه لمدة عام كامل قضاه بين المصحات الطبية، بعد ذلك عيّن مدرسًا في إحدى المدارس المحلية. وبعد خمس سنوات غير مجدية في التدريس، قرّر شبنجلر أن يعود إلى ميونخ ليتفرغ للكتابة، في ذلك الوقت كانت ميونخ مركزًا للحياة الفكرية في ألمانيا، هناك التقى ثانية بصديقة النيتشوي توماس مان، كانت روايته الأولى (أسرة بودنبروك) قد حققت نجاحًا هائلاً، وحدّثه عن روايته الجديدة التي ستصدر قريبًا (موت في البندقية)، وكان هناك الرسام بول كيلي الذي أرشد شبنجلر إلى لوحات فان كوخ الذي انتهى به الحال إلى أن يدخل مصحة في نفس

السنة التي دخل فيها نيتشه، وتوفي في نفس السنة التي توفي فيها صاحب «هكذا تكلم زرادشت»، لكن الرسام الهولندي قرّر أن ينهي حياته بيده بعد حالة من اليأس والسوداوية رافقته طوال حياته: «إن صرخة أسى ترافقني أينما ذهبت». وفي عام ١٨٩٠، خرج إلى الحقول التي رسمها في العديد من اللوحات وهو يصرخ: «هذا محال! هذا محال!» وعندما أخذت الشمس تغيب صوّب مسدسه إلى صدره وضغط على الزناد، ومع الرصاصة التي استقرت بالقرب من قلبه انتهى كل شيء: «لقد فعلت ما فيه خير للبشرية». واستهوت مأساة فان كوخ شبنجلر فكتب عنها بحثًا مطولاً بعنوان (إرادة النهاية) مستلهمًا أفكار نيتشه: «الطوفان وحده الذي سيحقق السعادة على الأرض».

***

هكذا ينتهي العالم

بدأ شبنجلر عام ١٩١٢ نشاطًا محموما في مشروع ضخم يهدف إلى إعادة تقييم التاريخ الأوروبي من وجهة نظر نيتشه، كان عنوان الكتاب في البداية (المحافظ والليبرالي)، لكنه وجد ذات يوم عند بائع كتب قديمة مجلدًا بعنوان (تدهور العصور القديمة)، هكذا جاء العنوان الجديد لكتاب (تدهور الحضارة الغربية). كان شبنجلر يؤمن أن الأقدار تخلّت عن الغرب وأن هناك ليلاً أسود سوف يرخي سدوله على معظم أوروبا، الشعور بأن أوروبا تقف على حافة النهاية، والتوق لأوروبا جديدة كان الهاجس لمعظم مفكري ذلك العصر. في تلك الأيام حضر الملازم هتلر مؤتمرًا حاشدًا للحركة الشبابية الألمانية، داعيًا إلى تجديد روح ألمانيا، بينما كان الطلاب الفرنسيون يطالبون بيقظة قومية لتغيير المجتمع الفرنسي.كان الشاعر الإنكليزي ت. س. إليوت وهو في الرابعة والعشرين من عمره يصرخ:

«أرى حشودًا من الناس تدور حول حلقة

هكذا ينتهي العالم

هكذا ينتهي العالم

هكذا ينتهي العالم

لا بِرجّة عنيفة، وإنما بنواح خافت».

وكان توماس مان قد كتب: «نحن أبناء هذا القرن الجديد، على وشك الإقلاع إلى عالم آخر».

كل تلك الآمال والمخاوف دفعت شبنجلر إلى أن يكمل كتابه (تدهور الحضارة الغربية)، وكما أوضح في مقدمة الكتاب: «أريد أن أكتب تعليقًا على تلك اللحظة الحاسمة من الهياج والتوتر، أريد أن أقدّم نظرة جديدة إلى التاريخ وفلسفة المصير».

***

انهيار البرجوازية الأوروبية

عندما بلغ السادسة عشرة من عمره توفي والده، فعمل في إحدى المهن الحرّة، لكن تأليف رواية تروي حكاية عائلته كان هاجسه الأكبر. القصة ستدور عن الصبي هانو ابن العائلة البرجوازية اللامعة بودنبروك. إن هذا الصبي كما يخبرنا توماس مان لم يُخلق لهذه الحياة، هانو سيكون محور الرواية، والأشخاص الآخرون: العائلة، الأقارب، الأصدقاء سيكونون الخلفية والظلال. هانو يشكّل نهاية عائلة، عائلة تحتضر، تُمحى من الأرض، إنه لشيء محزن بالنسبة للذي عاصر ازدهار هذه العائلة وتفتحها، ومصير الصبي هانو هو مصير توماس مان وهو يشاهد ألمانيا تنهار. لن يروي توماس مان

قصة هانو، بل سيبدأ قبلها بكثير، سينقب في التاريخ، سيكون السؤال لماذا يرفض هانو فكرة الاستمرار في الحياة؟ لقد وضع توماس مان لائحة بأسماء الشخصيات، أما صفاتها فسيأخذها من سجلات عائلته، إنه يؤلّف رواية أشبه بالتاريخ. صورة تولستوي يضعها على المكتب يؤطّرها بالزهور وإلى جانبها نسخة من (الحرب والسلم). تحولت غرفته إلى أرشيف لتاريخ ألمانيا، إنه يريد معرفة كل شيء، سمع مثل صديقه شبنجلر بموت نيتشه، كانت الرواية في طريقها إلى النهاية، لكن أسرة بودنبروك لا تريد أن تنهار، إنها تقاوم مصيرها، لكنها تشيخ ببطء، كل مقومات اليأس موجودة.

عام ١٩٠٠ يكتب الصفحات الأخيرة، يقوم بحزمها وإرسالها إلى إحدى دور النشر، في هذه الأثناء يتم استدعاؤه إلى الخدمة العسكرية، إنه لا يحب طريقة الجيش في الحياة، المارشات العسكرية تثير فيه الاشمئزاز، يصاب بالمرض، أشبه بكآبة تخلّلتها حالات من الفرح حين أرسل إليه الناشر رسالة يقول فيها إن الرواية جميلة جدًا لكنها طويلة، ويقترح الناشر اختصارها إلى النصف، اقتراح مرفوض فهو أراد أن يكتب تاريخًا كاملاً لا يمكن اختزاله، قد يكون الناشر محقًا لكنه لن يرضخ لشروطه، لا يمكن الاستغناء عن أية صفحة من صفحات الرواية، ويعفى توماس مان من الجيش بسبب مرضه، الناشر يرضخ أمام إصرار المؤلف لتصدر (أسرة بودنبروك) عام ١٩٠١ مع عنوان فرعي (سقوط عائلة)، ويقرأها الشاعر ريلكه فيكتب في إحدى الصحف: «هذه الرواية ستعيش مع الزمن». إلا أن الرواية لم تلقَ في البداية نجاحًا كبيرًا في الأيام الأولى، فلم تبعْ خلال أسابيع سوى نسختين، وأقل من ألف في سنتها الأولى، لكنها خلال الحرب العالمية الأولى ستكون على قائمة الأفضل مبيعًا لتصل مبيعاتها إلى ثلاثة ملايين. إنها ألمانيا التي على وشك السقوط، يكتب توماس مان بعد سنوات ليجيب على سؤال طرحه عليه

شبنجلر حول نبوءته بتفسخ العالم القديم كما جاء في أسرة بودنبروك: «لم يخطر لي بأي حال، إني في هذا الكتاب قد أعطيت شيئًا هامًا يتخطى حدود الفن وحدود السيرة الذاتية، وإني قد قدمت صورة للحياة في هذه المدينة في القرن التاسع عشر، أي شيئًا من التاريخ، ولم يخطر لي أن إنجاز هذا العمل يعود إلى ما يتضمّنه في نفسي الآن من التاريخ الذهني للبرجوازية الألمانية على وجه الإطلاق، شيء ثالث لم أتخيّله في أية صورة من الصور، وهو أن الاهتمام بهذا الكتاب سيتجاوز موضوعيًا وذهنيًا حدود ألمانيا وأن قصة انحلال عائلة قد يثير أشجان البرجوازية وأنها قد تتعرف على نفسها في هذا الكتاب من جديد، وبالاختصار لم أكن حين وضعت هذا الكتاب الألماني من حيث الشكل والموضوع أني ربما صوّرت شيئًا من القصة النفسية للبرجوازية الأوروبية».

***

انحسار الأشياء

أكمل شبنجلر كتابه (تدهور الحضارة الغربية) عام ١٩١٤، ولكن قيام الحرب العالمية الأولى أوقف نشر الكتاب، في ذلك الوقت كتب هتلر: «الآن بدأ أعظم وقت، الوقت الذي لا يمكن أن ينسى على مدى وجودي في هذه الحياة، سينحسر كل شيء ويمضي ويصبح لا شيء».

وبسبب ضعف بصره ومرض القلب لم يلتحق شبنجلر بالجيش، لكنه وجد نفسه منخرطًا في دعايتها، فيكتب إلى عمه: «أنا متفائل.. سننتصر». صدر الجزء الأول من الكتاب عام ١٩١٨ حين كانت المقاتلات الألمانية تمطر باريس بالقنابل، كان على اقتناع من أن ألمانيا ستعود لتقيم إمبراطورية جديدة، لكن مع منتصف العام بدأت القوات الألمانية تتراجع، وبنهاية تشرين الأول استسلم جميع حلفاء ألمانيا، وكانت الجيوش البريطانية والفرنسية تقترب

من الحدود الألمانية، بدأت المدن الألمانية تتمرد، الإمبراطور الألماني يتنازل عن العرش، الأفكار الثورية تنتشر بسرعة، العمال يريدون جمهورية مثل السوفيت، ولم يكن أمام الجيش الذي عاد منكسرًا إلا طريق واحد هو سحق التمرد في ميونخ وبرلين والمدن الأخرى، الآلاف قتلوا.

كان شبنجلر يشاهد المأساة ويكتب: «لا شيء سوى الجوع والنهب، والقذارة والخطر، والنذالة التي لا مثيل لها». وكان أول رد فعل عنده هو اليأس، إن التدهور قادم كما تنبأ: «لقد انتهى كل ما كنت أحترمه وأقدره، لماذا يحلّ بنا هذا المصير؟ كل شيء مات في الخنادق».

كانت الفترة من ١٩١٨ -١٩١٩ كارثة بالنسبة لألمانيا، لكنها صنعت شهرة شبنجلر الأستاذ الجامعي الذي تنبأ بأن تأثير «تدهور الحضارة الغربية» سيكون بمثابة «انهيار صخرة ضخمة في بحيرة ضحلة». توماس مان يحصل على نسخة من الكتاب عام ١٩١٩ ويمضي شهرًا كاملاً في قراءته ويكتب: «إنه أهم كتاب في مرحلتنا القلقلة هذه»، الفيلسوف المقيم في فينا لودفيج فتجنشتين يقرأ الكتاب فيكتب إلى شبنجلر: «أيها المعلم لقد أصبتني بصاعقة». ويوّجه ماكس فيبر دعوة لشبنجلر ليشارك في ندوة عن الكتاب في جامعة ميونخ. كان فيبر يرى أن المؤلف ذكي، لكن استنتاجاته غير دقيقة. وفي أواخر عام ١٩١٩ تحصل إليزابيث نيتشه على نسخة من الكتاب، وتتأثر به كثيرًا. «إنه يعيد أمجاد شقيقي»، هكذا صرّحت. ورتبت أن يحصل شبنجلر على جائزة نيتشه، ها هو الآن قد أصبح مشهورًا، كتابه ينفد من المكتبات وتعاد طباعته بأكثر من لغة، وحين قال له ماكس فيبر إنه مروّج للكآبة والتشاؤم، كان رد شبنجلر بأنه يسعى لنهوض قومي من أجل ألمانيا، تختفي معه بقايا الغرب الفاسد.

بعد نجاح الجزء الأول من الكتاب، تفرغ لإنجاز الجزء الثاني الذي

ستصدر طبعته الأولى عام ١٩٢٢، وفيه يوجه سهام نقده للأفكار الليبرالية باعتبارها أفكارًا تحتضر وبأن الديمقراطية مجرد لعبة تجارية: «بنفاق الجماهير، بالكذب، بالهدايا والتهديدات، وقبل كل شيء بالأموال. المال هو الذي ينظّم العملية لصالح من يملكونه، وتصبح لعبة الانتخابات سابقة الإعداد، وتقدّم على أنها تقرير مصير».

وإذا كان الجزء الأول من الكتاب يقدّم التاريخ باعتباره قصة الشعوب والدول، فإن الجزء الثاني يقدّم المستقبل باعتباره صراع البشر وليس صراع المبادئ. يكتب: «في عالمنا الجرماني ستعود أرواح الأبطال مرة أخرى لتكسر دكتاتورية المال وسلاحها السياسي: الديمقراطية. سينتصر السيف على المال». كان يريد أن يجمع بين المساواة الاشتراكية والقومية الشعبية، وكان لأفكاره تأثير كبير على أعضاء الحزب النازي من أمثال غوبلز الذي كتب إليه رسالة طويلة معبرًا عن إعجابه بكتاباته، لكن شبنجلر لم يستهوه هتلر فيكتب: «الذي سيعيد المجد لألمانيا لا بد أن يكون بطلاً، وليس صوتًا يغني عن البطولة»، في إشارة إلى خطب هتلر الحماسية. كان شبنجلر ضد آراء النازيين في مسألة العرق الألماني، وكانت ردة فعل هتلر على آراء شبنجلر الأخيرة سريعة ومباشرة: «يتهمونني بأنني بربري، نعم نحن برابرة، وأنا فخور بذلك». وفي عام ١٩٢٤، ينبّه شبنجلر إلى أن: «السياسة القومية شراب مسكر» ويسخر من «المواكب والمسيرات التي حلّت محلّ التفكير الجاد بمستقبل ألمانيا».

في عام ١٩٣٢، يصعد هتلر إلى السلطة، وكان النازيون مصرين على إخضاع جامعات ألمانيا العريقة لسيطرتهم، وكان شبنجلر يسعى إلى أن يحافظ على استقلاليته وعدم تأييده لحزب هتلر، لكنه وتحت ضغط من أصدقاء كثيرين وافق أن يلتقي هتلر. كان المشهد غريبًا، هتلر حاول أن

يمتدح الفيلسوف، لكن الفيلسوف الذي يبدو عليه التعب والانزعاج لم تعجبه شخصية المستشار الألماني، بعد عام أصدر كتابه (ساعة القرار) الذي اعتبره البعض دعوة للإطاحة بهتلر، وبالرغم من أن الناشر لم يوزع نسخًا من الطبعة الأولى إلا أن الكتاب تم منعه، وسرعان ما بدأ الهجوم عليه في الصحف، فاختار العزلة، لم يعد قادرًا على احتمال أحد من الأصدقاء. في تشرين الثاني عام ١٩٣٥، يتخلى عن منصبه الشرفي في مركز نيتشه، كانت إليزابيث نيتشه في التاسعة والثمانين وكانت من أشدّ المؤيدين لهتلر، وستكتب رسالة إلى شبنجلر تعبّر عن حيرتها لاختياره العزلة وتردده في تأييد هتلر: «ألم يحقق الفوهرر العظيم نفس الأهداف التي تكلمت عنها في كتبك»، تكتب إليه لكنه لم يرد عليها. في آذار من عام ١٩٣٦ يتعرض لأزمة قلبية حادة يموت على إثرها، كان في السادسة والخمسين من عمره، مرّ موته دون أن يلحظه أحد، ودفنه عدد قليل من أصدقائه، كان توماس مان منفيًا في زيورخ بعد أن سمع بوفاة صديقه القديم الذي اختلف معه فيما بعد. كتب في يومياته: «مات صغيرًا، وأحسب أنه مات في مرارة وندم، ولكنه أتى أشياء مرعبة ليمهدّ الطريق لما هو قادم، وأطلق باكرًا، تلك الألحان التي تصيبنا اليوم بالصمم».

ظل شبنجلر يشعر بأن هناك تطابق بين الهزيمة الوطنية الألمانية، وانحطاط أوروبا. لكنه أصرّ على أن ما هُزم إنما هي الحضارة وليس الثقافة، منبهًا إلى خطورة أن تجر الحضارة الثقافة معها في انحطاطها.

***

ما الذي يجب أن تقرأه لأوزفالد شبنجلر وعنه؟

- تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: أحمد الشيباني.

- الأعوام الحاسمة، ترجمة وتقديم: علي حسن الهاكع.
- شبنجلر، تأليف: عبد الرحمن بدوي.
- تاريخ الأيدولوجيات، تأليف: فرانسوا شاتليه، وترجمة: أنطوان حمصي.
- تحطيم العقل، تأليف: جورج لوكاش، وترجمة: إلياس مرقص.

-16-

إنسان القرن العشرين المحكوم عليه بالثورة الدائمة

في الخامس عشر من كانون الثاني اقتادت فرقة من حرس الخيالة الألماني كل من كارل ليبكنشت ورفيقته روزا لوكسمبورج إلى أحد مقرات الجيش للتحقيق معهما بتهمة تنظيم عصيان مدني. كان ليبكنشت وروزا قادا جماعات من العمال المسلحين والنشطاء أطلقوا عليهم اسم «جماعة سبارتاكوس»، حيث قررت هذه الجماعة إقامة جمهورية اشتراكية في برلين، معلنين تحديهم للنظام السياسي. وقد تحرّكت قوات الجيش لسحق الانتفاضة التي استمرت تسعة أيام، وخضع ليبكنشت ولوكسمبورج بعدها إلى تحقيق وحشي، حيث سحقت رؤوسهم بأعقاب البنادق، ليتم بعدها إعدامهما، ثم أُلقي بجثتيهما في نهر لاندهور، ليسدل الستار بذلك على الأسبوع الإسبارتاكوسي.

***

البلشفي المترف

كان لسحق الانتفاضة العمالية أثر على الفكر الماركسي الألماني الذي اتجه بعض ممثليه لتأسيس تجمعات ثقافية وفكرية تدرس وتناقش أحوال البلاد بعد الحرب العالمية الأولى. فبعد أربعة أعوام على الانتفاضة قام مجموعة من الماركسيين عام ١٩٢٣ بتأسيس معهد للعلوم الاجتماعية أُطلق عليه فيما بعد مدرسة فرانكفورت. وقد أقيم هذا المعهد بدعم من رجل أعمال مستنير هو هيرمان فايل الذي كان يُطلق عليه آنذاك «البلشفي المترف»، وضمّت

القائمة الأولية لأعضاء المجموعة كل من تيودور إدرنادو المشهور باهتمامه بالموسيقى والفلسفة، وإريك فروم عالم النفس الموهوب، وهربرت ماركيوز وفالتر بنجامين، بقيادة ماكس هوركهايمر. اعتقدت مدرسة فرانكفورت في البداية أن عملها الفكري هو تكملة ما بدأت روزا لوكسمبورج مع رفاقها، أي دعم الفرص العملية لتحرك ثوري من جانب البروليتاريا، ولكن بعد مرور سنوات على الثورة السوفييتية وظهور النظرية الستالينية في الحكم، كان الموضوع الذي طرح على مائدة الجدل آنذاك هو كيف يمكن التخلي عن الماركسية السوفييتية والتوجه نحو ماركس آخر من خلال كتاباته الأولية التي أُطلق عليها (مخطوطات عام ١٨٤٤)، إضافة إلى كتابات ماركس الشاب، اتجهت مدرسة فرانكفورت نحو مفكرين غير ماركسيين من أجل تقديم نظرية فلسفية نقدية جديدة، كان الأول هو سيجموند فرويد الذي مكّنت نظرياته مدرسة فرانكفورت من أن تفهم الآثار المشوّهة التي تتكبدها الإنسانية في مقابل انتصاراتها التكنولوجية. وقد توصلت جماعة فرانكفورت إلى أن الرأسمالية الغربية تنتج باستمرار نوعًا إنسانيًا مصابًا بالعصاب، وسيصرّ إريك فروم وهربرت ماكيوز على أن الأمل بالإطاحة بتقاليد المجتمع البرجوازي يتطلب الإطاحة بالكبت النفسي إلى جانب رفع الظلم الطبقي.

وكان نيتشه هو المفكر الثاني الذي كان نقده الشديد للقيم البرجوازية دفع بماركيوز لأن يكتب:

«إن أعمال نيتشه تصوير فريد للطبيعة القمعية للثقافة الغربية، وإنها تعبير عن الإنساني في عالم أصبحت فيه الإنسانية أكذوبة». هكذا وجدت مدرسة فرانكفورت في نيتشه وفرويد نموذجين لهما، إضافة إلى ماركس بمفرده بعيدًا عن تدخلات إنجلز، الطريق إلى وضع نظرية فلسفية تحيل جميع أمراض

المجتمع الحديث النفسية والثقافية والاجتماعية إلى أخطاء الرأسمالية وبمعنى أوسع وكما قال ماركيوز إلى «أخطاء الغرب الحديث».

***

مخطوطات ماركس

عام ١٩٣٢، كان عامًا مثيرًا بالنسبة لمدرسة فرانكفورت، فقد تم نشر (مخطوطات ماركس عام ١٨٤٤) مصحوبة بدراسة مطوّلة كتبها هربرت ماركيوز. كانت المخطوطات قد هُرِّبت سرًا من معهد ماركس وإنجلز في موسكو، في تلك الكتابات المبكرة كان ماركس يرى أن شرور الرأسمالية لا تكمن في الاستغلال الاقتصادي فقط، وإنما مخاطر الرأسمالية الحقيقية هي مخاطر روحية أو في المفهوم الحديث نفسية. تقسيم العمل في المؤسسة الرأسمالية حوّل ناتج جهد العامل إلى سلعة كمالية مجردة من الحياة، فما يصنعه يؤخذ ويباع دون فائدة تعود عليه، سوى الأجرة الزهيدة التي يتقاضاها، السلع التي صنعها لم يعد لها صلة به، أي أنه غريب عن جهده، والنتيجة كما قال ماركس في المخطوطات هي أن: «العامل يشعر بنفسه عندما لا يعمل، أما عندما يعمل فهو لا يشعر بنفسه». يقول ماركيوز إن ماركس الشاب توصّل إلى أن تقسيم العمل في الرأسمالية يؤدي إلى تقسيم أرواح البشر، ونتيجة لذلك فإن اتساع الإنتاج الرأسمالي لا يمكن أن يفيد العامل أبدًا بل على العكس: «حتى عندما يؤدي تقسيم العمل إلى زيادة القوة الإنتاجية والثروة والرفاهية للمجتمع، فإنه يؤدي إلى إفقار العامل ماديًا وروحيًا وينتج عن ذلك كما يقول ماركس «البلاهة والقماءة». وتشير المخططات إلى فكرة ماركس التي يلخّصها ماركيوز بالقول: «كلما نمت الرأسمالية واتسعت، فلا بد أن يزيد استغلالها الفعلي وإفقارها الروحي لعمالها ولطبقتها البرجوازية، ففي ظل الرأسمالية كل واحد غريب عن الآخرين والكل غرباء عن جوهر

الإنسان». ونجد ماركيوز يتساءل في مقدمته لمخطوطات ماركس: هل لدينا الآن ماركسان؟ وهل تاريخ الصراع الإنساني هو العملية التي يتم فيها التغلب على الاغتراب الذاتي والإنساني، ويدرك البشر ذواتهم عن طريق التوافق مع ماهيتهم الحقيقية، ككائنات طبيعية واجتماعية مبدعة وحرة، أم أن تاريخ العالم هو التاريخ العلمي لتقسيم العمل والصراع الطبقي والثورة الحتمية التي تنتهي بقيام مجتمع شيوعي غير طبقي، وهل يمكن التوفيق بين وجهتي النظر الإنسانية والعلمية هاتين في فكر ماركس، والخروج بنظرية جديدة تدرس واقع الإنسان الحديث ومستقبله. هذا ما قرّر هربرت ماركيوز أن يقوم به وأن يُكرّس جهده الفلسفي له.

***

على فراش المرض

كان على فراش المرض في ١٩٧٨، ما بين غياب وصحو، حين سأله محرر الكتب في النيويورك تايمز: «هل كنت تتصور أن كتابك (الإنسان ذو البعد الواحد) الذي أشعل الانتفاضات في أوروبا قبل عشرة أعوام، يمكن أن يذهب إلى النسيان بهذه البساطة؟» لكن هربرت ماركيوز كان في تلك اللحظة يفكر فيما إذا كانت سنوات حياته التي شارفت على الثمانين ذات جدوى، تذكّر أنه ذهب ذات يوم إلى أستاذه هيدجر ليسأله السؤال ذاته: هل يأتي ذلك اليوم الذي يطوي النسيان كتاب الوجود والزمان؟ كان هيدجر آنذاك مهمومًا بطرح الأسئلة، وبإكمال المشروع الوجودي الذي وضعه أستاذه هوسرل، وذلك عبر استخدامه لكل الوسائل الفلسفية للإجابة عن السؤال الأساسي الذي شغل بال واضع الفلسفة الظاهراتية: ما الوجود؟

لم يكن أستاذ الفلسفة الذي تخصّص في دراسة فكر هيغل، وكرَّس حياته العلمية لإثبات أن فكر معلم الفلسفة الألمانية يحتوي على عناصر منها ما هو

ثوري ومنها ما يُمهِّد مباشرة للثورة، وكان كتابه (هيغل والثورة) قد أثار حفيظة الحركة الديمقراطية الشعبية الألمانية التي رأت فيه محاولة لتجميل صورة فيلسوف كان يؤمن «بالبطل المطلق»، لم يكن هذا الأستاذ وقد بلغ من العمر سبعين عامًا يحلم بأنه سيصبح واحدًا من نجوم المجتمع الغربي تحاصره الفضائيات ويرفع الشباب والطلبة صوره في شوارع باريس وجامعاتها، ويتحوّل كتابه (الإنسان ذو البعد الواحد) عام ١٩٦٨ إلى إنجيل لشباب أوروبا الغاضب والحالم بالتغيير .

***

ثورة داخل ثورة

سمع وهو يجلس في مكانه المعتاد في زاوية من المقهى، يدخن غليونه ويكتب ويقرأ، اسمه يتردد على لسان فتاة جميلة منشغلة بحوار ساخن مع زميل لها: «سارتر أصبح من الماضي»، هكذا قالت الفتاة.

- «إذن مَن المؤهل بنظرك لكي يُلهم هؤلاء الشباب؟» قال زميلها.

- لا يوجد أحد على التعيين، لكن نحتاج إلى قائد فيه شيء من جيفارا، وأشياء من هو تشي منه، وأفكار من ماركيوز.

قال الشاب: «لكنهم جميعًا ليسوا فرنسيين».

- الثورة لا وطن لها. ألم تقرأ ما فعله ريجيس دوبريه؟

كان دوبريه يقبع آنذاك العام ١٩٦٨ في سجن صغير بقرية جنوب بوليفيا، بعد أن ألقي القبض عليه بعد أسابيع من مقتل رفيقه جيفارا الذي كان يرى في صاحب (ثورة داخل ثورة) أنه المنظر الجديد للثورة العالمية.

وضع سارتر غليونه جانبًا وهو ينظر إلى الفتاة التي كانت تحمل نسخة

من كتاب (الإنسان ذو البعد الواحد)، فصاحب (الوجودية فلسفة إنسانية) ظلّ حتى يوم أمس يعتقد أن كتبه هي التي تحرِّض الشباب، وأن الوجودية أصبحت اليوم بديلاً لكل الفلسفات، فهل يعقل أن يسيطر كاتب يحاول أن يجمع بين ماركس وفرويد في إناء واحد، من أن يصبح مُلهمًا لشباب أوروبا؟

لم يكن سارتر قد أدرك بعد أن الكتاب الذي أهدته إليه سيمون دي بوفوار وطلبت منه أن يقرأه بتمعّن يمكن أن يحقق هذا النجاح، وكان قبل أشهر قد كتب عن الإنسان ذي البعد الواحد في مجلة (الأزمنة الحديثة) مقالاً ينتقد إدارج ماركيوز الطلبة والشباب بين هؤلاء الذين هم بلا أمل أو الإنسان المحكوم عليه بالثورة الدائمة.بين الفئات الاجتماعية المنبوذة، فالطلبة في رأي سارتر ينتسبون إلى الفئات الاجتماعية الوسطى والصغيرة ويعيش أغلبهم على دخول أولياء أمورهم، ويرى سارتر أن استبعاد ماركيوز للطبقة العاملة من القوى الثورية الجديدة خطأ لا يُغتفر.يتذكر سارتر جيدًا أن صديقه اللدود ألبير كامو كان متحمسًا لكتاب ماركيوز هذا، وقد أقنع الناشر غوستاف غاليمار قبل أن يتوفى بأشهر أن يترجم كتاب (الإنسان ذو البعد الواحد) إلى الفرنسية، وحين صدرت طبعته الأولى لم يحظَ بالقبول وبقيت نسخه مكدّسة في مخازن غاليمار!

***

تظاهرات الطلبة

أيار عام ١٩٦٨. شوارع باريس تكتظ بالطلبة الغاضبين الذين يرفعون عبارة «ارحل» في وجه ديغول. في ذلك الزمان الذي نشرت الصحافة فيه صورة لسارتر وهو يصعد على أحد البراميل يوزع المنشورات التحريضية ضد الجنرال، كان الطلبة يتداولون كتابًا ظلّ مجهولاً لسنوات لمؤلف ألماني يعيش في أميركا اسمه هربرت ماركيوز، أما الكتاب فكان بعنوان (الإنسان

ذو البعد الواحد)، والكتاب يفسر لماذا على الطلبة أن يغضبوا ويقودوا التغيير، ويغذّي فيهم روح الثورة والسخط على الأوضاع، حيث يحتل النقد الاجتماعي والسياسي الجانب الأكبر في تفكير ماركيوز ويشغل العدد الأكبر من معظم صفحات كتبه، ولا يقتصر النقد على نظام معين، بل إنه ينتقد كل النماذج الموجودة سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية. وهو يرى أن الأحادية هي مرض العصر، فالإنسان ذو بعد واحد في المجتمع الرأسمالي الحديث، وفي التطبيقات الاشتراكية التعسفية، أن البعد الواحد باختصار هو سمة العصر الحديث في أشد صور بؤسه وانحطاطه. كانت وسيلة ماركيوز لكي يقدم نظريته عن إنسان البعد الواحد أن يعيد قراءة أعمال ماركس الشاب إلى جانب إعادة تفسير أفكار فرويد ليمزجهما مع كتابات نيتشه بحيث تنتج فلسفة جديدة تلائم روح الحاضر.

فماركيوز يؤمن بأن الآلة في المجتمع الرأسمالي تتطور لتقلل جهد العامل والعقول الإلكترونية والسفر إلى الفضاء، لكن هذا المجتمع الذي يُسمى مجتمع الرفاهية أو الوفرة هو مجتمع زائف. لماذا؟ يُجيبنا في كتابه (الإنسان ذو البعد الواحد) قائلاً: «التكنولوجيا توفر، لكنها تفرض نوعًا جديدًا من الاستبداد المقبول»، فالمجتمع الصناعي وبسبب تطور التكنولوجيا يعطي مزيدًا من الوقت الفارغ، ولا يعطي الوقت الحر، وهو يمنح أبناءه مزيدًا من الفراغ، لا مزيدًا من الحرية.

ويحلل ماركيوز ظاهرة حلول التكنولوجيا محل الاستبداد بأن مجتمع الوفرة يشدد قبضته على الإنسان بوسائل علمية حديثة، بعضها منظور وبعضها مخفي، وأخطر من كل هذا أنه يجعل الإنسان يقبل الاستبداد مقابل بضع مواد استهلاكية.

لقد وُجهت انتقادات عديدة لآراء ماركيوز، منها أنه يغفل تصوير

التناقضات داخل المجتمع الرأسمالي، ولكنه يصر على أن الطبقة العاملة في هذا النظام لم تعد تملك الحرية، ولا القدرة على الانتقال بالمجتمع إلى التغيير الكيفي. ويلاحظ ماركيوز في (الإنسان ذو البعد الواحد) أن أبناء الطبقة العاملة هم الذين سيصبحون في المستقبل التكنوقراطيين والعلماء والمهندسين وأصحاب رؤوس الأموال، وبمعنى آخر فإن فرصة الانتقال بهذا المجتمع انتقالاً كيفيًا تتضاءل ما دامت مستمرة في تطوير وسائل التحكم الشامل في الرأي العام.

ولهذا لم يُفاجأ ماركيوز حين تبنّى الطلبة أفكاره ونشروا كتاباته، لأنه ظلّ يؤكد مرارًا أن الطلبة هم الفئة التي لم ترتبط بعد بعجلات الإنتاج والمصالح الاقتصادية التي قضت على الأمل في تغيير المجتمع تغييرًا كبيرًا.

***

الهروب باتجاه الحرية

ولد هربرت ماركيوز في برلين عام ١٨٩٨ لأبوين على قدر من الثراء، وقد درس الفلسفة في جامعة برلين، وحصل على الدكتوراه في الرابعة والعشرين من عمره. لم يستطع العيش في ألمانيا بسبب صعود النازية فهاجر إلى أميركا حيث كان على سفينة واحدة مع توماس مان وبرتولد بريشت. عام ١٩٤٠ مُنح الجنسية الأميركية وعمل في وزارة الخارجية حتى عام ١٩٥١، حيث تفرّغ للتدريس في الجامعة. كان أول مؤلف له بالإنكليزية كتاب (العقل والثورة) وهو دراسة لموقف هيغل الثوري، بعدها أصدر كتابه (الحب والحضارة) الذي وصف بأنه بحث فلسفي في معنى الفرويدية للفهم الاجتماعي. وفي عام ١٩٥٨، أصدر كتابه الماركسية السوفييتية الذي ندّد فيه بممارسات ستالين وتخريبه المنهج للماركسية، بعدها أصدر كتابه (فلسفة النفي)، إلا أن أشهر كتبه وأكثرها انتشارًا هو كتاب (الإنسان ذو البعد

الواحد) وهو نظرة متشائمة لحالة الإنسان في المجتمع التكنولوجي الحديث، وقد صدر عام ١٩٤٦ ولم يلقّ اهتمامًا في البداية إلا بعد أن تُرجم إلى الفرنسية ليصبح إنجيل الطلبة الثوار عام ١٩٦٨. في عام ١٩٥٦، أصدر كتاب (نقد التسامح الطاهر) وفيه يرد على فلسفة جون ستيوارت ميل عن الحرية. وفي عام ١٩٦٩، أصدر كتابه الأخير (نحو ثورة جديدة). توفي ماركيوز عام ١٩٧٩ بسكتة دماغية أثناء زيارته لألمانيا، وكان برفقته يورغن هابرماس وهو من الجيل الثاني من مدرسة فرانكفورت.

***

الإنسان ذو البعد الواحد

يتلخص مشروع ماركيوز في الإجابة عن السؤال التالي: لماذا لم تقم الثورة في البلدان الصناعية المتقدمة؟ وعلى وجه التحديد في البلدان التي افترضت الماركسية أنها ستكون رائدة أقطار العالم أجمع إلى الاشتراكية، بل لماذا باتت شبه مستحيلة في عالم يمتلك منذ أكثر من قرن القوة الكلاسيكية للثورة، أي البروليتاريا الصناعية؟

يقول ماركيوز إن الإنسان ذا البعد الواحد هو ذاك الذي استغنى عن الحرية بوهم الحرية، إنه ذلك الذي يتوهم أنه حر لأنه يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات التي يكفلها المجتمع لتلبية حاجاته، إنه كالعبد الذي يوهب الحرية في اختيار سيده (فهل هو حر؟). ولذا يقول ماركيوز إن الحرية المنظمة من قبل مجموع اضطهادي هي أداة قوية للسيطرة، حيث يفرغ هذا الإنسان من أي بعد نقدي ليعارض أو يطالب بالتغيير، ولا يبقى فيه إلا على البعد الايجابي، الذي يقبل المجتمع والواقع كما هو، بل ويرضى به بسعادة، معتبرًا أي موقف غير هذا موقفًا غير منطقي ولا عقلاني، حيث يسخر المجتمع أحادي البعد كل ما يملك من طاقات هائلة لتحقيق الهيمنة

على الإنسان بتقليص مجاله الداخلي، وجعله أحادي البعد.

ويؤكد ماركيوز أن المجتمع لا يكتفي بتزييف الحاجات المادية، بل ويقوم بتزييف الحاجات الفكرية، وذلك على قاعدة أن الفكر هو العدو اللدود للمجتمع المسيطر، فهو قوة العقل النقدية السالبة والمحركة باتجاه ما يجب أن يكون لا ما هو كائن. ويقصد بهذه القوة الأيدولوجية التي يقوم المجتمع ذو البعد الواحد بتحقيرها وازدرائها باسم عقلانية التكنولوجيا، مستبدلاً إياها بالمدنية التقنية كايدولوجيا، لتصبح هي ذاتها أيديولوجيا المجتمع، حيث يقول في (الإنسان ذو البعد الواحد): «إن الجهاز الإنتاجي والسلع والخدمات التي ينتجها تفرض النظام الاجتماعي من حيث إنه مجموع، فوسائل النقل والاتصال الجماهيري وتسهيلات المسكن والملبس والإنتاج المتعاظم لصناعة أوقات الفراغ والإعلام، هذا كله يترتب عليه مواقف وعادات مفروضة وردود أفعال فكرية وانفعالية، تربط المستهلك بالمنتج بصورة محببة، ومن ثم تربطهم بالمجموع. إن المنتجات تكيّف الناس مذهبيًا وتشرطهم، وتصنع وعيًا زائفًا عديم الإحساس بما فيه من زيف».

ومثل بقية أعضاء مدرسة فرانكفورت كان ماركيوز لا يرى أملاً في الثورة من قبل الطبقة العاملة، فقد كان بدل ذلك يتطلع إلى الجماعات المهمشة المستبعدة من المجتمع الاستهلاكي، والتي كانت بالتالي محصنة ضد تملقاته: «طبقة سفلية من المنبوذين من المجتمع والخارجين عليه، المستَغَلين والمضُطهدين من الأجناس الأخرى، العاطلين عن العمل والعاجزين عنه» هؤلاء الذين كان يطلق عليهم ماركس «البروليتاريا الرثة» أصبحوا أمل ماركيوز في التغيير.

عندما مات ماركيوز عام ١٩٧٩ لم تكن المجتمعات الصناعية قد تحولت إلى ما كان يتمناه، لكن جامعات مثل بيركلي وكولومبيا وبرانديز كانت تعمل

كقواعد لأفكار ماركيوز، وعندما سأله أحد الصحفيين عام ١٩٧٤ عما إذا كان الأمل بثورة الشباب قد مات، أجابه: «لا أعتقد أنه مات، أحسب أنه سيبعث في معظم جامعات العالم». وهذه النبوءة تحققت بعد موته بالتأكيد قبل وفاته، يكتب: «كانت الفلسفة على مرّ عصورها، جهدًا يبذله الإنسان من أجل فهم نفسه وعالمه، وتمهيد الطريق لتغيير ما يستحق أن يتغير من الظواهر المحيطة بنا».

***

ما الذي يجب أن تقرأه لهربرت ماركيوز؟

- العقل والثورة، ترجمة: فؤاد زكريا.
- الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي.
- الحب والحضارة، ترجمة: مطاع صفدي.
- فلسفة النفي، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد.

وماذا بعد عن مصادر هربرت ماركيوز في العربية؟

- هربرت ماركيوز، تأليف: فؤاد زكريا.
- ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود، تأليف: محمود أمين العالم.
- اليسار الفرويدي، تأليف: بول روبنسون، وترجمة: عبده الريس.
- مدرسة فرانكفورت.. نشأتها ومغزاها، تأليف: فيل سليتر، وترجمة: خليل كلفت.
- مدرسة فرانكفورت، تأليف: توم بوتومور، وترجمة: سعد هجرس.
- النظرية النقدية عند مدرسة فرانكفورت، تأليف: آلن هاو، وترجمة: ثائر ديب.

-17-

حين يأخذنا فوكو إلى عالم السجون والمصحّات والخصام مع سارتر

كان يمرُّ بظروفٍ شخصية صعبة حين بدأ يكتب رسالته للدكتوراه بإشراف أستاذه لوي ألتوسير الذي أقنع التلميذ ميشيل فوكو بأن يحضر دروسه في قراءة كتاب (رأس المال) لماركس، لكن التلميذ الذي كان يعاني من الاكتئاب والعصبية المفرطة، قرّر أن يُنهي حياته التي وجدها بلا طموح ولا أمل كما أخبر صديقه جيل دولوز بعد سنوات: «كنت يائسًا، وتمنيت لو أنني أُنهي حياتي بضربة واحدة». وكانت الضربة جرحًا عميقًا في صدره نُقل على أثره إلى مصحة نفسية، ذهب الأب إلى الجامعة ليخبر الأستاذ ألتوسير: «إن ميشيل مريض، وبحاجة إلى مساعدتك».

***

العلاج بالسياسة

«لكن ما طبيعة مرضك؟ ما الأعراض التي تنتاب؟»، سأل ألتوسير تلميذه فوكو وهو يزوره في مصحة مستشفى سانت آن: «تنتابني حالات من الصداع. صداع شديد معذّب، ونوبات متواصلة من الغثيان. أحيانًا لا أستطيع تناول الطعام، والأرق الذي يجعلني أتناول جرعات كبيرة من المهدئات» أجاب فوكو.

لم تكن قائمة الأعراض الطويلة التي سمعها ألتوسير من فوكو جديدةً عليه، فقد عانى من قبل مثل هذه الأعراض، لكنه تخلّص منها بعد أن اكتشف أن الاهتمام بالدراسة والبحث سيجعلانه يتغلّب على متاعبه الصحية. وكانت نصيحة ألتوسير لفوكو أن يترك المصحة ويعود لمقاعد الدرس، ليكمل رسالته في التخرج من المدرسة العليا للمعلمين. كان الموضوع الذي اختاره بعنوان (المرض العقلي وعلم النفس)، وهو الأمر الذي دفعه إلى أن يحضر فحوصات المرضى النفسيين في المصحة نفسها التي كان يتعالج فيها، إلا أن ألتوسير وجد أن اندماج تلميذه فوكو في الحركة السياسية سيساعده على التخلص من حالة العصبية والاكتئاب التي تنتابه بين الحين والآخر، فأقنعه عام ١٩٥٠ بالانضمام إلى الحزب الشيوعي الفرنسي: «كان من الصعب ألا يكون المرء ماركسيًا في ذلك الزمن، كما كان من العبء أن يكون المرء قد كتب العديد من الصفحات في الفلسفة أو علم النفس من دون أن يتطلّع إلى صورة ماركس».

في عام ١٩٥٠ يسأل الطالب ميشيل فوكو أستاذه لوي ألتوسير عن كتاب (رأس المال)، وهل يرى أنه ما يزال يصلح لهذا العصر، بعد أن خرجت البشرية من حرب مدمرة؟ هذا السؤال ظل يدور بذهن الأستاذ ألتوسير لخمسة عشر عامًا كاملة، تفرّغ خلالها لمراجعة كتاب رأس المال ودراسته دراسة دقيقة ليصدر عام ١٩٦٥ مؤلفًا يحدث ضجة كبيرة (قراءة رأس المال)، اتُهم من خلاله بأنه يريد تحريف أفكار ماركس. وتصدى له غارودي الذي قال إن ألتوسير يريد أن يحصل على الشهرة من خلال مشاكسة ماركس، فيما كتب سارتر في (الأزمنة الحديثة) أن صاحب هذه القراءة يريد أن يغازل البنيوية على حساب أفكار ماركس الأساسية. ويضيف سارتر أن ألتوسير يخلط بين التحليل النفسي والتحليل الثقافي للظواهر. لم

يَرُد ألتوسير على الحملة ولا على قرار طرده من الحزب الشيوعي، فهو كان مهتمًا بالدرجة الأولى بتخليص ماركس من الاشتراكيين الذين لا يرون فيه سوى وجه المنظّر السياسي، منبهًا إلى أن السير في هذا الطريق سيؤدي إلى ضياع ماركس الحقيقي. ولهذا يكتب في (قراءة رأس المال): «إن العودة إلى ماركس فيلسوف التقنية والاقتصاد والاجتماع، أمر في غاية الإنصاف، لأنه يعيد الاعتبار الحقيقي لهذا المفكر الإنساني الكبير».

***

قراءة رأس المال

كان كتاب (قراءة رأس المال) في البداية قد بُني على ندوة حول مخطوطات كارل ماركس أُقيمت في باريس أوائل عام ١٩٦٥، وكانت المخطوطات التي نشرت عام ١٩٣٢ أثارت ضجة كبيرة، وجاءت ندوة باريس لتعيد الاعتبار إلى ماركس الشاب، كان ألتوسير متحمسًا للندوة التي دعا إليها عددًا من طلبته أبرزهم فوكو وجيل دولوز، إلى جانب سارتر ورولان بارت. وهذه الندوة -كما كتاب (قراءة رأس المال)- أثارت صخبًا شديدًا في الأوساط الماركسية التقليدية، لأن ألتوسير، الساعي يومها إلى قراءة كتاب ماركس (رأس المال) على ضوء أبعاده الفلسفية والاقتصادية، وربما الاجتماعية أيضًا، كان مهتمًا بتخليص ماركس مما أسماه بـ «التبسيط الذي مارسته الأنظمة الشيوعية على أفكار ماركس». وعلى ضوء هذا الاهتمام، لم يكن غريبًا أن يحاول ألتوسير أن يجمع بين رأسين في الحلال، كما كتب غارودي في نقده لكتاب (قراءة رأس المال) ويقصد الجمع بين ماركس وفرويد، وهي المحاولة التي قال عنها ألتوسير في مقدمة كتابه إنها إعادة إحياء ماركس المفكر، وفرويد صاحب المنهج الفريد.

كان ألتوسير يسعى إلى تخليص فكر ماركس من كل نزعة مؤدلجة وإعادته

إلى مركزيته التاريخية. فكتاب (رأس المال) بالنسبة إليه، ليس كتابًا يبني فكرًا ونظامًا بديلين للرأسمالية، بل هو كتاب يدرس الرأسمالية نفسها، على ضوء معطيات تاريخها وارتباطها بالمجتمعات التي نمت داخلها.

ويتذكر فوكو أنه عندما زار أستاذه ألتوسير في مصحته العقلية بسانت آن في ضواحي باريس عام ١٩٨١ سأله: هل ما زلت ماركسيًا؟ أجابه ألتوسير: «ومن نكون نحن بغير صاحب اللحية الكثّة؟ لكن ماركس هو الذي ينبذنا دومًا».

***

موت فيلسوف عظيم

في الساعة الواحدة والربع بعد ظهر الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٨٤، قطع التلفزيون الفرنسي براجه ليعلن موت ميشيل فوكو، بمستشفى لاسالبيتر في باريس، إثر تعقيدات صحيّة أصابت جهازه العصبي نتيجة لحالة من التسمم في الدم. لم يقل البيان إنه مات بسبب الإيدز، لأن معظم المقرّبين منه لم يكونوا يعرفون شيئًا عن طبيعة مرضه، فقد كان يحب الخصوصية، ولم يكن مستعدًا لأن يشاركه أحدٌ أسرار حياته. في اليوم التالي ظهرت اللوموند وعلى صفحتها الأولى مقال كتبه زميله جيل دولوز بعنوان (موت فيلسوف عظيم): «لقد بدا لي أنه كان يرغب في أن يبقى وحيدًا، وأن يسير إلى حيث لا أحد يستطيع اقتفاء خطواته، باستثناء بعض من ربطته بهم حميمية، كانت حاجتي إليه أكبر من حاجته إليّ». فيما يكتب جاك دريدا: «إن ميشيل فوكو ورحيله هو إعادة النظر لما نعرفه عنه، لتفكيرنا عنه، هل نحن نكتب عن فوكو أم عن انعكاسه فينا». فيما أصدر الرئيس الفرنسي ميتران تأبينًا تحدّث فيه عن الخسارة الفادحة التي يمثّلها موت فوكو بالنسبة للأمة الفرنسية، وأرسلت سيمون دي بوفوار خطابًا أكدّت فيه أن فوكو كان يمثّل صورة

ازدهار الحركة الفكرية الفرنسية في القرن العشرين، ووضعته إلى جانب سارتر وميرلو بونتي وورولان بارت وغولدمان وكامو وألتوسير. وتتذكّر دي بوفوار أن فوكو كان قد اتصل بها بعد سماعه خبر وفاة سارتر بساعات عام ١٩٨٠، ورغم الخلاف الذي نشب بينهما [بين سارتر وفوكو] إلا أنه تحدث معها بحب عن سارتر مؤكدًا لها أن وفاة فيلسوف الوجودية الأكبر هو أيضًا ولادة لأفكاره من جديد. وفي النيويورك تايمز كتب الفلسطيني إدوارد سعيد: «لا شك أن قرّاء فوكو سوف يتذكرون أنهم عندما قرأوا أعماله للمرة الأولى شعروا بصدمة خاصة عند لقاء هذا المفكر الحاد الشيق، الذي يعرض نفسه في شكل شحنات كهربائية متتالية، وفي أسلوب حساس لا يتوفر لكاتب في عمق فوكو وصعوبته».

ولد ميشيل فوكو في ١٥ تشرين الأول عام ١٩٢٦ لعائلة من سلالة البرجوازية الفرنسية. كان والده جراحًا مشهورًا، فيما تنحدر والدته من أسرة غنية لديها الكثير من الأملاك. كان الوالد صارمًا جدًا الأمر الذي دفع فوكو إلى أن يتمرّد في فترة المراهقة، وحين اختار له الأب مهنة الطب، رفض وقرّر أن يتخصّص في الفلسفة، فدخل مدرسة المعلمين العالية ليدرس تحت إشراف ميرلو بونتي فلسفة هيغل، فيما كان ألتوسير يعيد معه ترتيب أوراق ماركس. وكمعظم طلبة الفلسفة تأثر في بداية حياته بنيتشه وسارتر وقرأ معظم أعمال هيدجر، وقد حاول من خلال الجمع بين سارتر وهيدغر ونيتشه وماركس وفرويد، أن يجد طريقة جديدة لاستكشاف جذور الواقع الذي يعيش فيه. أثناء دراسته تعرّض لحالات من الاكتئاب، واكتشف فيما بعد ميوله الجنسية المثلية التي سبّبت له حالة من الشعور بالذنب رافقته حتى آخر لحظة في حياته. حصل عام ١٩٤٩ على شهادة عليا في علم النفس، وقد قضى هذه السنوات بمراقبة تصرفات المرضى النفسيين ومتابعة أحوالهم،

وكان يؤكد لأستاذه ألتوسير أنه يرغب في التخصص بالطب النفسي. عام ١٩٥٢ يحصل على منصبه التدريسي الأول، مدرسًا لمادة علم النفس لطلبة الفلسفة في مدرسة المعلمين العليا.

***

في انتظار النهاية

في عام ١٩٥٣ شاهد فوكو مسرحية صمويل بيكيت (في انتظار غودو)، وشعر أن المسرحية ساعدته في التحرر من الروح الفلسفية التي سيطرت عليها الماركسية والوجودية. لقد كان ينظر إلى المتشردين على خشبة المسرح، وهم يتلقون دروسًا عن الموت والحياة والحب.

بعد أن خرج من المسرح كتب مقالاً حماسيًا بعنوان (ولادتنا كانت أبرز خساراتنا)، ويكتب إلى صمويل بيكيت رسالة يقول فيها: «إنني مثلك أصارع الحالة التي تركني عليها العدم». وفي السنة نفسها قرأ كتاب نيتشه (تأملات في غير أوانها) بعد ذلك بسنوات سيعترف فوكو أن مسرحية (في انتظار غودو) كانت كشفًا ملهمًا له، أدّى به إلى قطيعة مع مشهد ثقافي فرنسي كان يبدو أسيرًا لتنظيرات سارتر وظلال الستالينية، وقد أوحت له المسرحية بأن يتحرك باتجاه فكري مختلف، رافضًا سارتر لأن فلسفته: «لا تزال تحتوي ذلك الافتراض المفلس عن الانسان كموضوع لاحترام الذات»، وسوف يؤكد فوكو في أشهر كتبه (الكلمات والأشياء) أن الصورة الغربية عن الإنسان ليست افتراضًا يدافع عنه وإنما هي عمليات اجتماعية وتاريخية وهي في آخر المطاف نتاج الحضارة الرأسمالية. ويكتب في مقال بعنوان (الإنسان الغربي) إن: «الكائن البشري لم يعد له أي تاريخ أو بالأحرى فإنه يجد نفسه منذ أن يتكلم ويعمل ويعيش قد أصبح متداخلاً في نسيج وجوده الخاص مع أكثر من تواريخ، لاهي تابعة له ولا متجانسة معه»، ويتوصل فوكو إلى نتيجة

مفادها أن الانسان المعاصر معرّض لشكل جديد من الاغتراب، أعمق مما كان يتخيل ماركس أو أصحاب مدرسة فرانكفورت: «إنه مغترب منذ اللحظة الأولى لوجوده» ويضيف في المقال: «غريب جدًا ألا يكون الإنسان أكثر من صدع في نظام الأشياء.. ومن المريح جدًا والباعث على السلوى الاعتقاد بأن الإنسان اختراع جديد فقط، تغضن جديد.. وسوف يختفي مرة أخرى» هذا القول أثار استهجان التيار الوجودي الذي اعتبر مقولات فوكو محاولة لدفع الوجودية إلى زاوية من زوايا النسيان.

كان نيتشه أيضًا بالنسبة لفوكو أشبه بالكشف، لقد صعقته على وجه الخصوص مقالة نيتشه عن معلمه شوبنهاور والتي يؤكد فيها أن السعي الإنساني هو أن يصبح المرء ما هو عليه. ويجد في مقولة نيتشه أن كل إنسان تقوده روح حارسة، وعلى المرء أن يتّبع تلك الروح الحارسة. في ذلك الوقت، أصبح فوكو مبهورًا بفكرة الانتحار، ويحلم بالموت العنيف كتحقيق للوجود، في تلك الفترة أيضًا سحرته كتابات جورج باتاي، الذي كان يصر على أن: «ما من وسيلة للتآلف مع الموت أفضل من رَبْطِهِ بفكرة داعرة». لقد أثبت نيتشه وباتاي أن لديهما مزيجًا فلسفيًا وفكريًا مناسبًا لمزاج فوكو، في ذلك الوقت كان فوكو يمارس الجنس على أنه «مسرح إيروتيكي للقسوة». في العام ١٩٥٥ يقطع فوكو علاقته مع التعليم، حيث يتم تعينه ملحقًا ثقافيًا في السفارة الفرنسية بالسويد، وفي هذه السنوات أيضًا تبدأ القطيعة مع الحزب الشيوعي، لكنه يبقى مخلصًا للمعلم ماركس، ونراه يعلن: «وداعًا للمرجعيات المتماشية مع ما يُعلّم في الجامعة»، في السويد يعكف على دراسة المركيز دي ساد، وتراوده من جديد فكرة الانتحار: «إن الحياة الحقّة هي التي تنزلق من طرف أنشوطَة» وهو يقصد متعة الانتحار شنقًا.

***

عام ١٩٦٠ يعود إلى باريس ليمارس التدريس أستاذًا للفلسفة، وفي تلك الفترة تزداد سمعته الأكاديمية بعد أن نشر كتابه الكبير (تاريخ الجنون) عام ١٩٦١، وفيه يحلّل كيف تغير مفهوم المجتمع للجنون بعد عام ١٥٠٠م، قبل ذلك التاريخ يخبرنا فوكو أن المجانين كانوا يعاملون باحترام، ويعتبر أن لديهم منظورًا روحيًا بينما أصبح الجنون يعامل لاحقًا كمرض يتطلب السيطرة الاجتماعية والعلاج. وفي مقابلة معه يقول: «بعد دراسة الفلسفة أردتُ معرفة ما هو الجنون. كنت مجنونًا كفاية لأدرس العقل، وأصبحت الآن عاقلاً كفاية لأدرس الجنون».

في عام ١٩٦٣ نشر فوكو كتابه (ولادة العيادة) حيث استكشف مشاكل الانتحار والساديّة والمازوشية والمخدرات، إلا أن كتابه الأهم الذي أثار ضجة كبرى كان كتاب (الكلمات والأشياء) الصادر عام ١٩٦٦، وهو أول كتاب بعد كتب سارتر يلقى رواجًا كبيرًا عند القرّاء، ويعاد طبعه مرات عديدة في نفس سنة صدوره، وقد خصصّت له مجلة (الأزمنة الحديثة) التي كان يشرف عليها سارتر ملفًا خاصًا، حيث تم تلخيص الكتاب، ألحقته فيما بعد بمقال كتبه سارتر نفسه يهاجم فيه الكتاب: «يقدّم فوكو للناس ما هم بحاجة إليه، أي خليطًا انتقائيًا نجد فيه ألان روب غريبه والبنيوية والألسنيات ولاكان، وقد استخدمت بالتناوب كلها من أجل استحالة أي فكر تاريخي.. لعل المستهدف من كتاب فوكو هو بالطبع الماركسية، إن الأمر يتعلق بتشكيل أيديولوجيا فكرية جديدة تكون بمثابة آخر حاجز تقيمه البرجوازية ضد ماركس».

كان سارتر يشعر في قرارة نفسه أن فوكو يحاول أن يضع حدًا فاصلاً بين عالمين فلسفيين، عالم ما قبل سارتر وعالم ما بعد سارتر. واعتبر البعض أن

فوكو يحاول أن يحلّ محل سارتر ويتخذ وظيفته نفسها كقائد للفكر الفرنسي الجديد، إلا أن فوكو وهو يرد على مقال سارتر كان يحاول أن يلتزم حدود الاحترام للأستاذ كما كان يسمي سارتر: «وجدنا أنفسنا منذ نحو خمسة عشر عامًا بعيدين عن الجيل السابق، أي جيل سارتر وميرلو بونتي، جيل الأزمنة الحديثة الذي كان فيها مضى قانون فكرنا وطرازنا في الوجود.. لقد عرفنا جيل سارتر كجيل شجاع وكريم بالتأكيد ورأيناه جيلاً مولّهًا بالحياة السياسية والاجتماعية والوجود، ولكننا نحن فيما يخصنا اكتشفنا شيئًا آخر بالتأكيد وولهًا آخر. إنه الوله بالمفهوم، وبما سوف أدعوه بالنظام الضابط. إن نقطة الانقطاع أو القطيعة بيننا وبين سارتر تتموضع في اللحظة التي اكتشف فيها ليفي شتراوس وجاك لاكان، الأول فيما يخص المجتمعات والثاني فيما يخص اللاوعي».

ولعل نقطة الخلاف بين سارتر وفوكو هي إعلان الأخير في كتابه عن موت الإنسان، وقد أحدثت هذه العبارة الكثير من سوء الفهم، ليس فقط عند القارئ العادي وإنما عند كبار المفكرين. حيث راح الكثيرون يتساءلون كيف يمكن أن يموت الإنسان؟ وهل من الممكن أن ينقرض نهائيًا من على سطح الكرة الأرضية؟ وماذا يبقى إذن؟ ويتساءل سارتر بسخرية إن كان السيد فوكو يمزح، أم أنه قد جنّ فعلاً.

وحين حاول بعض الصحفيين إحداث وقيعة بين سارتر وفوكو قال: «لا أقبل إطلاقًا بأن يتدخل الناس بيني وبين سارتر لكي يزيدوا من اتساع الشقة والخلاف، أو لكي يصطادوا في الماء العكر.. فأنا لست إلا تلميذًا صغيرًا لسارتر!». ويبدو أن هذه العبارة أعجبت سارتر جدًا، فعندما سألوه بعد سنوات عن فوكو قال: «ليست لي مشكلة معه. نحن نشتغل معًا، ونناضل من أجل نفس القضايا».

ينهي فوكو كتابه (الكلمات والأشياء) بعبارات شاعرية: «ذات يوم سيختفي الإنسان مثل وجه في الرمال على حافة البحر». وتبدو هذه العبارة متوافقة مع نيتشه الذي كتب ذات يوم: «هل نتمنى أن تنتهي البشرية في النار والضوء أو في الرمال».

***

الناشط السياسي

حقق كتاب (الكلمات والأشياء) شهرة لفوكو مع كثير من سوء الفهم، الذي دفعه للسفر إلى تونس للعمل في إحدى جامعاتها، وبقي فيها حتى أيار عام ١٩٦٨ حيث اندلعت تظاهرات الطلبة. وفي مناخ مليء بالسياسة أصبح فوكو رئيسًا لقسم الفلسفة في جامعة فينسين، وفي خضم الاحتجاجات الطلابية، قال فوكو إن ثورة الطلبة هي ما أخرجته من شغفه بالحوار وأعادته من جديد إلى السياسة، وسرعان ما وجد فوكو نفسه يتصدر الاحتجاجات وهو يحمل مكبر الصوت إلى جانب سارتر. كان في الثانية والأربعين حليق الراس، وقد حاول أن يميّز مظهره بملابس غير رسمية تجعله بعيدًا عن شكل الأستاذ الجامعي المعتاد، نظارات طبية بلا إطار وسترة جلدية وقمصان بيضاء لماعة. كان يبدو شكله غريبًا وهو يلقي محاضرات الفلسفة في الجامعة، ونراه يقوم بتوزيع صحيفة (قضية الشعب) التي كان يصدرها مجموعة من الطلبة الماويين، كانت الصحيفة تحمل في صفحاتها الأولى صورة لقائد الثورة الصينية ماوتسي تونغ، كان معجبًا بشعارهم «العنف، العقوبة، الأخلاق».

عام ١٩٧٦، نشر كتابه الكبير (تاريخ الجنسانية) في ثلاثة أجزاء، ظهر الجزء الأول بعنوان (إرادة المعرفة)، ونشر الجزءان الثاني والثالث قبل وفاته بأيام فقط. وفي هذا الكتاب انتقل تركيزه باتجاه فهم الأخلاقيات في سياق تاريخي. كيف فهم الناس في أزمنة سابقة أخلاقية تصرفاتهم. وبينما كان

في الجزء الأول يبحث في الجنسانية في العصر الحديث، فقد استكشف في الأجزاء الأخرى الجنسانية في اليونان وروما القديمتين. وفي المجلد الرابع الذي لم ينشر إلا بعد وفاته يعود إلى دراسة استخدام السلطة في المجتمع، لأنه آمن بأن القيود المطبقة على الناس تمنعهم من التعبير عن قواهم، مما يجعلهم يجدون مخرجًا لهم في التخيلات الجنسية.

طوال السبعينيات كان ناشطًا سياسيًا، وأيّد قيام دولة فيتنام، ودعم الثورة في إيران، وفي الثمانينيات بدأت أعراض المرض عليه. وبعد تسليم المطبعة للمجلد الثاني والثالث من (تاريخ الجنسانية) انهار في شقته ليتم الكشف عن إصابته بمرض الإيدز. عند موته وجدوا عند سريره الأعمال الكاملة لإنطوان آرتو، وقد وضع فوكو تحت هذه العبارة خطًا كبيرًا: «أنا لست من عالمكم.. عالمي هو الجانب الآخر من كل شيء، يعرف، وعلى وعي بنفسه، ويرغب، ويصنع نفسه».

إذا كانت قصة فوكو الشخصية تبدو غريبة ومزعجة أحيانًا، فذلك لأنه واصل فلسفته إلى أقصى مداها المنطقي، وكما يقول جيل دولوز: «فوكو عمل بنصيحة نيتشه بأن يصبح الإنسان ما هو عليه بكل جدية، أو بمعنى آخر أن يصبح كائنًا جوهره هو إرادة القوة لديه».

***

ما الذي يجب أن تقرأه لميشيل فوكو؟

- حفريات المعرفة، ترجمة: د. سالم يفوت.
- الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي وآخرون.
- المراقبة والمعاقبة ولادة السجن، ترجمة: سالم يفوت.
- تاريخ الجنسانية، ترجمة وتقديم: مطاع صفدي.

- تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة: سعيد بنكراد.
- يجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة: زواوي بغورة.

وماذا بعد عن مصادر ميشيل فوكو في العربية؟

- أقدم لك فوكو، تأليف: كريس هورروكس وزوران جفتيك، وترجمة: إمام عبد الفتاح إمام.
- المعرفة والسطة.. مدخل لقراءة فوكو، تأليف: جيل دولوز، وترجمة: سالم يفوت.
- ميشيل فوكو.. مسيرة فلسفية، تأليف: بول رابينوف، وترجمة: جورج أبي صالح.
- مدخل إلى فلسفة ميشيل فوكو، تأليف: الزواوي بغورة.
- فوكو قارئًا نيتشه.. حول التأويل والجينيالوجيا والمعرفة، تأليف: نور الدين الشابي.

-18-
من يريد أن يتابع الفيلسوف عليه أن يُطلق الفلسفة

كان في أواخر مراهقته حين أدرك أنه يجب أن يدوّن أفكاره في دفتر صغير: «لكي يكون دفتري منظّمًا على النحو المطلوب، فإنه يتحتم عليّ، إذا جاز التعبير، أن أخطو خارجًا منه مباشرة إلى الحياة، حتى لا أضطر إلى الصعود بحثًا عن النور كما لو كنت في قبو، أو إلى الهبوط مرة أخرى إلى الأرض»، لكنه في لحظة ما شعر بعدم تمكّنه من تذوق الحياة جيدًا، رغم ثروة والده الطائلة، وفيما أصرَّ شقيقه على دراسة الموسيقى، كان هو مهتمًا بهندسة الطيران التي قضى معها ثلاث سنوات دراسية، ليتخرج مهندسًا متخصصًا في تصميم مراوح الطائرات. في تلك الفترة أخذ يدوّن ملاحظات عن علم الرياضيات، وكانت الرياضيات بوابة للدخول إلى عالم الفلسفة، وليجد نفسه في مواجهة كتاب (أصول الرياضيات) لبرتراند رسل، فأُصيب بالذهول وتساءل: «هل يمكن لعقل بشري أن يكتب مثل هذه الصفحات؟»

***

الهوس بالرياضيات

كان رسل يسعى لإظهار أن الرياضيات تستند إلى المنطق بشكل أساسي، فقرّر الشاب لودفيغ فيتغنشتاين أن يكتب كتابًا يقلّد فيه الفيلسوف الإنكليزي، فاعتزل عائلته وأصدقاءه لمدة ستة أشهر ليخرج بدفتر ضخم كتب عليه (أُسس علم المنطق والرياضيات)، وذيّله بإهداء كتب فيه: «إلى

الأستاذ الذي مسح بأفكاري الأرض مسحًا.. برتراند رسل». عرض الكتاب على أستاذه عالم الرياضيات جتاوب فريغ الذي نصحه بأن يمزقه ويترك الهندسة، ليذهب للدراسة تحت إشراف الإنكليزي برتراند رسل، فقرّر الذهاب إلى كامبردج للدراسة، ولأن التخلي عن الهندسة من أجل الفلسفة سيغضب والده، قرّر أن يستشير الأستاذ رسل. كان الفيلسوف الإنكليزي في أوج شهرته، يبلغ من العمر أربعين عامًا، ينتمي إلى أسرة أرستقراطية، مشهور بمغامراته النسائية، فيما كان فيتغنشتاين في الثانية والعشرين من عمره طالبًا مغمورًا، على الرغم من أن أسرته تتمتع بثراء عظيم. ويكتب رسل في سيرته الذاتية عن هذا اللقاء واصفًا التلميذ: «كان غريبًا أنه محصّن ضد أي هجوم يتعلق بالمنطق، كانت آراؤه غريبة إلى حد أنني لم أحسم أمري طيلة المقابلة إن كان هذا الشخص الواقف أمامي عبقريًا أم مجرد شاب غريب الأطوار، لكنني توصّلت بعد ساعتين من الحديث إلى أن الحديث معه مضيعة للوقت». فيما يكتب فيتغنشتاين في دفتره الصغير: «كان أول سؤال سألته لرسل: هل تظنني أحمقًا وجبانًا؟ قال لي: لماذا تسأل هذا السؤال؟ قلت له وأنا أنظر في السماء: لأنني لو كنت أحمقًا فسوف أصبح ملاحًا جويًا، أما إذا كنت غير ذلك فسوف أصبح فيلسوفًا». ومن أجل أن يعرف الأستاذ أن هذا التلميذ غبي حقًا أم لا، طلب منه أن يكتب بحثًا حول أي موضوع فلسفي، كان الأستاذ يريد أن يتخلص منه وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لكشف تخلّف هذا التلميذ النمساوي وغبائه وعنجهيته، هكذا كان رسل يفكر آنذاك، لكن التلميذ عاد بعد أسابيع وهو يحمل دراسة عن المنطق، ما أن قرأ رسل أول جملة منها حتى نهض من مكانه وهو يصرخ: «أخيراً وجدت الفيلسوف الذي يحلُّ المشاكل بعد أن أصبحت كبيرًا وعاجزًا عن حلها، هذا الشاب يمثّل النموذج الفعلي للعبقرية»، بعدها بأشهر نجد رسل يقول لأخت فيتغنشتاين التي جاءت لتطمئن على أخيها: «أتوقع أن

الخطوة الكبيرة التالية في الفلسفة ستتم من خلال أخيك». بعدها يكتب رسل في رسائله إلى زوجته: «فيتغنشتاين حدث عظيم في حياتي، وهو الرجل الصغير الذي يعقد عليه المرء آمالاً».

***

عشّاق الموسيقى

مهندس، عسكري، مزارع، معلم فلسفة، معماريّ، ناسك، عضو في فريق الطوارئ، قبل أن يتعرّف على الفلسفة كان يجد حياته في شيئين؛ الميكانيكا والموسيقى. قال عنه هيدجر: «ظلّ طوال حياته القصيرة لا يتوقف أبدًا عن تغيير مفاهيمنا باستمرار».

وُلد لودفيغ فيتغنشتاين في فيينا عام ١٨٨٩ لعائلة تعشق الموسيقى، كان بيتهم الكبير يضمّ سبع آلات بيانو، جميع أفراد العائلة عازفون مهرة، ومن أجل شقيقه الأكبر سوف يؤلّف الموسيقي الشهير موريس رافيل مقطوعته الشهيرة «بوليرو»، وكان الموسيقار براهامز صديقًا حميمًا لوالده مثله مثل العديد من الرسامين والموسيقيين والأدباء الذين كان يعجّ بهم القصر كل مساء. الأب كارل ثري جدًا، صاحب مصاهر للحديد. في الرابعة عشرة من عمره اخترع فيتغنشتاين ماكنة خياطة تعمل بطريقة الدواليب، كان أحد زملائه في الصف واسمه أدولف هتلر معجبًا بأفكاره العلمية وطموحاته، وذات يوم قال له: «أتمنى أن نصنع أنا وأنت سلاحًا خارقًا»، بعد سنوات سيتذكر هذا التلميذ وهو يشاهده يخطب بالملايين ويعلن الحرب على أوروبا.

كان لودفيغ الأصغر بين أبناء هذه الأسرة الغنية المتكونة من خمسة أبناء، أكبر الأبناء هانس معجزة موسيقية، أثار إعجاب كبار موسيقيي عصره. لكن الأب الذي كان يريد لأبنائه أن يرثوا مهنته، أجبره على ترك الموسيقى

والتفرغ للأعمال الصناعية، مما أدّى به إلى الانتحار، وهو في سن السادسة والعشرين، وبعدها بسنتين أقدم شقيقه الآخر رودلف على قتل نفسه، فيما وجدوا شقيقه الثالث منتحرًا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، لأن جنوده لم يتبعوه في المعركة.

كان فيتغنشتاين، معذبًا بذكاء استثنائي ، وفي سن العشرين باشر دراساته في مجال الهندسة، وسافر إلى مانشستر ليدرس هندسة الطيران، فبدأت الرياضيات تستهويه، كما ستستهويه بعد حين مسائل المنطق والفلسفة، وسوف يتابع في كمبردج دروس برتراند رسل الذي كان قد نشر مع الفيلسوف ألفريد نورث وايتهيد « كتاب مبادىء الرياضيات»، تحول فتغنشتين نحو الفلسفة، فاقم الصراع مع والده الذي كان يجد فيها مهنة غير مفيدة للعائلة، الامر الذي زاد من مرض العصاب الذي كان يلم به بين الحين والآخر، وذات يوم سأل رسل تلميذه فتغنشتين عندما رآه بحالة دائمة من القلق: «هل تفكر بالمنطق ام بخطاياتك »؟ وأجابه بكليهما عندها أصبح رسل قلقاً على تلميذه الذي كان يرى فيه خليفة له ، من ان يتجه نحو الجنون، ويكتب رسل في يومياته :«فتغنشتين على حافة انهيار عصبي، وليس بعيدا عن الانتحار» .

حين عُيّن فيتغنشتاين على متن المدمرة الحربية فيستيل، كتب أول مؤلفاته في دفتر صغير، وسط ضجيج الآلات والتعب وتقلبات الجو. كانت غايته من الكتاب هو إيجاد حل لمشكلته مع الفلسفة، التي أصرّ على أن الجوهري فيه هو علاقة اللغة بحل مسائل الفلسفة والمنطق، فالجمل المجردة من المعنى وحدها تصف وقائع وأحداثًا تجري في العالم، لكن على أي شيء يتركز العالم ذاته، نسيجًا وحضورًا هذا هو ما يبقى التعبير عنه مستحيلاً: «إذا كان لا بدّ من أن أجيب على سؤال: ما الأخضر؟ يطرحه شخص لا يعرف عن

الأخضر شيئًا، فلا يمكنني إلا أن أقول: هو هذا، وأنا أشير إلى شيء أخضر. بإمكاننا أن نشير بالبنان إلى هذا الواقع الخارج عن اللغة وأن نبرهنه، لكننا لا نستطيع التعبير عنه». يُسمي فيتغنشتاين هذا الواقع بالمجازي، والخطأ الأكبر شيوعًا هو إرادة التعبير عن هذا المجازي الذي لا يوصف، لذا يضع مقابل هذا الوهم قاعدة تقول: «ينبغي إخفاء ما لا نستطيع قوله».

أعطى اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام ١٩١٤ فيتغنشتاين منفذًا لرغبته في الموت. لقد تطوّع بسرعة في الجيش، على الرغم من وضعه الصحي، وتراه يكتب بعد سنوات: «ذهبت إلى الحرب على أمل أن يحميني الموت في المعارك من فكرة الانتحار». شارك في الحرب بكل قواه، وكان من المرشحين لنيل الأوسمة عدة مرات، ونراه يمجّد الحرب في قصيدة قصيرة، ويرسل إلى أستاذه برتراند رسل رسالة يسخر فيها من دعواته للسلم، لكن نراه يكتب بعد سنوات: «وجدت نفسي مثل العديد من البشر قد أصابهم هوس الحرب»، في الأسر الذي وقع فيه عام ١٩١٨ ينهمك في قراءة مؤلفات تولستوي وتسحره الحرب والسلم ويصبح مشبّعًا بتعاليم الأديب الروسي الكبير: «الإنسان ضعيف في الجسد، لكنه حرّ بسبب روحه»، وقد تقبّل فيتغنشتاين آراء تولستوي حول الجنس التي وجد أنه يتعارض مع الحياة الروحية للإنسان، لقد أصبحت أفكاره بعد الحرب تذهب باتجاه التدين العميق، وفي تلك السنوات يعثر على مؤلفات شوبنهاور التي تسحره، وتسيطر على فكره، بحيث تكاد الصفحات الأولى من كتابه (الأطروحة) أن تكون نسخة جديدة من كتاب (العالم إرادة وتمثلاً)، أضخم أعمال شوبنهاور وتحفته في التشاؤم واليأس.

في الأسر ينتهي من كتابه الأطروحة، وبعد إطلاق سراحه عام ١٩١٩ يعود إلى أسرته في فيينا، محمّلاً بأفكار شوبنهاور المحبطة. وفي القصر الكبير

للعائلة يواجه أشقائه بقرار مفاجئ، وهو رغبته في أن يصبح معلمًا في إحدى المدارس الابتدائية. حيث انتقل عام ١٩٢٠ إلى قرية جبلية في أطراف النمسا ليهرب من العالم، ويؤكد بعض كتّاب سيرة فيتغنشتاين أن فترات الانعزال في حياته، ربما كانت بسبب ميوله الجنسية المتقلبة ونراه يكتب إلى شقيقه قائلاً: «أصبحت الأمور تعيسة في الآونة الأخيرة.. فقط بسبب حساسية تعففي، لقد فكرت دائمًا بإنهاء حياتي، ولا تزال تلك الفكرة تراودني الآن، لقد غرقت حتى القاع». وليحرم نفسه من الاستسلام للغواية والملذّات، قرّر أن يمنح نصيبه الكبير من ثروة والده المتوفى إلى أشقائه، ولم يكن برتراند رسل معجبًا بهذا الزهد والتخلي عن الثروة وقد قال له: «مليونير ويعمل معلمًا في قرية، بالتأكيد مثل هذا الشخص إما منحرف أو أحمق».

أمضى ست سنوات في وظيفة معلم القرية، قطعها عام ١٩٢٦ بشكل مفاجئ، ليعود إلى فيينا حيث احتفت به الجمعية الفلسفية في فيينا التي اعتبرت كتابه (الأطروحة) لوحًا فلسفيًا مقدسًا. وكان أعضاء الجمعية ينتظرون بشغف حضور فيلسوفهم الكبير، لكنه خيّب أملهم حيث ذهب ليعمل بستانيًا في أحد الأديرة قرب فيينا، كان يفكر بالالتحاق بالرهبان، لكن رئيس الدير رفض طلبه، لشكوكه بتصرفات فيتغنشتاين التي كان يرى أنها غريبة وبعيدة عن الدين.

***

الأطروحة المثيرة

كُتبت أطروحة فيتغنشتاين بطريقة مختصرة جدًا وفي سبع وخمسين صفحة فقط، وأراد من خلالها أن يتناول قضايا المنطق والرياضيات وعلم ما وراء الطبيعة والتصوف، بدأ أطروحته بعبارات مرقمة وكل عبارة تتبعها عبارات فرعية مرقمة أيضًا.

١. العالم هو كل ما يشكل الحالة.

1.1 العالم هو مجموع الحقائق، وليس مجموع الأشياء.

1.1 , 1 العالم يتحدد بالحقائق، أي الحقائق كلها.

2.1 , 1 لأن مجموع الحقائق يحدد الحالة وما هو غير الحالة.

والكتاب كله يستمر بهذه الطريقة، لكنه ينتهي بملاحظة غريبة ومختلفة:

«أي شيء لا يستطيع الإنسان قوله، يوجب عليه أن يبقى صامتًا».

عندما التحق فيتغنشتاين أخيرًا بمناقشات الجمعية الفلسفية في فيينا عام ١٩٢٧ لم يرقَ له أعضاء الجمعية الذين وجدهم سوقيين عديمي الأناقة، وكان تفكيره الذي لم يهدأ على الرغم من أنه لم يكتب شيئًا في الواقع يتطور بطرق لا يستطيع التعبير عنها بشكل سهل، حيث بدأ بالابتعاد عن نظرية اللغة والتوجه نحو الوظيفة الإبداعية للغة وللعديد من الطرق التي يمكن استخدامها بها، ومن الآن أصبحت اللغة تفهم عبر المراقبة، بدلاً من التحليل. وكان فيتغنشتاين يعتقد أنه لم يحلّ جميع المشاكل بكتابه (الأطروحة) ولهذا أدرك آنذاك أن هناك المزيد من التفكير الذي عليه القيام به، وحسب أحد المقربين منه: «كان لا يحتمل أي اختبار نقدي من الآخرين، ما أن يحصل على البصيرة بفعل الإلهام، فإن الانطباع الذي يتركه لدينا هو كما لو أن البصيرة وصلته من خلال وحي سماوي»، ولأنه لم يجد سكان فيينا مستمعين ملهمين له بدأ فيتغنشتاين قراءة أشعار رابندرات طاغور وهو يجلس قبالة الجدار.

عام ١٩٢٩ تقرر جامعة كامبردج إعادته إليها، هناك استطاع بسهولة أن يؤثّر بأساتذته من جديد وقد وصف رسل الأطروحة بأنها عمل شخص عبقري، ومع حصوله على شهادة الدكتوراه حصل على منحة محاضر. ظلّ فيتغنشتاين في كامبردج حتى عام ١٩٣٦ ثم رحل إلى النرويج، حيث

تفرّغ لمدة عام لتأليف كتابه (أبحاث فلسفية)، ثم عاد إلى الجامعة ليخلف الفيلسوف مور على كرسي الفلسفة. ولما نشبت الحرب العالمية الثانية شارك فيها فعمل في أحد المعامل الطبية، وعاوده القلق من جديد لنراه يعتزل كرسي الفلسفة عام ١٩٤٧، ويستقر في مزرعة بالريف الإيرلندي حيث عاش في وحدة تامة، وهناك أكمل الجزء الثاني من كتابه (أبحاث فلسفية).

مرض فيتغنشتاين في تلك الفترة مرضًا شديدًا، وتبيّن عام ١٩٤٩ أنه يعاني من مرض السرطان، ليتوفى في ٢٩ أيار عام ١٩٥١ وكان آخر عبارة قالها لمرضته: «قولي لهم إنني قد عشت حياة رائعة».

***

تحقيقات فلسفية

في عام ١٩٣٨، يلتقي الفيلسوف الأميركي نورمان مالكوم بفيتغنشتاين فيسحره الأخير ليصبح أحد تلامذته، ونراه يصف اللقاء: «رأيت فيتغنشتاين لأول مرة في اجتماع نادي العلوم الاجتماعية في جامعة كمبردج. كان يتكلم بصعوبة وكانت كلماته تبدو غير مفهومة بالنسبة لي. وحين همست إلى الشخص الجالس بجواري متسائلاً: من هذا؟ أجابني إنه فيتغنشتاين، وقد دهشت لأنني كنت أتوقع أن يكون مؤلف (رسالة منطقية فلسفية) الشهيرة رجلاً متقدمًا في السن، في حين بدا هذا الرجل شابًا في نحو الأربعين (كان عمره الحقيقي آنذاك ٤٩ عامًا) وكان وجهه نحيلاً، ذو أنف أقنى كما كان رأسه مغطّى بخصل من الشعر البني. وقد لاحظت الاهتمام البالغ الذي وجّهه إليه كل الحاضرين في القاعة. وهو لم يتكلم كثيرًا في ذلك اليوم، بل كان يبدو عليه كما لو أنه يصارع أفكاره وكانت نظراته مركزة كما كان يبدي بيديه حركات كما لو كان يناقش أحدًا. وقد ظلّ الجميع في حالة صمت إلى أن انتهى فيتغنشتاين».

عندما نشر كتاب (تحقيقات فلسفية) عام ١٩٥٣ فإن المرحلة الثانية من عمله قد تركت تأثيرًا هائلاً على الفلسفة في سنوات ما بعد الحرب. لم تعد اللغة عبارة عن دلالات خارجية، بل مجالاً واسعًا من أشكال الحياة المختلفة، تحدد اللغة عالمًا أغنى وأكثر تباينًا مما كان يعتقد سابقًا. اللغة كما هي تعني ما تقوم به، وما لا يتم تقييمه بالرجوع إليها.

***

الفيلسوف المجهول

في تاريخ الفلسفة، ليس هناك من فيلسوف اختلف حوله الناس مثل فيتغنشتاين الذي ظلّ مجهولاً لسنوات طويلة، ولا يتداول اسمه إلا النخبة من المهتمين بالفلسفة واللغة. وبقدر ما كان عبقريًا في تأسيس فلسفة جديدة بقدر هدمه لنفس الفلسفة التي بدأها. كان فيتغنشتاين يتذكر دومًا مقولة نيتشه: «أصل نفسك حربًا لا هوادة فيها ولا تهتم بالخسائر والأرباح، فهذا من شأن الحقيقة لا من شأنك أنت. وإذا أردت الراحة فاعتقد، وإن أردت أن تكون من حواريي الحقيقة فاسأل».

مؤلفات فيتغنشتاين هزّت الأوساط الفلسفية وما زالت حتى اليوم، على الرغم من نبذ صاحبها الفلسفة وراءه: «من يريد أن يتابع الفيلسوف عليه أن يطلق الفلسفة، لأنها تضعنا أمام الأشياء في حملة ألغاز، وعلينا أن نعود إلى اللغة البسيطة لفهم الأشياء عند استعمالها، وليس بها نضيف عليها من معاني».

ومن وجهة نظره فإن القضية المحورية ومشكلة المشاكل هي علاقة اللغة بالعالم، واستخدم لها مثلاً طنين الذبابة في الزجاجة، أي تلك التي تخرج الذبابة من حيرتها عبر عنق الزجاجة إلى الفضاء الفسيح.

ولعل أعظم ما في فلسفة فيتغنشتاين تفكيكه لعمل اللغة، وأن اللغة في أحسن أحوالها تصوّر الواقع، ولكن ليس من واقعة مرتبطة بأخرى بأي وسيلة من الوسائل، وهذا يعني أن اللغة وهم، ولعل أفضل ما فيها أنها قناة تواصل، ولكن من خلال الاستعمال فقط. فالكلمة لا تحمل المعنى، بل نحن من يشحنها بالمعنى، وأفضل مبدأ هو «التحقق» من الكلمات، وهو ببساطة الرجوع إلى الواقع. وكان فيتغنشتاين يقول: «إن اللغة لا تزيد عن كونها لعبة». وقد اعتبر فيتغنشتاين مؤسسًا للفلسفة الوضعية المنطقية. وهي الفلسفة التي تقول إن العالم يتكون من أشياء ومن هيئات تسمى «حالات الأشياء». تشكل الأشياء جوهر العالم، وهي بصفتها أشياء بسيطة وثابتة ومستقلة عن حالات الأشياء، أما في حالة الأشياء أو الوقائع، فالأشياء ترتبط فيما بينها عبر علاقات، بحيث تشكّل هذه العلاقات العدة المنطقية للعالم، وهي تحدّد بذلك نقطة الالتقاء بين اللغة والعالم. فإسطوانة الفونغراف والفكرة الموسيقية والنوتة والموجات الصوتية، جميعها تقوم الواحد منها بالنسبة إلى الأخرى ضمن هذه العلاقة الداخلية من التمثل التي نجدها بين اللغة العالم، إن البنية المنطقية هي المشتركة فيها جميعا.

في السنتين الأخيرتين من حياته كتب فيتغنشتاين عن موضوع اليقين، فقد افترض الفلاسفة أن معرفتنا قائمة على حقائق أساسية يجب أخذها على أنها حقائق مسلم بها. وإذا لم نأخذها على أنها كذلك فإن صرح المعرفة بأسره سوف يكون غير مؤكد، وسيسود الشك كل شيء في هذا العالم. وحينها لن نعرف حتى إذا كنا نحلم أم لا. إن قضية الفيلسوف ديكارت المنطقية (أنا أفكر إذن أنا موجود) تعتبر مثالاً ذائع الصيت على افتراض الوصول إلى أعماق الحقيقة.

وقد حاول فيتغنشتاين أن يثير الشك حول مقولات ديكارت، فالقول

أمام شجرة إننا نعرف أن هذه شجرة، وضع لا يحصل أبدًا وإذا اصطنعناه نصطنع في الوقت نفسه وهم معرفة لا تتطابق مع شيء. من وجهة نظره فليس هناك من معنى للقول «أعرف أن هذه يدي» أو «أصابع قدمي عشرة وأنا متأكد من ذلك» لأننا في الواقع لا نفكر فيها أبدًا، وعليه فإن ما يميّز اليقين ليس كون المرء واضحًا، بل بالعكس يميّزه التزامه بالصمت. يريد منا فيتغنشتاين أن نطرح أسئلة المعرفة كلها بصورة مختلفة، وعلينا أن نضيف مقولات فيتغنشتاين إلى كلمة سقراط الشهيرة: «أعرف إنني لا أعرف شيئًا»، وإلى مقولة كانط: «ماذا بإمكاني أن أعرف؟» لتتلخص فلسفته فيتغنشتاين بالمقولة الشهيرة: «أحيا أولاً، وأعرف بعد ذلك».

يبقى تحديد مكانة فيتغنشتاين أمرًا عسيرًا، لكن ليس من خلاف حول الأهمية الكبيرة لفكره في القرن العشرين. ويظهر كتابه (تحقيقات فلسفية) باعتباره واحدًا من أكثر الكتب تأثيرًا في الفلسفة الحديثة، وقد حاولت فلسفته إعادة توجيه تيار الفلاسفة الغربيين الفكري منذ ديكارت. لقد قال عنه ميشيل فوكو: «يناسبه لقب الصوفي الغامض، لقد كان يظهر لمستمعيه أشبه بالساحر أو الحكيم»، ويضيف فوكو: «يعتقد الناس بأن رجلاً مثله عبارة عن مجنون، لكن على المرء ألا يقيس هذا الفيلسوف حسب المعايير العامة».

***

ما الذي يجب أن تقرأه للودفيغ فيتغنشتاين وعنه؟

- تحقيقات فلسفية، تأليف: لودفيغ فيتغنشتاين، وترجمة وتقديم: عبد الرزاق بنور.
- فتجنشتين، تأليف: هانس سلوجا، وترجمة: د. صلاح إسماعيل.

- لودفيغ فيتغنشتاين، من سلسلة أعلام الفكر العالمي، تأليف: عزمي إسلام.
- فلسفة اللغة عند لودفيغ فيتغنشتاين، تأليف: جمال حمود.

-19-

حيث ينبغي أن ينتظر الفيلسوف كبقية الناس خطب الفوهرر

في الخامسة عشرة من عمره وقع بصره على مقالة في مجلة (البلاغ الأسبوعي) عن نيتشه بقلم عباس محمود العقاد، وكانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها باسم هذا الفيلسوف الألماني. لم تثر المقالة في نفسه أية حماسة لطلب المزيد، لكنه بعد أسابيع توقف عند مقالات كان ينشرها طه حسين في مجلة (الهلال) جُمعت فيها بعد في كتاب بعنوان (قادة الفكر)، إلا أن البداية الحقيقية لعبدالرحمن بدوي مع الفلسفة، كانت عندما أهدى إليه أحد أقاربه كتاب (مبادئ الفلسفة) الذي ترجمه إلى العربية أحمد أمين، وكان آنذاك قد بلغ السادسة عشرة من عمره.

***

في القاهرة، المدينة الضاجة بالحياة التي جاء إليها من إحدى قرى الصعيد، هاربًا من والده الثري الذي أراد للابن أن يدخل كلية الحقوق لأنها تخرّج وزراء، ولأن الكتب «لحست» عقله كما كان يردد الأب غاضبًا، فقد قرر أن يعتمد على نفسه، فقدّم أوراقه لكلية الآداب ومعها توصية من طه حسين لإعفائه من رسوم الجامعة، التي قرّر الوالد أن يحرمه منها. في هذه المدينة اكتشف أن وظيفته الأهم هي أن يصبح فيلسوفًا، لم يكن سوى شخص بدين يصفه أنيس منصور وقد درس الفلسفة على يديه: «أسمر اللون، كبير الرأس،

أصلع قليلاً وكانت له عينان سوداوان لامعتان، وكانت له شفتان مزمومتان دائمًا، وكان يرتدي بدلة زرقاء، وكانت ألوان دفاتره زرقاء أيضًا. وعندما زرته في بيته، وجدته يضع تمثالاً نصفيًا لصاحب كتاب (تدهور الغرب) شبلنجر، الذي كان يرى أن اللون الأزرق هو أرقى الألوان جميعها. كان في الجامعة يمشي على عجل، لا ينظر إلى أحد، ليس اجتماعيًا، لا أحد يقترب منه، وكان يقول لنا إن فيلسوفه المفضّل هيدجر اعتزل الناس وسكن الجبال، وتغطى بالسحاب، وقد أسماه فيلسوف القمم الباردة والعظمة المنعزلة».

ولِدَ عبدالرحمن بدوي عام ١٩١٧، وكان الخامس عشر بين إخوة وأخوات بلغوا الواحد والعشرين. كانت عائلته متجذرة في المجتمع الريفي، ولهذا أصبح لديه فيما بعد إحساس قوي بانتمائه لأصوله الفلاحية، وقد ترسّخ هذا الإحساس بعد أن تعمّق في دراسة حياة الفيلسوف الألماني هيدجر الذي كان يظهر لنفسه دائمًا كشخص ريفي قروي، غير سعيد بثقافة المدن الكبيرة.

وفي سيرة حياته التي نشرها قبل وفاته بعامين عام ٢٠٠٠ يخبرنا بدوي عن جذوره الفلسفية فيقول: «العقاد حرث لي الأرض، وطه حسين بذرها، والفلاسفة الألمان قد هذّبوها».

أمضى أيامه الأخيرة في أحد فنادق باريس، محاطًا بكتبه وأوراقه وغضبه من الجميع الذين لم يسلموا من مذكراته الثأرية (سيرة حياتي). في كانون الثاني من عام ٢٠٠٢ سقط مغشيًا عليه في أحد شوارع باريس، وفي المستشفى طلب من الأطباء الاتصال بالسفارة المصرية لإبلاغها أن فيلسوف مصر في غرفة الطوارئ، عاد إلى القاهرة محمولاً على نقالة، ليموت بعد أربعة أشهر عن ٨٥ عامًا.

***

دائمًا يراه الطلبة يسير خلف أستاذه ومعلمه الخاص إدموند هوسرل، كان الأستاذ مغرمًا بارتداء البدلات الأنيقة مع قبعة لم تفارق رأسه حتى داخل قاعة الدرس، فيما التلميذ المخلص لم يستطع التأقلم مع جو المدينة، فنراه متمسكًا بزيه الفلاحي، بدلة زرقاء داكنة، مع حذاء جلد سميك. كان الطلبة والأساتذة ينظرون إلى الطالب القصير القائمة، الكبير الرأس، على أنه مجرد فلاح مغرور لكنه يشعر بداخله أنه يملك إحساسًا عظيمًا بحب الذات تعلّمه من قراءة كتب معلمه الأول فريدريك نيتشه، الذي تعلّم منه أن التاريخ الإنساني لا معنى له في حدٍّ ذاته ولا هدف نستطيع أن نقدّمه له: «التاريخ الإنساني ليس سوى بحر، إما نغرق أو نسبح فيه».

قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، قرأ مارتن هيدجر الجزء الأول من كتاب شبلنجر (تدهور الحضارة الغربية) بإعجاب كبير، وقد أثّر الكتاب عليه فيما بعد، وأصبحت نظرة هيدجر للغرب تنبئ عن كوارث قادمة. فقد كان تاريخ العالم في هذا القرن، كما كان يشرح لطلبته، إنما هو نتيجة «لإرادة الإرادة» لدى الغرب. سعى للقاء شبلنجر الذي كان يحضّر للجزء الثاني من الكتاب، وجد شبلنجر شديد التشاؤم مما يجري، يوجّه سهام نقده للأفكار الليبرالية باعتبارها أفكارًا تحتضر وبأن الديمقراطية مجرد لعبة تجارية، بعد المقابلة يصل هيدجر إلى استنتاج أن: «التفسخ الروحي لأوروبا قد وصل مرحلة متقدمة»، لدرجة أن: «الأمم أصبحت تواجه خطر فقدان آخر جزء من الطاقة الروحية، ذلك الجزء الذي يمكّنها من إدراك هذا الاضمحلال وتقدير حجمه». في تلك السنوات كان هيدجر مستغرقًا في قراءة أشعار فردريش هولدرلين، واستأذن أستاذه هوسرل أن يلقي محاضرة عن الشاعر الذي يقال إنه مات مجنونًا. كانت المحاضرة بعنوان (هولدرلين وجوهر الشعر)، طرح

فيها رؤيته عن جوهر الشعر، وتساءل في المحاضرة التي أصدرها فيما بعد في بحث موسّع بعنوان (ما الحاجة إلى الشعراء؟) أخذ العنوان من قصيدة شهيرة لهولدرلين بعنوان (وما الحاجة إلى الشعراء في هذا العصر البائس؟) تساءل فيه عن الشيء الذي يميّز هولدرلين عن كل شعراء الأرض ويجعل منه التجسيد الأعلى لجوهر الشعر؟ فيجيب هيدجر إنه الصدق المطلق مع الذات، فهو الصدق الذي وصل به إلى حافة الجنون: «لم يشأ هولدرلين أن يتورط مع الواقع أو أن يساوم على حقيقته الداخلية. وفضّل أن يفشل في الحياة على أن ينجح بشكل رخيص. بل إن جنون هولدرلين خلع على شعره هالة من السحر والجاذبية، والأسرار العميقة واللانهائية. فلأنه أصبح مجنونًا، لأنه عاش على حافة الجنون حتى قبل أن يجنّ فعلاً، فإنه استطاع أن يرى ما لا يُرى بالعين المجردة، استطاع أن يلمح من ثقب الباب ذلك العالم الآخر الذي يستعصي علينا ونحن في حالة العقل والمنطق».

ولد هيدجر في ٢٦ أيلول عام ١٨٨٩، لأب يصنع البراميل في النهار، ويلقي المواعظ في الكنيسة عند المساء. كان أكبر الأولاد، شكّلت بلدته الصغيرة الواقعة في منطقة بادن الألمانية أساس حياته، وقد ظلّ يظهر نفسه دائمًا كشخص قروي. في الرابعة عشرة من عمره دخل المدرسة الثانوية في مركز المدينة، بمساعدة من الأموال التي جمعها كاهن القرية له، وبفضل هذه الأموال حصل على شهادة البكالوريا من المعهد اللاهوتي عام ١٩٠٩. وبسبب سوء حالته الصحية عاد إلى قريته، بعد عامين من العزلة تخلى عن دراسته اللاهوتية، ونراه يتحول إلى دراسة الرياضيات والفلسفة، في ذلك الوقت من عام ١٩١١ قرأ كتاب (مباحث منطقية) لإدموند هوسرل الذي قلب حياته وأثّر كثيرًا على تطوره الفكري. كان هوسرل أستاذًا جامعيًا في فرايبرغ، وكتابه (مباحث منطقية) الصادر عام ١٩٠١ شكّل مرحلة فاصلة

في الفلسفة الحديثة. كانت الفلسفة آنذاك منقسمة إلى تيارين، الأول يستند إلى منهجية علمية، والثاني إلى فلسفة أدبية، وشرع هوسرل بنقد الاتجاهين، إن «الفلسفة علم» هذا ما سيؤكد عليه هوسرل في (مباحث منطقية)، سيخبرنا هيدجر فيما بعد أن أستاذه هوسرل: «سدّد ضربة قاصمة إلى فلسفة القرن التاسع عشر، وقد سعى إلى تأسيس الفلسفة كعلم صارم بالاستناد إلى تلك الظاهرات التي ترينا نفسها من تلقاء نفسها». يعرف منهج هوسرل بالظاهريات؛ إنه يهتم بظاهرة التجربة الفعلية، وقد كان الفلاسفة التجريبيون من أمثال هيوم قد أكدوا بإمكانية أن تخدعنا أحاسيسنا بما يخص العالم الخارجي، فيما ديكارت كان قد استنتج أن الشيء الوحيد الذي يمكننا معرفته بشكل مؤكد هو ذواتنا ككائنات تفكر، لكن هوسرل اعتبر أن الشيء الوحيد الذي نستطيع مناقشته بصدق هو العالم كما نختبره، وهو ما أطلق عليه «عالمنا الذي نعيش فيه»، لكن ماذا يشبه العالم الذي نعيش فيه؟ ما الذي ندركه عندما ندرك تجربتنا الخاصة، قدم سؤال هوسرل هذا نقطة البداية لفيلسوف جديد اسمه مارتن هيدجر، سيحاول فيما بعد تطوير فلسفة أستاذه من خلال كتاب شهير سيصبح الأهم في تاريخ الفكر الفلسفي الحديث أسماه (الوجود والزمان).

في تموز عام ١٩١٣، أصبح هيدجر مساعدًا لهوسرل في جامعة فرايبرغ، ويخبره الأستاذ أن: «المثالية الألمانية بجملتها على الدوام بالنسبة إلي مما ينبغي تقيؤه، لقد بحثت طوال حياتي عن الواقع».

في عام ١٩١٤، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، تطوّع هيدجر في الجيش، لكنه سُرّح بعد ثمانية أيام لأسباب صحية، وقد تأثّر بالقرار وقال لمعارفه: «لو منحوني فرصة مناسبة، فقد كنت أرغب في القتال».

في عام ١٩١٧ يتزوج، وتقدّم له زوجته كوخ بَنَته من أجله في تودنابيرغ.

وقد عاش في ذلك الكوخ كريفي، هاربًا من التطور الثقافي وأصبح الكوخ علامة من علامات حياته، حيث كان يدعو تلامذته لإلقاء محاضراته هناك، متفرغًا ليكتب معظم مؤلفاته الفلسفية.

في عام ١٩٢٣، ينتقل للتدريس في جامعة برلين، في تلك الفترة وخلال وجوده بالجامعة التقى بطالبة جديدة اسمها حنا أرندت، أصبحت فيما بعد محبوبته، كانت آنذاك في الثامنة عشرة من عمرها، وكان هو في الخامسة والثلاثين، لديه زوجة وولدان وتكشف الرسائل بينهما مدى عمق علاقتهما. في عام ١٩٢٥، يكتب لها: «عزيزتي حنا، لقد سيطر شيطاني عليَّ، هذا لم يحدث لي من قبل، في أثناء المطر، وفي الطريق إلى البيت، لم تكوني أكثر جمالاً وروعة مما كنت حينها، وأود أن أسير معك لليالٍ لا تنتهي».

***

أتيت إلى هذا العالم بالصدفة

في مقدمة سيرته الذاتية يكتب عبد الرحمن بدوي: «كل شيء بالصدفة، وبالصدفة أتيت إلى هذا العالم». هل تدلّ هذه العبارة على أن عبد الرحمن بدوي كان فيلسوفًا وجوديًا؟

يقول عبد الرحمن بدوي: «لقد ظلّت الوجودية بمنأى عن عبث الجهال من الكتّاب والصحفيين والوعّاظ حتى سنة ١٩٤٥ حين صارت الوجودية موضة من الموضات الأدبية والاجتماعية في فرنسا غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقد دارت هذه الموضة حول شخص جان بول سارتر فأُنشئت في باريس نوادٍ ليلية في حي سان جيرمان». ويضيف بدوي: «لا أدري ما هو الدور الحقيقي الذي لعبه جان بول سارتر. لم أكن أعرف لسارتر قبل ١٩٤٥ أية علاقة بالوجودية، لقد قرأت له قبل ذلك كتابه في علم النفس (التخيل)

عام ١٩٣٦ ولا صلة للكتاب بالوجودية، بل هو تأثر فيه بعلم النفس عند هوسرل وأول وآخر كتاب لسارتر في الوجودية هو كتاب (الوجود والعدم) سنة ١٩٤٣ ولم أقرأه إلا في باريس سنة ١٩٤٦، ولما قرأته وجدته بعيدًا كل البعد عن وجودية هيدجر وخليطًا من التحليلات النفسية، فدهشت من زعم سارتر أن هذا الكتاب إسهام في المذهب الوجودي، ولهذا قررتُ أن أترجمه للعربية لأثبت للقارئ العربي أن سارتر مجرد أديب وباحث نفساني يستند إلى منهج الظاهريات، ولم أعتبره قط فيلسوفًا وجوديًا قد أسهم بأي إسهام يذكر في تكوين المذهب الوجودي».

منذ أن أصدر كتابه الأول (نيتشه) عام ١٩٣٩، ظلّ عبد الرحمن بدوي يصدر كتابين أو ثلاثة كل عام، ونراه يكتب في الفلسفة اليونانية القديمة ويؤرّخ لفلسفة العصور الوسطى ويترجم مختلف النصوص الخاصة بالفلسفة الألمانية المعاصرة والفلسفة الوجودية، ويؤلف في المنطق ومناهج العلوم الفلسفية، فضلاً عن مؤلفاته في الزمان والوجود. وفي كل مرة يُثار السؤال: هل عبدالرحمن بدوي فيلسوف؟ وهل تحققت نبوءة طه حسين وهو يستمع إلى دفاع تلميذه عن رسالته للماجستير عام ١٩٤١ المعنونة (فلسفة الموت) حين قال: «الآن نستطيع أن نقول إنّ لدينا فيلسوف مصري»؟ كان نيتشه الذي ألّف عنه أول كتبه المصدر الملهم لمعظم أفكاره، كما أن هيدجر قد شكّل أحد أعمدته الفكرية. وحين أصبح للوجودية في الخمسينيات والستينيات رواجًا كبيرًا في العالم العربي، كان عبدالرحمن بدوي فارس الوجودية ورائدها، وعندما يصدر كتابه الشهير (الزمان الوجودي)، يؤكد أن الوجود الحقيقي هو وجود الذات الفردية، أما الوجود الموضوعي خارج الذات فهو مجرد أدوات للذات، وأن فعل الإرادة لا الفكر هو جوهر الذات، وهذا الفعل مرادفٌ للحرية، ولهذا فإن الذات والإرادة والحرية

معانٍ متشابكة، الحرية تقتضي الاختيار، والاختيار يقع بين ممكنات، وبهذا الاختيار تتحول الذات من حال الحرية إلى حال الضرورة. أي تصبح الإمكانية وجودًا في العالم، وهكذا يصبح للذات وجودان: وجود كذات حرة مفعمة بالإمكانيات التي لم تتحقق، وذات حققت بعض إمكانياتها، الوجود الأول يتميز بالحرية المطلقة، والوجود الثاني هو الوجود بين الأشياء في العالم. ويؤكّد بدوي أن انتقال الذات من حالة الإمكانية إلى حالة التحقق، إنما يتم في الزمان، ولهذا فالزمان حالة جوهرية للوجود المتحقق، على أن الوجود بهذا المعنى ليس وجودًا في الزمان، وإلا اتخذ الزمان شكل المكان، أي أصبح إطارًا خارجيًا للوجود. ويعتبر عبد الرحمن بدوي الرأي الذي توصل إليه ثورة في الفلسفة الوجودية، لأنه كما يخبرنا في موسوعته الفلسفية قد حدّد نوعين للزمان؛ زمان فيزيائي وزمان ذاتي، وهو ما أطلق عليه اسم الزمان الوجودي، وأن الزمان هو عامل جوهري في نسيج الوجود ذاته، ويعتبر الحرية صفة أولى لوجود الذات.

***

رسالة في النزعة الإنسانية

في ٢٩ تشرين ١٩٤٥، ألقى سارتر محاضرة بعنوان (هل الوجودية فلسفة إنسانية؟) سرعان ما أصبحت محاضرته هذه بيانًا للوجودية الفرنسية، التي شكّلت آنذاك حدثًا، حيث أعلن فيها أن هوسرل وهيدجر قد ألقيا بالإنسان مرة أخرى في خضم العالم، إذ إنهما أعطيا القياس الصحيح لآلام الإنسان ومعاناته وأيضًا لعصيانه. كان سارتر يريد أن يحوّل وجودية هيدجر إلى فلسفة حياة بالنسبة للإنسان الحر. في مقال هيدجر الشهيرة (رسالة في النزعة الإنسانية) الذي نشره عام ١٩٤٧ كرد على محاضرة سارتر، انتقد هيدجر الفلسفة الإنسانية التقليدية بسبب تعريفها للإنسان باعتباره «حيوان عاقل»

أو «حيوان ناطق»، ينتقص هذا المفهوم في رأي هيدجر من قيمة الإنسان ويؤدي بسهولة إلى ظهور مجتمع صناعي يعرف الإنسان من حيث إنتاجيته، ويقيم كل القيم من حيث نفعها الاجتماعي أو الشخصي. ويرى هيدجر أن سارتر عاجز عن الهروب من هذه الفلسفة التقليدية، فعظمة الإنسان تكمن حسب رأي هيدجر في انفتاحه على الوجود، وفي قدرته على الاحتفاظ بمكان في العالم يمارس فيه ما سماه بواقعية وجوده، وفي تعبير شهير نجد هيدجر يطلق على الإنسان اسم «راعي الوجود». وهو الذي تكمن عظمته في البقاء منفتحًا ويقظًا للنداء.

في نيسان عام ١٩٢٦، أهدى هيدجر أستاذه هوسرل كتابه (الوجود والزمان) في حفلة أقيمت في كوخه الجبلي بمناسبة عيد ميلاد هوسرل السابع والستين، وقد قدّمه بإهداء: «إدموند هوسرل.. إجلالاً وصداقة». وقد نشر بعد ذلك بعام في الكتاب السنوي الذي يصدره هوسرل عن الفلسفة الظاهراتية.

كان الكتاب عملاً رائدًا في الفلسفة الحديثة، استند فيه هيدجر على أعمال نيتشه وشوبنهاور وكيركجارد، وقد اهتم فيه بالدرجة الأولى بطبيعة الكائن البشري، وبما يعنيه أن تكون إنسانًا. وقد تأسس الكتاب على عمل معلمه هوسرل، لأنه يتفحص حياة الإنسان من وجهة نظر الفلسفة الظاهراتية، حيث يدرك هيدجر أن وجود الإنسان راسخ في الزمن، وفي الواقع، نحن عبارة عن تجسيد للزمن، نعيش في الماضي والحاضر والمستقبل، وتتشكل حياتنا وبالقدر نفسه، نحن محدودون بالظروف التي ولدنا بها.

في (الوجود والزمان) يدرس هيدجر، وفق الموسوعة الفلسفية التي وضعها عبد الرحمن بدوي، الوجود الإنساني باعتباره شكل الوجود الذي يعرفه الإنسان معرفة أفضل من معرفته بالأشكال الأخرى. ولكنه يصرُّ دائمًا

على أن اهتمامه لم يكن اجتماعيًا أو نفسيًا، وإنما حاول أن يتخذ من الوجود الإنساني نافذة يطلّ منها على الوجود. ويؤكد روجيه غارودي على أن هيدجر كان التعبير الأكثر وضوحًا على ارتباك العالم خلال فترة ما بين الحربين. حيث كانت حياة الإنسان مليئة بالفوضى الضاربة أطنابها، حيث نرى هيدجر ينظر إلى ما كان موقفًا لأمة معينة ولطبقة معينة من هذه الأمة في لحظة متأزمة، على أنه هو الشرط الإنساني والعلامة الفارقة المأسوية لكل وجود.

***

العلاقة مع هتلر وسارتر

في عام ١٩٢٨، تولى هيدجر منصب أستاذ الفلسفة خلفًا لمعلمه هوسرل، وخلال الأعوام القادمة ستكبر مكانته كأكاديمي بارز، يجذب حوله مئات الطلبة الذين كانوا يروا في كتاباته مساهمة أساسية في الفلسفة الحديثة. في نيسان عام ١٩٣٣ يتم انتخابه رئيسًا لجامعة فرايبرغ، في ذلك العام انضم إلى الحزب الاشتراكي الوطني الذي يقوده هتلر، وأطلق عبارات من نوع: «الشعب، مهمة، مصير، الحسم، الإرادة». وأصبحت كتاباته ترتبط بشكل واضح بما أسماه الصحوة الوطنية الألمانية، وكان يعتقد أن الجامعة يجب أن تشارك في المهمة الروحية للشعب الألماني، ولم تعد المعرفة الأكاديمية بالنسبة إليه سعيًا منعزلاً عن العمل السياسي. وحين زاره شبنجلر في تلك الأيام وجده منتشيًا بالثورة التي أحدثتها الاشتراكية الوطنية، وكان يرى نفسه أنه باستطاعته أن يقدّم الدعائم الفلسفية كلها للحزب الاشتراكي الوطن. كان وعده بولادة جديدة للأمة الألمانية مناسبًا أيضًا لانعدام ثقته بالثقافة الليبرالية العالمية، في نهاية عام ١٩٣٣ كان هيدجر لا يزال متحمسًا لقضية النازية، وقد كتب مناشدة للطلبة أنهاها بالكلمات التالية: «لا تدع الافتراضات تشكل قانون وجودك، الفوهرر نفسه ولوحده هو حاضر الواقع الألماني ومستقبله

وقانونه». وفي العام التالي صدر أمر بمنع معلمه اليهودي هوسرل من دخول مكتبة الجامعة، وكان القرار مؤلماً بالنسبة لهيدجر الذي كتب رسالة إلى معلمه يعتذر فيها: «لقد صدمني القرار في أعمق جذور تجربتي الحياتية». ومع مرور الأيام بدا واضحًا أن الحزب النازي لم يكن مستعدًا لتبني هيدجر كمستشار فكري بسبب علاقاته مع هوسرل واليهودية حنا أرندت. وفي عام ١٩٣٤ قادته النزاعات مع مسؤولي الحزب النازي إلى الاستقالة من رئاسة الجامعة، وفي نهاية الثلاثينيات زال الوهم عنه فيما يتعلق بالتوجه الذي اتخذته الحركة النازية على الرغم من أنه لم يتنصل من وجهات نظره، حيث ظلّ يؤمن أن الاشتراكية الوطنية هي المسار الصحيح للأمة الألمانية. ونراه عام ١٩٦٦ يعترف بأنه رأى الصحوة الوطنية تحت قيادة هتلر تعبيرًا عن قدوم السوبرمان الذي تحدث عنه نيتشه.

مع قدوم الحرب العالمية الثانية تابع عمله الأكاديمي، وقد حاولت المقاومة الفرنسية ترتيب لقاء بينه وبين سارتر، وتم اللقاء لكنه لم يؤتِ ثماره، لكن الفيلسوفين تمكنا من التواصل بعد ذلك. بعد نهاية الحرب قدم إلى لجنة إزالة النازية حيث قدم تقرير عن تورطه في الحزب النازي، وقد أصدرت اللجنة قرارًا بطرده من الجامعة، لكنها سمحت له بالكتابة والنشر. ومع منعه من دخول الجامعة واصل الكتابة حيث نشر كتابه (رسالة في النزعة الإنسانية) في عام ١٩٤٩ تم الاحتفال بعيد ميلاده الستين، وقد نشر تلامذته كتابًا تذكاريًا عنه. عام ١٩٥٠، تقرّر السلطات عودته إلى منصبه الجامعي، فيلقي محاضرة واحدة بعدها يقدم استقالته. فيقرر مجلس الشيوخ منحه منصبًا فخريًا في الجامعة بصفة بروفيسور، غطت أعماله اللاحقة أنواعًا مختلفة من المواضيع المهمة فلسفيًا واجتماعياً. وكان في آخر سنواته يخشى من انتقال الإنسانية إلى حالة التشرد حيث أصبح العالم ببساطة مجرد ملاذ.

في عام ١٩٧٦، توفى هيدجر ودُفن بالقرب من كوخه الريفي. في يوم ٢٧ من أيار عام ١٩٧٦ دخل عبد الرحمن بدوي إلى قاعة المحاضرات في قسم الفلسفة بجامعة بنغازي في ليبيا. كان يرتدي كالمعتاد بدلته الزرقاء، لكن الطلبة لمحوا تغييرًا، فالأستاذ وللمرة الأولى يلبس ربطة عنق سوداء، وعندما سألوه عن السبب، قال: «لأنني حزين، لقد توفى بالأمس معلمي هيدجر».

***

ما الذي يجب أن تقرأه لمارتن هيدجر؟

- كتابات أساسية، ترجمة: إسماعيل المصدق.
- نداء الحقيقة، ترجمة ودراسة: عبد الغفار مكاوي.
- الكينونة والزمان، ترجمة: فتحي المسكيني.
- السؤال عن الشيء، ترجمة: إسماعيل المصدق.
- ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقيا؟ هيلدرلن وماهية الشعر، ترجمة وتحقيق: فؤاد كامل ومحمود رجب.

***

وماذا بعد عن مصادر مارتن هيدجر في العربية؟

- هيدجر راعي الوجود، تأليف: مجاهد عبد المنعم مجاهد.
- الزمان الوجودي، تأليف: عبد الرحمن بدوي.
- دراسات في الفلسفة الوجودية، تأليف: عبد الرحمن بدوي.
- الأنطولوجيا السياسية عن مارتن هيدجر، تأليف: بيير بورديو،

وترجمة: سعيد العليمي.

- رسائل حنه أرندت ومارتن هيدجر (١٩٢٥-١٩٧٥)، ترجمة: حميد لشهب.
- طرق هيدغر، تأليف: جورج هانز غادامير، وترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم.

-20-

الميزة الوحيدة اللازمة للفيلسوف أنه مهووس بالتفاصيل

في ساعة مبكرة من صباح يوم ٢٥ كانون الأول عام ١٦٤٢، وُلد في منزل صغير بإحدى قرى الجنوب البريطاني طفل ضئيل الجسم، لم يثر قدومه أي اهتمام، حتى إن والدته وهي تنظر إليه أيقنت أنه لن يبقى على قيد الحياة حتى المساء. كان أبوه قد توفى قبل ولادته بأسابيع، لكن ذلك الطفل اليتيم سيعيش حتى يبلغ الخامسة والثمانين من عمره. كان رأسه لا يكاد يستقر فوق عنقه ضعيف العضلات، ولذلك كان لا بد من استعمال قطعة قماش سميكة تُلف حول رقبته.

ذلك الطفل كان اسمه إسحق نيوتن، لم يكن في سيرة حياته ما يوحي بعبقريته، وقد ظلّ التلميذ إسحق نيوتن متخلفًا عن زملائه في الدراسة، حتى إنه أكمل دراسته الثانوية وهو في العشرين من عمره، ليلتحق بعدها بجامعة كمبردج لدراسة الرياضيات، إلا أن وباء الطاعون الذي اجتاح لندن عام ١٦٦٥ قضى على آماله في إكمال دراسته. فقد أغلقت أبواب الجامعة، ليعود نيوتن إلى قريته يمضي أيامه في التأمل والصمت، وكانت هذه التأملات هي الأساس الذي قام عليه إنتاجه العلمي. فخلال الثمانية عشر شهرًا التي قضاها في القرية اكتشف قوانين الحركة والجاذبية، وأجرى تجارب على الضوء ليثبت أن الضوء الأبيض يتألف من جميع ألوان الطيف الشمسي، ولم يكلّفه هذا الاكتشاف العظيم أكثر من «باوند» إسترليني جمعه من أمه

وعمه وبعض أخواله ليشتري به من سوق القرية قطعًا من الزجاج، يجري عليها تجاربه، وليبتكر بعد ذلك نوعًا من التلسكوب صنعه من العدسات الزجاجية وبقايا المرايا التي اشتراها.

ومثلما كانت حياة نيوتن غريبة، فقد انتشر حول أبحاثه الكثير من الحكايات الغريبة. كان من أبرزها أنه حين كان جالسًا في قريته يتأمل تحت شجرة من أشجار التفاح، فإذا بتفاحة تسقط على الأرض، ولمع ذهن الطالب الجامعي مع سقوطها. قال في نفسه متسائلاً: «لماذا سقطت التفاحة إلى أسفل، وليس إلى أعلى أو إلى أية جهة أخرى؟ وهل يمكن أن تكون قوة الجاذبية المؤثرة على التفاحة في الأرض هي ذاتها التي تتحكم في حركة الأجرام السماوية؟» كان هذا الكلام يعتبر ضربًا من الهرطقة، لأنه وفقًا للفكر السائد وقتها، كان يفترض بالكواكب أن تتمركز في أماكن ثابتة تخضع للقوانين السماوية خضوعًا تامًا.

إن من السهل معرفة أنه قبل نيوتن لم يكن هناك تفسير لحركة الأجسام على الأرض أو للأجرام في السماء، وأن الناس كانت تعتقد أن مصائرها معلقة بأيدي الأرواح الخيرة والشياطين. في تلك السنوات انتشرت الشعوذة والسحر والخرافات، وقد جاء في كتابات الفلاسفة الإغريق وكتب اللاهوت أن الأجسام تتحرك بدافع من مشاعر البشر ورغباتهم. وكان أتباع أرسطو يرون أن الأجسام المتحركة لا بد لها في النهاية أن تبطئ سرعتها ثم تتوقف لأن الإرهاق يتملكها، وأن الأجسام تهوي إلى الأسفل لأنها تشتاق للتوحد مع الأرض.

غير إن الرجل الذي نظّم هذه الفوضى الكونية كان إلى حد ما مشهورًا بانعزاله، وبه مس من جنون العظمة. كان شديدًا مع الآخرين وخاض صراعات كثيرة وطويلة حول أفضليته العلمية، واشتهر أيضًا بميله الشديد

إلى الصمت حتى إنه حين كان عضوًا في البرلمان البريطاني لم يسجل أنه تكلم في المجلس إلا مرة واحدة، حين أحسَّ بتيار هواء بارد فطلب من الحاجب أن يغلق النافذة.

في العام ١٦٦٦، وبعد أن بلغ نيوتن الثالثة والعشرين من عمره، نجح في طرد الأرواح التي سكنت عالم أرسطو، بأن قدّم ميكانيكيا جديدة، حيث وضع ثلاثة قوانين للحركة تنص على أن الأجسام تتحرك لأنها تُسحب بواسطة قوى يمكن قياسها بدقة والتعبير عنها في معادلات بسيطة، فبدلاً من التفكير في رغبات الأجسام عند حركتها، استطاع نيوتن أن يحدد مسارات كل الأشياء بدءًا من أوراق الأشجار المتساقطة إلى الصواريخ التي تحلق في الجو إلى قذائف المدافع وحتى السحب.

خاض نيوتن معركته العلمية والفلسفية من خلال كتابه الشهير (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية) الذي نشره في لندن في عام ١٦٨٧، وفيه عارض نظريات ديكارت في الحركة والكون. وقد تمكن في هذا الكتاب الضخم أن يلخص أفكاره وتجاربه الكثيرة، ويثبت الكثير من القوانين والقواعد. وكان هدفه الأساسي من الكتاب وفق برتراند رسل هو: «إثبات أو شرح كيف أن الجاذبية الأرضية تستطيع المحافظة على نظام الكون»، ويضيف رسل أن نيوتن: «أراد أن يوضّح ذلك ليس عن طريق الفلسفة القديمة، ولكن بطريقته الكمية الفيزيائية الجديدة». فيما يرى الفيلسوف الألماني هانز ريشبناخ في كتابه الشهير (نشأة الفلسفة العلمية) الذي ترجمه إلى العربية فؤاد زكريا من أن نيوتن استطاع من خلال هذا الكتاب: «هدم جميع الأفكار الفلسفية القديمة والحديثة»، ويضيف ريشبناخ أن كتاب المبادئ الرياضية للفلسفة الحديثة يعد أعظم إنجاز في عصر التنوير، حيث بفضله تحوّل فلاسفة التنوير عن النموذج الفلسفي الذي وضعه ديكارت إلى نموذج فلسفي محكوم بالقوانين

المتناغمة المنهجية.

***

العقل ليس خرافة

في بريطانيا نفسها ينادي جون لوك عام ١٦٤٤ بضرورة وجود قانون طبيعي يحكم البشر ويمكن معرفته من خلال العقل البشري، وطبقًا لهذا القانون فإن جميع البشر عقلاء ومتساوون في الحقوق الطبيعية في الحياة والحرية والملكية. ويطلق لوك عبارته الشهيرة: «العقل يعلم سائر الناس الذين يتخذون منه مستشارًا ليس إلا، إن المساواة بينهم جميعًا وعدم اعتماد أي منهم على الآخر يعني أنه ينبغي على كل واحد منهم ألا يؤذي الآخر في حياته أو صحته أو حريته أو ممتلكاته». وقد كانت كلمات لوك هذه إيذانًا بظهور المذهب التجريبي، أو كما أطلق عليهم جماعة التجريبيون، وجميعهم من الإنكليز، ومن أبرزهم جون لوك صاحب الكتاب الشهير (مقال في الفهم الإنساني) وجورج بركلي مؤلف كتاب (رسالة في مبادئ المعرفة الإنسانية) وديفيد هيوم الذي كتب العديد من المؤلفات كان أبرزها (رسالة في الطبيعة البشرية)، ويقوم المبدأ الأساسي لهؤلاء التجريبيين على أن الإدراك الحسي (بما في ذلك الملاحظة المباشرة بواسطة الحواس، والملاحظة غير المباشرة باستخدام الآلات والأجهزة العلمية والتجريب) هو الطريقة الوحيدة الموثوقة لتحصيل المعرفة واختبار صدقها، وقد كان هؤلاء الفلاسفة يؤمنون أن الطريقة التي اتبعها نيوتن في اكتشاف قوانين الحركة والجاذبية، إنما استطاع من خلالها أن يضع نظامًا فلسفيًا جديدًا يقوم على التجربة والملاحظة.

ومنذ الأيام الأولى لظهور المذهب التجريبي أعلن أعضاؤه عن رفضهم للمذهب العقلي الفلسفي، وبخاصة عند ديكارت، حيث رفض التجريبيون نظرية الأفكار الفطرية التي يؤكد من خلالها ديكارت أن الأفكار البديهية

الواضحة المتميزة هي أفكار فطرية بمعنى أنها تولد معنا، وهي مطبوعة في النفس. ونجد جون لوك يتساءل: «كيف نعرف بوجود هذه الأفكار الفطرية عند جميع البشر؟ وما الدليل الذي يمكن تقديمه لتأييد هذه النظرية؟» ويرد لوك على قول ديكارت بأن الأفكار الفطرية تعني الأفكار التي يرى المرء أنها صادقة، مدى كان لديه التعليم الكافي لفهمها، ويؤكد: «إن الناس حين يستطيعون تعلّم فهم هذه الأفكار لا يعني أن هذه الأفكار لا بد أن تولد معهم، أو أن تكون فطرية لديهم، لكنها تعني فقط أن البشر عقلاء وقادرون على التعلّم».

وبناءً عليه فجون لوك يقول بأن نظرية الأفكار الفطرية هراء لا قيمة له: «فالعقل ليس خزانة تُملأ بهذه الأفكار الفطرية، عندما يولد المرء، فالعقل ورقة بيضاء، والمسطور فيها إنما هو آتٍ من التجربة، وهذا المسطور من التجربة هو كل ما يمكن للعقل معرفته».

***

الابن الخامل

قالت المرأة لجارتها: «يبدو أن ديفي مخلوق طيب، لكنه للأسف خامل الذهن، بلا قدرة على الفهم والعمل»، ولم تكن المرأة تدرك أن ابنها سيحدث ثورة في الفكر الفلسفي، وأنه سيصبح أشبه بمعول يهدم مزاعم الفلاسفة الذين سبقوه.

ولِدَ ديفيد هيوم في إسكتلندا عام ١٧١١، ونشأ في عائلة من الطبقة المتوسطة، بعد أن أكمل الثانوية كانت رغبة أسرته في أن يصبح محاميًا، فدخل كلية الحقوق، لكنه تركها قبل أن يحصل على الشهادة. ويخبرنا في سيرته الذاتية بأنه: «في الوقت الذي كانت عائلتي مقتنعة بأنني أقرأ كتب القانون،

كنت ألتهم الكتب الفلسفية سرًا». فقد كان يشعر بكراهية شديدة لكل شيء سوى كتب الفلسفة، ولأن عائلته لم تكن غنية بدرجة تسمح للابن بأن يتفرغ للقراءة والبحوث، فقد اضطر الشاب هيوم إلى أن يقوم بأعمال بسيطة يحصل منها على مبالغ مالية يشتري فيها الكتب التي تكدست في البيت وفي سيرته الذاتية القصيرة التي حررها صديقه الحميم آدم سميث صاحب كتاب (ثروة الأمم) نجد هذا الوصف لهيوم: «إنسان هادئ الطبع، لديه القدرة على التحكم في مزاجه، ذو فكاهة صريحة واجتماعية مرحة، يملك قدرة على إقامة علاقات، لكن لديه الاستعداد قليلاً للعداوة والبغضاء، واعتدالاً كبيرًا في انفعالاته، على الرغم من خيبة آماله المستمرة».

ونجده يكتب عن نفسه: «لم تكن عائلتي غنية، وكوني الابن الأصغر جعل ميراثي ضئيلاً للغاية. ووالدي، الذي كان متعدد المواهب والقدرات، توفى عندما كنتُ رضيعًا، فتركنا أنا وأخي الأكبر وأخواتي تحت رعاية والدتي، وهي امرأة ذات جدارة، وقد كرّست نفسها لتنشئتنا وتعليمنا، رغم شبابها وجمالها. ولقد أمضيت سنيّ التعليم التقليدي بنجاح، وقد استولى عليَّ منذ طفولتي شغف بالأدب، وصارت العاطفة المسيطرة على حياتي، ومصدر بهجتي وسعادتي. حتى إنني كنت ألتهمُ كُتبَ يشرون وفيرجل مثل الطعام».

عندما بلغ هيوم الثالثة والعشرين من عمره، رسم خطة لحياته المستقبلية وهي أن يستقلّ ماليًا وألا يعتمد على إرث العائلة وهو عقار صغير. فقرر السفر إلى فرنسا ليدرس الأدب والفلسفة هناك، وأثناء السنوات التي قضاها في باريس ألّف كتابه الشهير (رسالة في الطبيعة البشرية). وهو الكتاب الذي قوبل بمجموعة من الانتقادات، حتى إنه قال عن الكتاب: «لقد ولِدَ ميتًا في المطبعة ويجب ألا أحزن عليه كثيرًا».

وقد خامرته في البداية رغبة شديدة في نجاح كتابه (رسالة في الطبيعة

البشرية) لكنه شعر بالخذلان حين وجد بريطانيا بأجمعها تغلي وتضطرب، بسبب كتاب (التحقيق الحُرّ) لميدلتون بينما تمَّ تجاهل كتابه. وبسبب طبيعة مزاجه، لم تؤثّر هذه الخيبات عليه إلا قليلًا، بل ربما لم يكن لها أي أثر. فنجده يقرر عام ١٧٤٩ أن يذهب إلى الريف ليعيش مع أخيه في منزله طوال سنتين، وكانت والدته حينئذ قد توفيت. وهناك كتب مؤلفه الثاني (مقالات سياسية)، وكذلك كتابه (بحث في أصول الأخلاق)، وهو صياغة جديدة لجزء من كتاب (رسالة في الطبيعة البشرية). ويفرح حين يخبره الناشر أن كتبه (باستثناء «رسالة في الطبيعة البشرية» تعيس الحظ) قد صارت موضوعًا للنقاش، وأن مبيعاتها تتنامى بالتدريج، وأن طبعات جديدة صارت مطلوبة. وبدأت تصله خطابات من القساوسة الذين أخذوا يشتمونه.

بعد عامين عاد من جديد إلى أدنبرة ليدرس المشهد الفكري العام، ونراه يخبرنا بأن شعورًا جديدًا تملّكه دفعه إلى الانطلاق بقوة من جديد. لقد اكتشف أعمال الفيلسوف الإسكتلندي فرانسيس هتشسون الذي كان يؤكد بأن المبادئ الأخلاقية لا تقوم على الدين كما تقول المسيحية، كما أنها لا تقوم على العقل كما زعم أفلاطون، لكنها كما يرى هتشسون تقوم على مشاعرنا وأحاسيسنا المرتبطة بالقبول أو الرفض. وكانت هذه الآراء هي نقطة الانطلاق لهيوم الذي كتب: «لماذا لا نطبّق وجهة النظر القائلة بأن معتقداتنا الأخلاقية ليست إلهية ولا عقلية، لكنها تعبر عن مشاعرنا فقط على جميع معتقداتنا؟ ونراه يكتب فيما بعد ماذا يحدث لو أن مجمل معرفتنا العلمية لم تكن معرفة على الإطلاق ولا تنطوي على أي يقين، ولا سبيل لإثبات كونها يقينية وكانت تقوم على مجرد شعورنا بصدق ما ندركه حسيًّا؟».

وقد جمعت نظرة هيوم الفلسفية الجديدة والمثيرة بين تجريبية لوك وبركلي القائلين بأن المعرفة لا تأتي إلا عن طريق الإدراك الحسي. والفلسفة

الأخلاقية عند هتشسون القائل بأن الإحساس أو الشعور هو المصدر الوحيد للأخلاقية، وكانت هذه نقطة انطلاق هيوم نحو فكره القائل بأن معرفتنا اليقينية وقوانيننا العلمية ليست سوى مدركات حسية تقودنا مشاعرنا لتصديقها. وبهذا يؤكد هيوم أن كل ما لدينا لا يعدو كونه مدركات حسية ومشاعر، ولذا فمن المشكوك فيه وجود أية معرفة لدينا، وكل ما لدينا لا يعدو كونه مدركات حسية ومشاعر، ويتبين لنا من خلال هذه الأفكار مدى تطرف مذهب الشك عند هيوم الذي يبدو مذهب الشك الديكارتي متحفظًا أمامه، فقد استخدم ديكارت منهج الشك لإيجاد أساس للمعرفة اليقينية، في حين بدا هيوم عازمًا على هدم أي أساس للمعرفة اليقينية.

في خريف عام ١٧٢٩، أُصيب هيوم بانهيار عصبي شديد، وتملّكه الخوف والقلق وظلّ المرض ملازمًا له طيلة خمس سنوات وكان مصحوبًا بأعراض جسمانية وشعور بالاكتئاب والضعف، وفي إحدى رسائله لآدم سميث يكتب هيوم: «كان مرضي عبئًا ثقيلاً وقاسيًا عليّ». وقد أخبره الطبيب بأنه يعاني من داء المثقفين والشعور بأنه ينحدر إلى الهاوية، وحاول هيوم جاهدًا مواصلة القراءة والكتابة، لكنه فشل فقد استنفد أكوامًا هائلة من الورق دون جدوى، فقد كان يشعر باليأس من تقديم أية آراء لها من الدقة والبراعة مما يجعلها تجذب انتباه العالم إليها. ونراه بعد شفائه من المرض يقرر التخلي عن الفلسفة، لكنه يعود إليها بعد أشهر، وحاول الحصول على درجة الأستاذية في جامعة أدنبرة لكن طلبه قُوبل بالرفض لأسباب دينية، في مقدمتها مذهبه في الشك وازدراؤه للمعتقدات الدينية، ولم يكن مقدّرًا لهيوم أن يصبح أستاذًا جامعيًا في يوم من الأيام، وبحثًا عن الرزق عمل مدرسًا خصوصيًا ثم سكرتيرًا للعديد من الأثرياء، وكان من بينهم السفير الإنكليزي في فرنسا الذي عيّنه بمنصب سكرتير للسفارة البريطانية في باريس. وهناك يحقق

شهرة كبيرة ويرتبط بصداقة مع جان جاك روسو، الذي قرّر أن يسافر معه إلى بريطانيا ليصلا إلى لندن في كانون الثاني عام ١٧٦٦، لكن سرعان ما بدأت الخلافات تدبّ بينهما فتتحول الصداقة إلى عداوة، حيث نجد روسو يكتب مقالاً عنيفًا يهاجم به أفكار هيوم، الذي يرد بمقال أعنف.

في عام ١٧٧٦، يشعر هيوم بأن نهايته قربت، فقد كان يعاني من نفس المرض الذي أودى بحياة أمه؛ مرض القلب. لكنه ظل حاضر الذهن، يرحب بجميع زواره في بيته الجميل الذي بناه بأحد شوارع أدنبره. وحين يزوره أحد القساوسة ليحدثه عن الروح وخلودها يقول له: «القول بخلود الروح وبقاء الناس إلى الأبد أعظم الأوهام وأكثرها لا عقلانية، فلا بد إذن من المحافظة على نفايات كل عصر، ولا بد من خلق عوالم جديدة لاحتواء هذه الأعداد التي لا تحصى». وفي هذه الفترة يتفرغ لكتابة سيرة حياته، وفي الخامس والعشرين من آب سنة ١٧٧٦ يموت إثر أزمة مرضية، ويوصي بألا يُكتبَ على شاهدة قبره سوى اسمه فقط «ديفيد هيوم».

***

كيف نحصل على المعرفة العقلية؟

لعل الموضوع الرئيسي لكتاب هيوم (رسالة في الطبيعة البشرية) يتعلق بالسؤال كيف يحصل الإنسان على المعرفة العقلية؟ والرأي الذي يخرج به هيوم هو أن المصدر الوحيد الذي لا مصدر سواه لمعرفتنا هو الحواس. كان روسو يقول إن هيوم أراد العودة إلى الطريقة التي يرى فيها الطفل العالم قبل أن تجتاح الأفكار والتأملات دماغه، حيث يقول هيوم في مقدمة كتابة إن غايته هي: «دراسة علم الإنسان وشرح مبادئ الطبيعة البشرية، وكما فعل نيوتن من قبل حينما اختزل علم الميكانيكا، أريد أن أختزل علم الإنسان في مبادئ بسيطة».

والانطباع عند هيوم يطلق على أي إحساس أو عاطفة أو انفعال عندما يظهر للمرة الأولى في أذهاننا، أما الفكرة عنده فهي نسخة باهتة من الانطباع، ولا تختلف الفكرة البسيطة عن الانطباع البسيط إلا في ظهورها المتأخر، وفي كونها خافتة بصورة أكبر، وفي حالة أفكار التذكر تكون أكثر خفوتًا في أفكار التخيل، انظر إلى لون أو اسمع صوتًا، تجد أن إدراكك عبارة عن انطباع بسيط، لكن استرجع هذا اللون أو الصوت فيما بعد، ستجد أن إدراكك عبارة عن فكرة تشبه تمامًا الانطباع الأصلي، إلا أنها ستكون أقل وضوحًا. تخيّل لونًا مشابهًا أو صوتًا ستجد أن فكرتك لا تزال واضحة، ولكن بصورة أقل، ولهذا نجد هيوم يميز بين نمطين من التمثل لدى الإنسان: الأحاسيس والأفكار، فالأولى هي التصورات الحادة والمباشرة للعالم الخارجي، في حين أن الثانية هي الذكرى المتعلقة بهذه الأحاسيس. ويضرب هيوم مثلاً حين نقرب أيدينا من وعاء ساخن، في البداية يتكوّن لدينا على الفور الإحساس بالسخونة، وبعدئذ سنفكر بهذه السخونة، وهذا ما يسميه هيوم «فكرة» والفارق هنا أن الإحساس أقوى بكثير من الفكرة التي تأتي بعده. وبتعبير آخر إن الإحساس هو الأصل، أما الفكرة فليست إلا نسخة باهتة، لأن الإحساس هو السبب المباشر للفكرة التي تعشعش في الذاكرة.

ويأخذنا هيوم إلى مثال آخر يرد به على ديكارت في تصوره الواضح لله فيقول: «إننا نرى الله كائنًا ذكيًا وطيبًا في المطلق، وهذا في الواقع تداعي أفكار تجمع شيئًا من الذكاء وشيئًا من الطيبة. ولو لم نعرف الطيبة والذكاء ونحس بهما لما استطعنا أن نبني هذا المفهوم لله، ونحن نعتبره أيضًا أب قاس لكنه عادل، هنا أيضًا تتجمع أفكار ثلاثة، الأب والعدل والقسوة، وفي الحالتين تكون صورة الأب هي التي قادتنا إلى صورة أب آخر في السماء».

وفي مكان آخر يناقش هيوم قانون السببية الذي يقول إن لكل حادث

سببًا. وهو يأخذ مثالاً على ذلك كرتي بليارد، ماذا يحدث إذا ما ضربت بالكرة البيضاء كرة سوداء متوقفة؟ يجيب: ستتحرك الأخيرة. لماذا؟ لأن الكرة البيضاء ضربتها. في هذه الحالة سنقول إن الكرة البيضاء هي سبب حركة الكرة السوداء، ويضيف هيوم إننا رأينا الكرة البيضاء هي سبب حركة الكرة السوداء، لكن ما لم نره هو الصلة السببية. ويريد هيوم أن يصل إلى أن القوانين تنتج عن العادة ولم تبنَ على العقل، فهي ليست منطقية أو غير منطقية، إنما هي هكذا وكفى، ونحن لا نولد ومعنا أفكارنا، بل إن العالم يقدّم لنا كل يوم أفكارًا جديدة.

ويعطينا برتراند رسل مثالاً على سببية هيوم، فيقول إن دجاجة ترى كل يوم أن الطعام يُعطى لها بعد لحظات من مرور المزارع، فلا بد أن تصل في النهاية إلى تصور علاقة سببية بين المزارع والطعام الذي يوضع لها، وإذا لم تُعطَ الطعام يومًا، سيكون ذلك اليوم الذي يأتي فيه المزارع ليقطع رقبتها. ويصر هيوم على أن أول واجبات الفيلسوف هي تحذير الناس من الخروج باستنتاجات متسرعة، لأن ذلك يعني الوقوع في الخرافات.

***

ما الذي يجب أن تقرأه لديفيد هيوم؟

- مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة: د. موسى وهبة.
- تحقيق في الذهن البشري، ترجمة: محمد محجوب.
- مقالات أخلاقية وسياسية، ترجمة: عبد الكريم ناصيف.

***

وماذا بعد عن مصادر ديفيد هيوم في العربية؟

- ديفيد هيوم، تأليف: زكي نجيب محمود.
- رحلات داخل الفلسفة الغربية، تأليف: جورج زيناتي.

-21-

فيلسوف السلطة الذي ما يزال يثير كراهية الناس

في نهاية عام ١٥١٨ يبعث برسالة إلى صديقه فرانشيسكو فيتوري، يكتب فيها: «لم يعد لي رجاء في شيء إلا أن يساعدني الله». كان قد وجد نفسه منفيًا يعيش أسير القيل والقال من جانب القرويين، شاغلاً وقته بين صيد السمك ولعب القمار مع جيرانه المساكين، كان يستهلّ يومه قبل بزوغ الفجر وأول ما يفعله هو إحضار الطعام لأسرته، يتلهّى بعد ذلك في أمور أخرى مثل قطع الحطب أو الجلوس تحت إحدى الأشجار حاملاً تحت ذراعه أحد أجزاء (الكوميديا الإلهية) لدانتي الذي كان يسحره. خرج من السجن قبل عام، بعد أن طُرد من وظيفته في البلاط بتهمة الاشتراك في مؤامرة ضد العرش، لم يغب عن ذهنه المأزق المأساوي الذي وضع نفسه فيه، وكان حين يقوم برمي النرد ويحرك أقراص اللعب على لوحة الطاولة، يقف فجأة ليقول: «ألا يخجل القدر من معاملتي هكذا».

في المساء يعود إلى منزله، وبعد أن يفرغ من تناول طعام العشاء يدخل إلى غرفة مكتبه، فينزع ثيابه المتسخة ليرتدي ملابس البلاط الملكي، ثم ينظر إلى صورة الإسكندر الأكبر المعلقة على الجدار، ويمدّ يده يتحسس صورة يوليوس قيصر التي يضعها على المكتب، ليدخل بعدها إلى عوالم الملوك ويبدأ يُغذي نفسه على هذه الأفكار: «التي لا تخص أحدًا سواي، ولأجلها ولِدتُ». ثم يبدأ يتجاذب أطراف الحديث مع صور الملوك والأباطرة المعلقة

في غرفة المكتب، مستفهمًا منهم عن الدوافع وراء أعمالهم: «وهم يجيبونني بدافع عطفهم الإنساني ولا أشعر بأي نوع من الضجر طيلة أربع ساعات، هي مدة جلوسي مع نفسي، وأنسى كل معاناتي، ولا أتوجس خيفة من الفقر ولا أهاب الموت، فأنا أطمس تمامًا هويتي فيهم». لكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد كما يخبر صديقه فيتوري، فهو بعد أن ينتهي من الحديث مع الأباطرة والملوك يمسك قلمه ثم يدوِّن: «ما أنتفع به من حديثهم». وقد حوّل ميكافيللي هذه الأحاديث فيما بعد إلى كتاب صغير عن مبادئ الحكم: «أقلب فيه بكل ما وسعني من عمق الأفكار المتعلقة بهذا الموضوع، متناولاً ماهية الإمارة، وما أنواعها؟ وما طرق الحصول عليها؟ وكيف يمكن الحفاظ عليها؟ ولم يفقد الأمراء إماراتهم؟». أطلق على هذا الكتاب اسم (الأمير) ليظهر صاحبه نيقولا ميكافيللي كأبرز وأشهر منظّر في فلسفة السياسية.

***

لسان لاذع

ولِدَ نيقولا ميكافيللي في أيار عام ١٤٦٩ وهو الابن الأكبر لبرنارد ميكافيللي، وسيكتب فيما بعد: «ولدتُ فقيرًا وتعلمتُ في عمر مبكر ألا أنفق سوى أقل القليل بدلاً من أن أعيش في ترفٍ». ويشير كتاب سيرة ميكافيللي إلى أن هذا الزعم ينطوي على نوع من المبالغة، صحيح أن والده لم يكن ثريًا، لكنه عاش في منزل كبير، كما أنه اقتنى مزرعة خارج فلورنسا. وكان والده يعمل موثقًا قانونيًا، وتربطه علاقات بعدد من رجال البلاط، وعُرف بشغفه باقتناء الكتب، كان يهوى الأعمال الأدبية الكلاسيكية، ويردد أمام ابنه الصغير مقولات لأفلاطون وأرسطو وشيشرون. ويبدو أن الأب المحب للقراءة كان قد قرّر أن ينعم ابنه بفوائد الثقافة الإنسانية التي كانت مزدهرة في فلورنسا آنذاك، على الرغم من التكاليف المالية التي قد يتكبدها.

بدأ الابن وهو في سن الرابعة يتعلم اللاتينية، وبعدها بعام كان يدرس علم الحساب، وبعد عيد ميلاده الثامن انتظم في دروس خاصة بالأدب على يد كريستوفر لاندينو الذي اشتهر بتفسيرات لكتاب دانتي (الكوميديا الإلهية)، بعدها التحق في ستوديو فيورنتينو، وهي جامعة صغيرة. كان ميكافيللي يتمتع بصفات جسدية غير جذابة إذ كان نحيل القوام ذا شفتين رفعتين وذقن صغير ووجنتين غائرتين وشعر أسود قصير. وكان ذكاؤه الحاد وميله إلى حياة الصخب يتناقض مع مظهره المتقشف، وقد عُرف عنه نهمه بالقراءة وولعه بلعب القمار، وفي الجامعة اشتهر باسم «ميكا» وهي تورية لكلمة إيطالية، تعني لطخة أو بقعة إشارةً إلى الضرر الذي يحدثه لسانه اللاذع.

في الجامعة درس البلاغة وقواعد اللغة والشعر والتاريخ والفلسفة، وكانت قصيدة الفيلسوف الروماني لوكريشيوس التي تحمل عنوان (طبيعة الأشياء) أحد النصوص التي درسها وأثّرت به كثيرًا، وقد أعجب بالحجة الرئيسية للوكريشيوس القائلة بأنه ينبغي التخلص من الخوف والخرافات الدينية باستخدام العقل والتعمق في دراسة الآليات الخفية للطبيعة البشرية. وقد انهمك ميكافيللي في دراسة الشعر والفلسفة، وقد جمع ثلاثة من أعماله التي كتبها آنذاك في ديوان شعر مزوّد بلوحات للرسام بوتيشيللي، وفي تلك السنوات يتتلمذ على يد مارسيلو أدرياني الذي كان شديد الإعجاب بمواهب تلميذه. وتشاء الصدف أن يتولى أدرياني منصب المستشار الأول للبلاد، ويتذكر الأستاذ تلميذه الموهوب، فيقرّر أن يُعيّنه في الهيئة الاستشارية الدبلوماسية، ليجد نفسه في صيف عام ١٤٩٨ موظفًا حكوميًا، وقد أثبت مهارة في وظيفته مما دفع البلاط لتعيينه رئيسًا للجنة الاستشارية، وبهذه الصفة جرى تكليفه بمهام تتعلق بالعلاقات الخارجية لفلورنسا. فذهب بمهمة إلى بلاط لويس الثاني عشر، وكانت هذه المرة الأولى التي يجري فيها حوارًا

مع أحد الملوك، وقد ظلّ في البلاط الفرنسي ستة أشهر، وعاد إلى فلورنسا بعد أن أرسل له مساعده برقية يُخبره بأنه: «إذا لم تعد أدراجك فسوف تفقد مكانك في البعثة الدبلوماسية». وفي عام ١٥٠١ يتزوج ماريتا كورسيني التي أنجبت له ستة أبناء، ويبدو أنها احتملت خياناته المتعددة. بعدها يُرسل في مهمة إلى روما لمتابعة اختيار بابا جديد بعد وفاة البابا ألكسندر السادس، وهناك أعجب بشخصية البابا الجديد يوليوس الثاني، لكنه سرعان ما بدا ينفر منه بسبب قراراته الخاصة بالحرب. فكتب لأحد مساعديه ملاحظة تقول إن البابا الجديد على ما يبدو قد كلّفه القدر ليدمِّر العالم، كانت هذه الملاحظات تؤكد اهتمام ميكافيللي بما يجري في غرف السياسة، حيث بدأ يسجل أحكامه في رسائل إلى أستاذه مارسيلو أدرياني، وبحلول عام ١٥١٠ وبعد عدة جولات في الخارج كان ميكافيللي قد توصل إلى رأي نهائي بشأن معظم رجال الدولة الذين التقاهم، لكن رأيه في البابا يوليوس الثاني ظلّ محيّرًا، فمن ناحية كان إعلان البابا الحرب على فرنسا يبدو استهتارًا جنونيًا بالنسبة لميكافيللي، لكنه في الوقت نفسه كان يأمل أن يثبت البابا أنه المنقذ لإيطاليا وليس نكبتها المنتظرة. ويبدو أن مخاوفه قد تحققت، فبعد أربع سنوات زحف الجيش الإسباني باتجاه إيطاليا، لتجد فلورنسا نفسها محتلة، والنظام الجمهوري يُحل.

وفي السابع من تشرين الأول عام ١٥١١ طُرد ميكافيللي من الوظيفة وحُكم عليه بالسجن لمدة عام، ثم في شباط عام ١٥١٣ تلقى أسوأ ضربات القدر على الإطلاق، إذ اتهم بطريق الخطأ أنه شارك بمؤامرة ضد البلاط، وبعد أن تعرّض للتعذيب، حُكم عليه بالسجن ودفع غرامة مالية كبيرة، وقد عبّر عن ذلك فيما بعد حين أهدى كتابه (الأمير) إلى عائلة مديتشي الحاكمة قائلاً: «إن خبث القدر الهائل والمعهود أطاح بي بلا رحمة». ولم

تمضِ فترة سجنه طويلاً حيث أعلنت الحكومة العفو، فخرج ميكافيللي من السجن ليبدأ مرحلة جديدة من حياته هدفها الأول تبرئة نفسه من التهم الموجهة إليه. ومع الانتهاء من كتابه (الأمير) تجدّدت آماله في العودة إلى موقع حكومي مؤثر، وكتب إلى صديقه فيتوري أن منتهى تطلعاته أن يجعل من نفسه: «نافعًا لحكامنا حتى إذا بدأوا بتكليفي بدحرجة حجر». إلا أن محاولاته خابت، ونجده يتخلى عن كل أمل في العودة إلى العمل الحكومي: «إنني سأضطر لأن أظلّ أحيا هذه الحياة البائسة، دون أن أعثر على رجل واحد يتذكر خدمة قدمتها أو يعتقد أنني قادر على فعل أي خير». ونجد ميكافيللي في هذه السنوات يتجه بحماس إلى الكتابة، فأنجز كتابه الشهير (المطارحات)، بعدها بدأ بكتابة تاريخ فلورنسا، وتفرغ لكتابة (فن الحرب)، وبدا أن فرصته في العودة إلى الوظيفة الحكومية قد لاحت بسبب تغيير نظام الحكم، لكن اسمه لم يذكر ضمن الأسماء التي رُشّحت للعمل في الجمهورية الجديدة، وكان في ذلك ضربة كبيرة لطموحاته، ما أدّى إلى إصابته بالمرض، وقد شكا لزوجته من آلام في قلبه التي لم تمهله طويلاً، حيث توفي في الثاني والعشرين من عام ١٥٢٧ وقد كتب على شاهدة قبره: «لا يبلغ المدح شأو ذلك الاسم نيقولا ميكافيللي».

***

السياسة مثل الفيزياء

يكتب فرنسيس بيكون في تقييمه لآراء ميكافيللي في الحكم: «إننا مدينون بالكثير لصاحب كتاب (الأمير)، إذ حدّثنا عما يفعله الناس بدلاً مما ينبغي عليهم أن يفعلوه». ويصف ميرلو بونتي العمل الذي قدّمه ميكافيللي بأنه أشبه بما يقوم به العالم الفيزيائي إذ يقوم على الملاحظة وجمع الوقائع ويتخذ من ذلك نقطة بداية لكل تفكيره.

إن الكتاب الصغير الشهير (الأمير) الذي لا يزال مكروهًا لدى الكثيرين، والذي صدر بعد وفاته بخمسة أعوام، يعطينا صورة شاملة لمنهج ميكافيللي وطريقة تفكيره. فهو يحاول في هذا الكتاب وصف السبل التي يلجأ إليها الحاكم الفرد «الأمير» ويبقي عليها ليدعم بها مكانته كحاكم. إنه لا يحاول التأكيد على ما سيفعله الحاكم الفاضل أو الأفضل، ولا أن يقدّم تبريرًا للطاعة، ولا حتى أن يعرض محاسن ومساوئ السياسة. إنه يحدد المشاكل التي تواجه الحاكم، وما الظروف التي تُضعف أو تدعم سلطانه، ولهذا نراه يقول: «انتقلنا الآن إلى التفكير فيما ينبغي عليه سلوك الأمير ومواقفه إزاء رعيته، أعرف أن كثيرين كتبوا عن هذا الموضوع، ولكن دعني أسأل سؤالاً: هل من الأفضل أن يكون الحاكم محبوبًا أم مرهوب الجانب؟ ولكن نظرًا لصعوبة تحقيقهما معًا، وإذا كان لا بد من الاختيار فإنه أكثر أمانًا أن تكون مرهوب الجانب على أن تكون محبوبًا. فثمة ملاحظة نلمسها لدى الناس بعامة وهي أنهم جاحدون متقلبون مخادعون حريصون على تجنب المخاطر، يقتلهم الجشع وإذا كنت نافعًا لهم فكلهم معك، يفتدونك بدمهم وأموالهم وحياتهم طالما كان الخطر بعيدًا، ولكن إذا ما دنا الخطر انقلبوا عليك».

***

الكتاب الذي يكره الناس

يتألف كتاب الأمير من ستة وعشرين فصلاً، ويبدو الكتاب محاولة من ميكافيللي لاستعراض مهاراته بوصفه محللاً سياسيًا. ونراه يصرّ منذ الصفحات الأولى على أن كتابه هذا جديد في منهجه، أراد من خلاله حسب قوله أن يقدّم قوائم من الفضائل والوصايا التي على الأمير أن ينفذها ونراه يؤكد أن نهجه في السياسة يختلف عن نهج من سبقوه، فالآخرون وفق ما قاله في (الأمير) تناولوا الجمهوريات التي لم يكن لها وجود في أي مكان على وجه

الأرض، لكنه على خلاف من ذلك يناقش الواقع الفعلي للأشياء، ولهذا نراه يؤكد أن الأمير الذي يسعى وراء حب رعاياه بدلاً من أن يجعلهم يخافونه، لا بد أن يفقد موقعه، وهو يرى أن على الحاكم أن يتصرّف كأسد قوي وحاسم وكثعلب ماكر ومراوغ في أحيان أخرى، وهو يصر على أن الأمير لا يسعه أن يتقيّد بدواعي المُثل الأخلاقية المعتادة إن أراد أن يؤدي دوره أداءً سليمًا. وباختصار نرى ميكافيللي يواجه قرّاءه منذ الصفحات الأولى بنظرية تقول بأن الجهود المخلصة لامتلاك ناصية المعتقدات الأخلاقية التقليدية وتطبيقها لن تؤدي إلى ظهور حاكم مُطاع. فالأمور السياسية حسب وجهة نظر ميكافيللي تحتاج إلى أحكام خاصة بها.

ولعل أبرز فصل من فصول الكتاب هو الذي يحاول فيه ميكافيللي أن يحدد نطاق حرية البشر في القيام بعمل. حيث يرى ميكافيللي أن الثروة كانت لها سلطات قوية على الإنسان، فهي من حين لآخر تكتسح مثل النهر كل شيء أمامها وتدمّر المؤسسات كافة التي استطاع الناس اختراعها لحماية أنفسهم وحفظ النظام. وهو يرى أن الثروة مِثل فاتنة متقلبة المزاج تبدّل أوضاع الملعب تمامًا فتعمل على الإبطاء في التكنيك السليم. وهو يرى أن النجاح والفشل في الحكم لا يتمُّ اكتسابهما بحسن السلوك، بل شيئان يتم انتزاعهما بالقوة من بين يدي عالم لا يتسم بالعاطفة، وفي مكان آخر يرى ميكافيللي أن الناس لهم سمات ثابتة على الدوام، شجاع أو جبان، فالأوضاع قد يصلح لعلاجها أسلوبُ معيّنٌ من العمل أحيانًا، وقد يصلح أسلوب آخر في أحيان أخرى، لكن لا أحد يستطيع دائمًا أن يتزيّا بزي واحد لأزمنة تتغير وتتبدل.

والكتاب في النهاية يقدم صورة للحاكم وكيف يجب أن يكون؟ وفي الفصول التسعة الأولى درس ميكافيللي شتى المسارات التي تؤدي إلى تكوين

الإمارات، وغالبًا انطلاقًا من مفهوم الاجتماع البشري في مكان معين يؤمن للمجتمعين فرص العيش والتبادل وما إلى ذلك. في الفصل التالي تناول الكاتب قدرة الدولة بعد أن تتشكل بصرف النظر عما يكون من شأن نظام الحكم فيها، القدرة على التصدي للعدو الخارجي. ومن بعد التوقف عند الحالة الدفاعية تلك، يصل المؤلف إلى الحديث عن أنواع الدول ليركز حديثه في فصل تالٍ على دراسة الدول القائمة على أساس الارتباط بالكنيسة، وهي دول يرى ميكافيللي لا تعير اهتمامًا إلى القوانين التي تحكم تكوّن الدول الأخرى ومسارها.

وإذ يصل إلى هذا المستوى من التفصيل في حديثه عن التجمعات السياسية المؤسّسة، يجد أن الوقت حان كي يدخل في صلب الحديث، حيث نجده يدخل إلى صلب الحياة الداخلية للإمارة التي يعرفها جيدًا ولا يعود الحديث عنها هذه المرة نظريًا. فيتوقف مطولاً عند أسلوب الحكم والعلاقة مع الرعايا وتشكيل القوات المسلحة فيها. وفي هذا الإطار يركز ميكافيللي على عبثية الاستعانة بالمرتزقة بعد الآن، إذ صار من الضروري تكوين الجيوش القومية. وفي واحد من فصول الكتاب يركز ميكافيللي على مهاجمة الفلاسفة والكتّاب الذين سبقوه الذين تحدثوا عن جمهوريات وإمارات ومدن فاضلة لا توجد إلا على الورق.

وفي تقدير أهمية كتاب (الأمير) نجد الفيلسوف الألماني آرنست كاسيرر يتحدث عن ميكافيللي في كتابه (أسطورة الدولة)، باعتباره الكاتب الذي أعطى الصورة الواقعية الأولى، في الأدب السياسي الغربي للحكم كما هو، لا كما يجب أن يكون.

***

المقدمة التي سبقت الأمير

قبل نشر كتاب (الأمير) لميكافيللي بمئة وثلاثين عامًا، وصل إلى القاهرة قادمًا من أفريقيا الشمالية رجل بلغ الخمسين من عمره، كان قد دُعي للتدريس في الجامعة الأزهرية. الرجل هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولد في تونس سنة ١٣٢٣، كان يسعى لدراسة تطور الدول وتعاقبها، وكان يرى أن حضارة الإنسان تنشأ عن التجمع السياسي، وكما أن وجود المدن ضرورة لترسيخ حكم الملوك، فإن حياة الحضر لا غنى عنها لنمو الحضارة وازدهار الثقافة، وقد وجد ابن خلدون أن الحضارة لا تنمو إلا في ظل حكومة قوية متمدنة.

ويدرس ابن خلدون في كتابه (المقدمة) آثار البطش والسياسة العابثة في نفوس الشعب، ويقدم صورة عن حماية الدولة وأعطيات الجند، وعن منافسة الأمير للرعية في التجارة والكسب؛ وعن تطلع الأمير إلى أموال الناس وأثر ذلك في حقد الشعب عليه، وعن تطرق الخلل إلى الدولة وامتداد يد الجند إلى أموال الرعية.

يكتب المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي: «إذا كان الفلورنسي العظيم ميكافيللي يعلمنا وسائل حكم الناس، فإنه يفعل ذلك كسياسي بعيد النظر، ولكن العلامة التونسي ابن خلدون استطاع أن ينفذ إلى الظواهر الاجتماعية كاقتصادي وفيلسوف راسخ، مما يحمل بحق على أن نرى في أثره من سمو النظر ومن النزعة النقدية ما لم يعرفه عصره».

ونستطيع أن نرجع كثيرًا من أسباب هذه المشابهة بين المفكرين إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي عاش كل منهما فيها. فقد كانت الإمارات والجمهوريات الإيطالية التي عاش ميكافيللي في ظلها تعرض في إيطاليا نفس الصور والأوضاع السياسية التي تعرضها الممالك المغربية أيام

ابن خلدون، من حيث اضطرام المنافسات والخصومات فيما بينها، وطموح كل منها إلى افتتاح الأخرى، وتقلب إماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين.

ويؤكد توينبي أن ابن خلدون أغزر مادة وأوسع آفاقًا من المفكر الإيطالي. ذلك أن ابن خلدون يتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه، ويحاول أن يفهم هذه الظواهر وأن يعللها على ضوء التاريخ، وأن يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة. ولكن ميكافيللي درس الدولة فقط، أو أنواعًا معينة من الدول، هي التي يعرضها التاريخ اليوناني والروماني القديم، وتاريخ إيطاليا في عصره، ويدرس شخصية الأمير والمتغلب الذي يحكم الدولة، وما يلحق بها من الخلال الحسنة أو السيئة، وما يعرض لها من وسائل الحكم. وهذه الدراسة المحدودة المدى تكون جزءًا صغيرًا فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة. وحتى في هذا المدى المحدود يتفوق ابن خلدون على ميكافيللي تفوقًا عظيمًا. ويبتدع هنا نظرية العصبية، ونظرية إعمار الدول، ويتناول خواص الدولة من الناحية الاجتماعية وإن كان ميكافيللي من جهة أخرى يتفوّق على ابن خلدون في سلاسة المنطق، ودقة العرض والتدليل، ورواء الأسلوب.

***

دليل قطاع الطرق

يعد كتاب (فن الحرب) هو العمل الوحيد الذي نشر لميكافيللي أثناء حياته، ومع أن كتاب (الأمير) جرى تداوله كمخطوطة أثناء حياته، فإن طباعته لم تتم إلا بعد وفاة مؤلفة بخمسة أعوام. ففي عام ١٥٣١ منح البابا كليمنت السابع تصريحًا بطبع الكتاب إلى جانب كتاب (المطارحات) وظهرت أول نسخة منه عام ١٥٣٢، وقد اكتسب كتاب (الأمير) سمعة

سيئة في حياة مؤلفه، حيث قال أحد أصدقاء ميكافيللي: «لقد كرهه الناس بسبب كتاب الأمير، لقد نظر الناس إليه على أنه خاطئ، ويعمل على إثارة الشر». ومما لا شك فيه أن ميكافيللي مفكر بالغ التعقيد، كتاباته تثير سخط العامة لأنها تساعد على اتباع الخدع الشريرة في الحكم، لكن كتاب (الأمير) لا يزال يفضي إلى عدد ضخم جدًا من التفاسير، وقد قدم لنا لازيا برلين عشرين تفسيرًا لكتاب (الأمير) مختلفة تمام الاختلاف. وصف برتراند رسل الكتاب على أنه دليل لقطاع الطرق وأفراد العصابات، فيما كان برنارد شو يقول ساخرًا إنه عبارة عن دراما عائلية، وكان ماركس معجبًا بذكاء صاحب (الأمير)، فيما اعتبره سارتر الواعظ الذي يقدم رسالة شريرة إلى العالم. في الوقت الذي اعتبره جان جاك روسو وديدرو متحدثًا رسميًا باسم الحرية السياسية، ورأى ليفي شتراوس أن ميكافيللي لا يمكن أن يوصف إلا بأنه معلم الشر.

واختلفت الدراسات السياسية عنه، فبعضها اعتبره أكثر علماء السياسة دهاءً، فيما نظر إليه آخرون باعتباره واضع نظرية الاستبداد، في الوقت الذي قال عنه هتلر إنه شخص يمجد الحرية والحكومة الشعبية، ولعل تتبع مسيرة حياته وأفكاره الفلسفية لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا.

***

ما الذي يجب أن تقرأه لنيقولا ميكافيللي؟

- الأمير، ترجمة وتعليق: محمد مختار الزقزوقي.
- المطارحات، ترجمة ودراسة: أحمد الشيباني.
- فن الحرب، ترجمة: صالح صابر زغلول.

***

وماذا بعد عن مصادر ميكافيللي في العربية؟

- ميكافيللي.. فيلسوف السلطة، تأليف: روس كينج، وترجمة: فايقة جرجس حنا.
- ميكافيللي والميكافيلية، تأليف: د. كمال مظهر أحمد.
- تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (١٦٠١-١٩٧٧م)، تأليف: رونالد سترومبرج، وترجمة: أحمد الشيباني.

-22-

لقد كتبت لأولئك الذين يجدون متعة في اعتلاء الأراضي المرتفعة

في الرابعة من عمره توفي والده الذي كان يعمل كاهنًا للقرية، فاهتمت به أمه وشقيقاته، وكان لذلك الجو النسائي أثره البعيد في تكوين شخصيته، إذ نشأ رقيق الطباع، ناعم الشخصية، ذا طباع نسائية. وهو ما حاول تغطيته فيما بعد بأفكار فلسفية تنزع إلى الشراسة والقوة. لم يمضِ طفولته في اللعب والمرح مثل أقرانه، لأن أمه التي كانت أيضًا ابنة لكاهن أرادت أن تجعل من ابنها خادمًا للكنيسة، فأخذت تحفِّظه الإنجيل وهو في سن الخامسة، وكانت تأخذه إلى الكنيسة ليستمع إلى الخطب الدينية ويحفظها. حتى إن زملاءه في المدرسة أطلقوا عليه لقب القسيس الصغير. وتشاء ظروف هذا الصبي الذي بلغ مرحلة الشباب وهو يستمع إلى وصايا أمه وشقيقاته أن يعثر عام ١٨٦٥، وبالصدفة، في مكتبة للكتب المستعملة على نسخة من كتاب شوبنهاور (العالم إرادة وتمثلاً)، وقد كان فيلسوف التشاؤم قد مات قبل خمس سنوات. ويسحره الكتاب فيقرر أن يكرّس وقته كله لدراسته، ونراه يصف شعوره وهو يقرأ شوبنهاور بقوله: «وضعت كتاب شوبنهاور في يدي وكان مجهولاً تمامًا بالنسبة لي، وبدأت بتقليب الصفحات. لا أعلم أية روح حارسة كانت تهمس لي: خذ هذا الكتاب إلى المنزل. في جميع الأحوال هذا ما حدث، مع أنه كان مناقضًا لعادتي بعدم التعجل بشراء كتاب أبدًا. في المنزل رميت بجسدي

على السرير، وبدأت بالسماح لتلك العبقرية الكئيبة بالتأثير على حياتي. كان كل سطر يصدح بالإنكار والنفي والتسليم».

لقد وجد نيتشه نفسه وجهًا لوجه أمام نبي التشاؤم شوبنهاور، حيث كان هذا الفيلسوف يمثّل حدًا فاصلاً في حياة نيتشه، لقد وصف لنا نيتشه شعوره وهو ينتهي من كتاب شوبنهاور بقوله: «إن الذي يظهر لي هو أن شوبنهاور كان يخاطبني أنا شخصيًا بالذات، كما لو كنت اراه أمامي فعلاً عند قراءتي للكتاب، ولقد كان شوبنهاور بالنسبة لي مرآة تطلعت من خلالها إلى العالم والحياة، وإلى طبيعتي أنا التي طغت عليها صورة من السواد المخيف».

عندما أرسل رسالة إلى أمه وشقيقته استبدل نيتشه الحديث المعتاد عن وضعه الصحي، وراح يقدّم لهما أفكارًا ملخصة عن فلسفته الجديدة المتعلقة بالإنكار والتشاؤم من العالم: «نعلم أن الحياة تتكون من المعاناة، وأننا كلما جهدنا أكثر في محاولة الاستمتاع بها ستزداد عبوديتنا لها، ولذا ينبغي علينا نبذ متع الحياة والركون إلى التقشف». بدت هذه الرسالة غريبة بالنسبة لأمه التي ردّت برسالة تشرح فيها عدم استساغتها لذلك النوع من الآراء، ونصحت ابنها بأن يأكل جيدًا. لكن تأثير هذا الفيلسوف لم يخمد، وبدأ نيتشه يعيش حياته تحت ظلال شوبنهاور، ونراه خلال خدمته العسكرية يضع صورة لفيلسوف التشاؤم على مكتبه وكان يصيح في اللحظات العصيبة: «شوبنهاور! النجدة!». في عام ١٨٦٩، يحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، وتستدعيه جامعة بازل السويسرية لإشغال كرسي الأستاذية للغة الألمانية وآدابها، غير إن التدريس لم يمنعه من التفكير في المساهمة الألمانية في الأحداث الدامية التي كان يخوضها بسمارك في سبيل الأمة الألمانية. وفي تلك السنوات بدأ ينجذب إلى الموسيقى، وما هي سوى أيام حتى نراه من أكبر المتحمسين لموسيقار عصره فاغنر، كما راح يعزف في أوقات فراغه على

آلة البيانو بشغف، ويجرّب تأليف نوتات موسيقية عرضها فيما بعد على فاغنر الذي رماها جانبًا. كان الموسيقار الألماني قد تأثر في بداياته بفلسفة فورباخ، لكنه تحوّل عنها بعد أن سحرته أفكار شوبنهاور، وها هو يرى في أستاذ الفلسفة الشاب نبوغًا من نوع خاص، فقرّر أن يرعاه، فدعاه لأن يقضي عطلة عيد الميلاد في منزله، وهناك استمع نيتشه إلى موسيقى المستقبل التي كان يعزفها له فاغنر بنفسه. وكان يستمع إلى الموسيقار العظيم وهو يحدثه عن آرائه في العنصر الجرمني، وعن الطبقية والمسيحية. ومن هناك، وقد سيطرت عليه موسيقى فاغنر وآراؤه في الفن والسياسة، يقرّر ذات يوم أن يتسلّق جبال الألب ليجد له مكانًا هادئًا، فيكتب إلى شقيقته: «لدي الآن أفضل وأروع هواء في أوروبا أتنفسه، طبيعة تشبه طبيعتي، في هذه الأجواء».

يضع مؤلفه الأول (مولد المأساة)، وفيه يقدّم تصوره الفلسفي للآداب والفنون الإغريقية، حيث يؤكّد أن أعظم الفنون اليونانية إنما كانت مزيجًا لاختلاط إيحاءات إلهين من الآلهة اليونانية هما دينيسوس وأبولو. وقد أهدى نيتشه أول نسخة من الكتاب إلى ملهمِه فاغنر وكتب في الإهداء: «إلى المعلم فاغنر: سترى إنني قد حاولت في كل صفحة أن أعبّر لك عن شكري على ما أفدتني إياه، واني لأشعر والفخر يملأني بأن لي شأنًا وأن اسمي سيقترن دائمًا باسمك». وما أن انتهى من (مولد المأساة) حتى وصلته أخبار الحرب بين ألمانيا وفرنسا، فطرب لذلك كل الطرب وسارع إلى ترك سويسرا ليستقلّ القطار المنحدر إلى فرانكفورت، وفي نيته الالتحاق بالقطعات الحربية الألمانية ليسجّل بنفسه أساطير التفوق الجرماني، لكن الفحص الطبي العسكري حال بينه وبين تحقيق رغبته، إذ وجد أن بصره ضعيف للغاية وإنه لا يصلح للقطعات الأمامية ويمكنه الخدمة في المواقع الإدارية للجيش. وفي الجيش بدأت الخيوط العريضة لفلسفته تتضح، إذ يكتب لأمه بعد أن شاهد مسيرة لإحدى الكتائب العسكرية الذاهبة إلى القتال: «لقد شعرت لأول مرة في

حياتي بأن إرادة الحياة في أقوى وأسمى مظاهرها لا يمكن أن تعرب عن ذاتها في الكفاح العادي التافه، إنما في إرادة الحرب وفي إرادة القوة، بل وفي إرادة ما فوق القوة».

***

كانت في الحادية والعشرين من عمرها حين أربكت أستاذ الفلسفة البالغ من العمر الثامنة والثلاثين، عندما التقاها في روما، استهل حواره معها بعبارة: «من أي نجم سقط كل منا على الآخر؟» كان قد ترك التدريس لأسباب تتعلق بصحته المتعبة، راح يتنقل في فنادق متواضعة بين نيس وروما، باحثًا عن الإنسان الكامل. كان يكتب الصفحات الأخيرة من كتابه (العلم المرح)، يكتب إلى صديقه بول ري: «حيّوا تلك الروسية باسمي، فأنا متعطش لهذا النوع من البشر، وسأضع نفسي قريبًا فريسة لهذا النوع من الشرك، فأنا بحاجه إليه في السنوات القادمة». ورغم أن نيتشه كان يعتقد أنه غير مؤهل للاتحاد مع امرأة ترغب في منح الراحة إلى زوجها والبيت الدافئ المريح، لكنها تسلب وبإرادة كاملة زخم الاندفاع الداخلي للروح البطولية عند الرجل. ويكتب في مقال طريف عن الزواج أن سقراط وجد في نهاية الأمر المرأة المناسبة، (انخا كسانتيب) القبيحة التي شجعته باضطراد مستمر على أداء مهمته العقلية حيث جعلت المنزل منفرًا، وحين كانت تطرده خارج المنزل كانت بهذه الطريقة تسهم في جعله أكبر مجادل في أثينا. وهو يصف نفسه في ختام المقال مثل الطير الحر الذي يفضّل الطيران وحيدًا.

ونراه يتساءل في (زرادشت) عن معنى الزواج، فتكون الإجابة إنه: «فقر الروح الذي يتشارك فيه اثنان.. آه! قذارة النفس التي يتشارك فيها اثنان، هذا الهناء الشقي الذي يتشارك فيه اثنان». ويضيف: «إن ما تسمونه حبًا هو عبارة عن الكثير من لحظات الجنون القصيرة، ويضع زواجكم نهاية

للحظات الجنون القصيرة تلك ويستبدلها بغباء طويل الأمد». عندما التقى فريدريك نيتشه بلو أندرياس سالومي فكّر أكثر من مرة أن يجرب هذه الكذبة الصغيرة المهندمة، إنه الأمل في التخفيف من وحدة الفيلسوف، وربما الرغبة في طمأنة شقيقته التي تراه غارقًا في أفكاره السوداوية، والتي كانت تقول له دومًا: «لا بد أن تتزوج». وكانت هذه الشقيقة تتقمص في مناسبات عديدة دور الخاطبة وتبحث له عن زوجة مناسبة، وتضع أمامه كل أسبوع الكثير من المرشحات، إلا أن هواجس الفيلسوف النزقة كانت شديدة الغرابة. ورغم أن الحلم بالعيش داخل منزل زوجي ظل يداعب خياله، لكنه في عام ١٨٧٧ سيكتب لشقيقته الكبرى: «أرجوك لا تشغلي نفسك بالبحث كثيرًا، فإن المرأة الكاملة التي تناسبني أصبحت سلعة شحيحة». وفي رسالة أخرى يكتب لها: «إن الزواج يخلو من المعنى، نحن نعيش لليوم، نعيش سريعًا جدًا، ونعيش بطريقة غير مسؤولة، وهذا ما نسميه تحديدًا حرية ثم تتوالى الأزمات ويتوالد الكره ويصاب الأطفال بالخسارة، ويختتم رسالته بقوله: «ينبغي أن يمنع على الإنسان حين يكون عاشقًا أن يتخذ قرارًا يكون ملزمًا له طوال حياته».

***

لم يكن البحث عن زوجة لنيتشه بالأمر السهل، وإذ كانت المشكلة عائدة في بعض الأحيان إلى مظهره الفظ، فإنها أيضًا كانت مرتبطة بخجله الشديد وطريقته الخرقاء في التعامل مع النساء، لكننا نراه في ربيع عام ١٨٧٦ يقع في غرام ماتيلدا ترامبيداخ، فتاة شقراء في الثالثة والثلاثين من العمر، أثناء محادثة عن شعر هنري لونغفيلو. وبعد أيام فوجئت الفتاة بجملة طويلة يلقيها أستاذ الفلسفة أمامها وعلى عجالة كأنه يريد أن يتخلّص من أمر صعب. كانت الجملة عبارة عن عرض للزواج: «ألا تعتقدين أن كلاً منا

سيكون أفضل وأكثر تحررًا لو كنا معًا مما لو كان كل منا سيفعله منفردًا، فهل تجرؤين على القدوم معي في جميع دروب الحياة والتفكير». سألها وهو يتلعثم، لكنها نظرت إلى شاربه الغليظ ثم اختفت، بعدها تتابعت سلسلة من حالات الرفض المشابهة، وفي ضوء اكتئابه وضعف صحته قرر ريتشارد فاغنر أن ثمة علاج واحد ممكن: «عليك أن تتزوج من امرأة ثرية». ولم يخطر على بال الموسيقار الشهير أن المرأة الثرية الوحيدة التي كان يحلم بها تلميذه هي زوجته كوزيما. فلسنوات ظل نيتشه يخفي مشاعره نحو زوجة فاغنر بحرص تحت غطاء الصداقة، ولم تكشف الحقيقة إلا بعد أن فقد عقله حيث كتب لها: «أنا أحبك يا معبودتي» في بطاقة معايدة أرسلها لها من المصحة.

عام ١٨٨٨، اعتقد أنه وجد المرأة المناسبة «لو أندرياس سالومي» وهي حبه الأكبر والأشد إيلامًا، فتاة جميلة وذكية، مسحورة بفلسفته. قال لها بعد أسبوعين من تعارفهما: «لم أعد أرغب بالبقاء وحيدًا». كان في ذلك الوقت يعاني من مصاعب مالية، لم يبع أيًا من كتبه سوى نسخ قليلة، وبعض المبالغ التي كان يحصل عليها من عائلته لا تكاد تكفيه لحجز أرخص الغرف في فنادق بائسة وغالبًا ما يتأخر في دفع الإيجار، ولم يعد قادرًا على دفع تكلفة طبق العشاء. وقد منحته سالومي في بداية علاقتهما الأمل الزائف، رحلة إلى مونت ساكرو. هناك اكتشفت رجلاً أشعث الشعر، مثقل القلب دومًا شكاكًا، وتدل هيئته على الجنون، كتب إلى شقيقته: «يبدو إني لم أعنِ شيئًا بالنسبة لها قط». وفي الخطاب الأخير الذي أرسله إلى سالومي لم يطلب منها أكثر من شيء واحد: «أن نشعر أننا متحدان في كل ما لم تبلغه الأرواح»، ولكن حتى هذا رفضت أن تعده به، ونراها تقرر في النهاية الارتباط بالشاعر رينيه ريلكه، الذي أراد أن يتحرش به ويدفعه إلى مبارزة من أجل تلك الخائنة الروسية.

بعد هذه الخيبات التي تركت في أعماقه جروحًا عميقة، صبّ غضبه على النساء في كثير من مؤلفاته. قال: «النساء يتآمرن دائمًا على نفوس أزواجهن الأكثر رفعة، يردن سلب مستقبلهم منهم لحاضر مريح بعيد عن الألم». في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) يكتب: «يجب أن يهيأ الرجال للحرب، وأن تهيأ النساء للترفيه عن المحارب».

وقد دفعه رفض سالومي لأن يعيش في أقصى درجات اليأس، ونراه يكتب وهو يعيش أقصى حالات اليأس: «هذه اللقمة الأخيرة من الحياة كانت أصعب ما اضطررت إلى مضغه حتى الآن، وما زال من المحتمل أن أختنق بها. لقد عانيت من الذكريات المهينة والموجعة في هذا الصيف كالمعاناة من نوبة جنون، أنني أعيش الآن في عزلة تامة ومحطمًا على نحو لا يطيقه إنسان، ولو لم أكتشف الخدعة الكيميائية لتحويل هذا السماد إلى ذهب لضعت، إنني هنا أمام أفضل فرصة لإثبات أنها ليست لي، فإن جميع التجارب مفيدة وجميع الأيام مقدسة». وبناءً على هذا بدأ بكتابة (هكذا تكلم زرادشت) الذي وصفه بأنه أهم كتاب على الإطلاق قُدم إلى البشرية، فقد كان يريد أن يعبّر عن كل ما بداخله دفعة واحدة، هكذا أخبر شقيقته: «أحب الذين لا يعرفون للحياة معنى بغير الإبادة والتدمير لأن هؤلاء وحدهم هم الذين يمضون إلى ما وراء القوة».

***

كتاب (هكذا تكلم زرادشت) يعد من أكبر الكتب إثارة للجدل، حاول نيتشه أن يقدّمه إلى المطبعة بجزءين، وقد تأخر صدور الجزء الأول بسبب انشغال المطبعة بطبع نسخ من التراتيل الدينية، وعندما أرسل الجزء الثاني إلى الطبع رفض صاحب المطبعة طباعته بدعوى أنه كتاب فاشل. وكان كلام الناشر صحيحًا، فلم يبع من الجزء الأول سوى أربعين نسخة، حيث

استقبل الكتاب ببرود قاتل من قبل المهتمين بالفلسفة فلم يرحب به أحد، بل حتى زملائه السابقين في الجامعة اعتبروا الكتاب فاشلاً لأنه يريد أن يقتل جميع الأديان والآلهة: «لأنني عشت جميع الأخطار، فسأدفنكم بيدي أنا، لقد ماتت الآلهة القديمة منذ زمن بعيد، ولقد كانت نهايتها حسنة وفرحة». ويذهب نيتشه أبعد من ذلك حين يعلن: «إن الضعفاء والعجزة يجب أن يفنوا. هذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية». تلك هي القيم التي بشّر بها زرادشت نيتشه فليس الوجود إلا «الحياة»، وليست الحياة إلا «الإرادة»، وليست هذه الإرادة إلا «إرادة القوة». بعد ذلك نسمع زرادشت وهو يقول واعظًا: «عيشوا حياة الأخطار وأقيموا مدنكم إلى جانب الأقوياء، وابعثوا بسفنكم إلى البحار المجهولة، ثم عيشوا حالة حرب».

بعد (زرادشت) عاش نيتشه مريضًا، فقيرًا، شاردًا، ومتشردًا على الطرقات والدروب. لا منزل ثابتًا له، ولا بيت دافئًا، ولا زوجة، ولا صديقًا ولا أنيسًا، لا شيء أبدًا.. لا أحد.. وحدة مقفرة، شاسعة مترامية الأطراف. وحدة يكاد يسمع فيها أزيز الصمت يلفّه من كل الجهات. والأكثر من ذلك، هو أنه لم يكن يرى أمامه إلى أبعد من ثلاث خطوات، وها هو يصور حالته: «إن وجودي عبء ساحق لا يُحتمل، لا أستطيع أن أقرأ! ونادرًا ما أستطيع أن أكتب! ولا أستطيع أن أتواصل مع أي شخص على وجه الأرض! ولا أستطيع أن أسمع أي موسيقى! أن تكون وحيدًا وأنت تمشي». ورغم هذه الظروف نراه يكتب لأحد أصدقائه: «من بين مؤلفاتي كلها، يحتلّ هذا الكتاب مكانة خاصة. عندما قدمته للبشرية أعطيتها أكبر هدية يمكن أن تتلقاها. إن هذا الكتاب الذي يخترق صوته أعماق القرون المقبلة ليس فقط أعلى كتاب وجد حتى الآن، الكتاب الحقيقي الذي يليق بهواء القمم والأعالي. وإنما هو أعمق كتاب انبثق من كنوز الحقيقة الدفينة الأكثر سرية. كل الظواهر البشرية

تنحطّ عن علوّه الشامخ أو تقع على مسافات لا نهائية تحته.. إنها بئر عميقة لا تُستنفد، وكل سطل ينزل إليها لا يمكن أن يخرج إلا وهو مليء بالذهب المصفّى والطيبة الإنسانية»..

***

كان عام ١٨٨٨، وهو آخر السنوات التي تمتع فيها نيتشه بسلامة العقل، عامًا خصبًا للغاية، وإن كان على نحو آخر متزايد الغرابة، لقد بدأ يكتب ما سيعتبر واحدًا من أهم كتبه (أفول الأصنام) ثم تركه، فقد وجد نفسه تائهًا، إنه دائمًا على بعد خطوات من المستشفى. كان نيتشه يريد أن يحوّل نفسه في السنة الأخيرة من حياته إلى أسطورة، لكنه يعود إلى الكتاب بعد أشهر. كان عنوان الكتاب محاكاة ساخرة لأوبرا فاغنر الشهيرة (أفول الآلهة)، وعلى الرغم من أنه انتهى من الكتاب وهو على حافة الانهيار، فإن (أفول الأصنام) احتوى على أطول أغنيات نيتشه وأكثرها حماسًا التي يوجهها إلى غوته، الذي أصبح بالنسبة لنيتشه النموذج الأصلي لـ«الإنسان الأعلى». في هذا الكتاب يحذرنا نيتشه من الأصنام التي تريد السيطرة علينا.

في عام ١٨٨٩، تحققت نبوءة نيتشه، إذ أُصيب بهزة عصبية أفقدته صوابه، فقد انهار في ميدان في تورينو، وحُمل إلى مقر إقامته حيث فكّر بإطلاق الرصاص على القيصر وخطّط لشن حرب على الضعفاء، قبل أن يُنقل في قطار إلى مصحٍ في ألمانيا لتعتني به أمه العجوز وشقيقته حتى وفاته بعد أحد عشر عامًا وقد بلغ الخامسة والخمسين. لينتهي عمل فيلسوف كان وسيظل له أثر قوي على حياتنا، فنيتشه من الفلاسفة القلائل الذين عرفوا كيف يوجّهون الإنسان إلى معرفة نفسه والوقوف إزاءها مجردًا، وقليل من أصحاب جمهورية الفضيلة من يمزقون الأغشية والأكاذيب التي تُخفي بها النفس البشرية ضعفها وجبنها وذلها وعجزها. إن نيتشه مثل طبيب صارم لا

تدخل قلبه الشفقة، والعلاج الذي يحمله إلى مرضاه علاج قاس، لكنه علاج يخلق العزم والقوة. إنه لا يعزّي الإنسان الشاكي، لكنه يترك الدماء تسيل من جراحه ليجعله أكثر صلابة وأشد احتمالا للألم. فهو إما يشفي مرضاه شفاءً صحيحًا، أو يتركهم يموتون. لقد كانت حياة نيتشه القاسية والمصاعب التي تعرض لها جعلت منه مفكرًا صارمًا على الإنسانية المتألمة، وظلّ على غبطته ورضاه حتى وهو يصارع المرض والموت والجنون، دون أن ينفذ إليه اليأس والوهن والضعف، مرددًا أنشودته المؤثرة في تمجيد شباب الحياة الفيّاض بالأمل، مناضلاً حتى النهاية، ولم يستطع الألم الذي تغلب على عقله أن يقهر إرادته الواعية.

كان نيتشه يدرك أن الأجيال القادمة لن تفهمه، ولن تنصفه، فكتب في أوراقه التي عُثر عليها بعد موته أن: «كتاباتي هدفها التفكير، ولا شيء غير هذا. لقد كتبتُ لأولئك الذين يجدون متعة في التفكير وفي اعتلاء الأراضي المرتفعة».

***

ما الذي يجب أن تقرأه لفريدريك نيتشه؟

- هكذا تكلم زرادشت.. كتاب للكل ولا لأحد، ترجمة: فليكس فارس.
- أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي.
- مولد التراجيديا، ترجمة: شاهر حسن عبيد.
- أفول الأصنام، ترجمة: حسان بورقية ومحمد الناجي.
- ما وراء الخير والشر.. تباشير فلسفة للمستقبل، ترجمة: جيزلا فالور حجاز.

- عدو المسيح، ترجمة: جورج ديب.
- إنساني مفرط في إنسانيته.. كتاب للمفكرين الأحرار، ترجمة: علي مصباح.
- إرادة القوة.. محاولة لقلب كل القيم، ترجمة: محمد الناجي.

***

وماذا بعد عن مصادر نيتشه في العربية؟

- نيتشه، تأليف: فؤاد زكريا.
- نيتشه والفلسفة، تأليف: جيل دولوز، وترجمة: أسامة الحاج.
- نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، من سلسلة أوراق فلسفية، تحرير: د. أحمد عبد الحليم عطية.
- نيتشه، تأليف: هنري ليشتانبرجر، وترجمة: خليل الهنداوي.
- نيتشه، تأليف: عبد الرحمن بدوي.
- أقدم لك نيتشه، تأليف: لورانس جين وكيتي شين، وترجمة: إمام عبد الفتاح إمام.
- نيتشه، تأليف: يانكو لافرين، وترجمة: جورج جحا.
- نيتشه وإرادة القوة، تأليف: بيير مونتيبيلو، وترجمة: د. جمال مفرح.
- نيتشه مفتتًا، تأليف: بيير بودو، وترجمة: أسامة الحاج.

-23-

رجل موسوس بالحياة يعيد ترتيب أفكارنا

استعار عنوان كتاب القديس أوغسطين، الفيلسوف الذي قدّم لنا سيرته الذاتية عام ٤٠٠ للميلاد، صوّر فيها تطوره الروحي وأظهر لنا من خلالها الصلة الوثيقة التي طالما جمعت بين حياته وفكره، وليست هذه السيرة الذاتية سوى كتاب (الاعترافات) الذي أجمع الكثير من مؤرخي الفلسفة على اعتباره تحفة أدبية نادرة في تاريخ التراجم الذاتية. وبعد أكثر من ألف وثلاثمائة عام يكرّر فرنسيٌّ التجربة، حيث يمزج الواقع بتفاصيله الكثيرة كالعادة بالفكر والفلسفة. كتاب (اعترافات) جان جاك روسو، أراد له صاحبه أن يكون سيرة ذاتية متحرّرة تصدم القرّاء وتهزّهم: «على الرغم من أنني خجول بطبيعتي، إلا أنني كنت جسورًا في بعض الأحيان -في شبابي- ولكني لم أكن كذلك قط في شيخوختي، فكلما ازددت تعرفًا على المجتمع، قلّت قدرتي على أن أكيّف نفسي وفقًا لأساليبه في الحديث، وإذا كان قدّر لي ألا أحب العيش وسط الناس، فقد كان هذا ذنبهم أكثر مما هو ذنبي».

ولد جان جاك روسو في جنيف عام ١٧١٢ لعائلة فقيرة، فقد أمه بعد ولادته مباشرة. ويخبرنا: «ولدت سقيمًا عليلاً، وقد كلفت أمي حياتها، فكانت ولادتي فاتحة مصائبي وشقائي». أما أبوه فكان يعمل مصلحًا للساعات في النهار، ومعلمًا للرقص في المساء، تخلّى عن ابنه روسو عندما كان في الثامنة من عمره، وتركه في بيت خاله الذي حاول أن يدخله ديرًا

ليصبح كاهنًا، ويكتب فيما بعد أن أصعب شيء واجهه في حياته هو رؤية القس وشقيقته كل صباح. ولم تمضِ أيامه في الدير هادئة، فقد اتهم بسرقة مشط إحدى السيدات، فيطرد من الدير، ويعود إلى خاله الذي سيرسله، هذه المرة، للعمل عند أحد الكتَبة العموميين. فيطرده بعد يومين، ويذهب به خاله إلى صاحب ورشة شديد القسوة غليظ القلب، ما دفع روسو إلى تعلم الغش والكذب والسرقة، إلى درجة أنه بدأ يتمرد، ويخرج مع أصدقائه إلى خارج المدينة للبحث عن الحرية، ولا يعود إلا في وقت متأخر من الليل، فيشبعه صاحب الورشة ضربًا.

كان التشرد والحرمان واليتم طابع حياة روسو، ما عمّق أحاسيسه، وجعله يشعر بالظلم: «لقد علّمتني ذكرى التبدل الذي أصابني في حياتي الفرق بين تبعية الابن للأسرة وبين الخضوع الذليل للآخرين».

ونراه يكتب في مقدمة كتابه الشهير (إميل أو التربية): «لقد ولدت محدود المواهب، ومع ذلك فقد قضيت شبابي في خمول سعيد لم أكن لأفكر في الخروج منه قط، وبدأت اقترب من سن الأربعين، وكنت أملك عوضًا عن ثروة كنت أزدريها دائمًا، وعن اسم اضطررت لأن أدفع من أجله كثيرًا، كنت أملك عوضًا عن ذلك الراحة».

***

البحث عن فرقة مسرحية

كان في الثلاثين من عمره عندما وصل إلى باريس عام ١٧٤١ وهو يحمل مخطوطة مسرحية موسيقية، وخمسة عشر فرنكًا. ترك خلفه امرأة تكبره بعشرين عامًا، حاولت أن تعوّضه عن حرمان الأمومة، كانت تلك السيدة تدعى مدام دوفارين، وقد خلّدها فيما بعد في كتابه الشهير (الاعترافات)،

ويصف لنا كيف كانت تناديه «يا صغيري». فشل مشروعه المسرحي بعد أن فحصته لجنة من أكاديمية الفنون، فيكتب إلى اللجنة خطابًا غاضبًا: «ستعرفون فيما بعد قوة عظمتي». وبدلاً من أن يدخل مجتمع المشاهير، كما كان يحلم، دخل عالم البؤساء حيث تعرّف على خادمة تغسل الثياب في أحد الفنادق الصغيرة فارتبط بها. وكانت فتاة بسيطة أمية، لا تعرف القراءة والكتابة. في تلك الأيام تشاء الظروف أن يتعرف على شاب مشاغب مثله اسمه دنيس ديدرو في السابعة والعشرين من عمره، سيصبح فيما بعد واحدًا من أكبر فلاسفة العصر. شاب حالم، متقد العواطف، يصفه جان جاك روسو في اعترافاته وصفًا دقيقًا: «كانت له جبهة عريضة، وعينان في غاية التيقّظ، وملامح بارزة، ورأس له هيئة رأس خطيب من العصور القديمة، وطيبة قلب تلامس عن قرب السّذاجة والبساطة التي تَسمُ الأزمنة الماضية». فيما ديدرو يضع وصفًا لصديقه الشاب روسو في موسوعته الشهيرة عن الفنون والعلوم: «لقّبوه بالفيلسوف لأنّه ولد من غير طموح، ولأن له روحًا نزيهة، ولأنّ الرغبة لم تفسد قط اللّطافة والسّلام فيه. بالإضافة إلى ذلك، رصين ووقور في هيئته، صارم في طبائعه وأخلاقه متقشّف وبسيط في خطابه، كان معطف الفيلسوف القديم الشيء الوحيد تقريبًا الذي يُعْوزه، ذلك أنه كان فقيرًا وسعيدًا بفقره». ولأن طريق المسرح أغلق بوجهه، فقد قرّر أن يتخذ من الموسيقى مهنة له، عازفًا على الكمان في إحدى الفرق الجوالة. وبسبب عشقه للموسيقى كتب بحثًا بعنوان (مقال في الموسيقى) قدّمه لأكاديمية الفنون فرُفض أيضًا، مع توصية بأن يهتم بأمر آخر غير الموسيقى، حاول أن يجرّب حظه في تأليف الأوبرا، فوجد نفسه عرضة للسخرية.

عندما قرّر دينيسْ ديدرو وضع أول موسوعة في العالم عن العلوم والفنون، طلب من صديقه الشاب روسو أن يكتب مقالات في الموسيقى

والاقتصاد السياسي، مقابل فرنكات تعينه على دفع أجرة الفندق البائس، إلا أن الحال لم يستمر طويلاً. حيث سجن ديدرو بتهمة الإلحاد بعد نشر كتابه الشهير (رسالة إلى العميان) الذي دافع فيه عن فلسفته الماديّة، مجاهراً بإلحاده، حيث أراد أن يثبت من خلاله أن أفكارنا عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الله، بل من خبرتنا الحسية، بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها، وهي أيضًا مثل فكرتنا عن الأخلاق، نسبية متنوعة، وأن وجود الله مشكوك فيه لأن البرهان من أصل الوجود فقد كثيرًا من قوته.

وقد أثار الكتاب ضجة، دفعت فولتير إلى أن يرسل له رسالة حماسية يقول فيها: «قرأت في سرور بالغ كتابك الذي يذكر الشيء الكثير ويوحي بشيء أكثر. وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير، بقدر ما أحتقر أولئك الأغبياء الذين ينقصون من قدر ما لا يفهمون، ولكني أعترف لك أني لست من رأي صاحبك الأعمى الذي ينكر وجود إله، لأنه ولد أعمى. وربما كنت مخطئًا، ولكن لو أني في مكانه لاعترفت بوجود كائن أعظم بارع وهبني إضافات كثيرة تكمل البصر. أود من كل قلبي أن أتحدث إليك، وليس يهمني أن تعتقد أنك واحد من مخلوقاته، أو أنك جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية. وقبل مغادرتي لونفيل أرجو أن تشرفني بتناول عشاء فلسفي معي، في داري بصحبة بعض الحكماء».

ويرد عليه ديدرو قائلاً: «سيدي الأستاذ العزيز: إن اللحظة التي تسلمت فيها خطابك من أسعد لحظات الحياة. ليس يهمني مطلقًا أن تؤمن بالله أو لا تؤمن به، لقد قال مونتاني إن العالم كرة تخلى عنها الإله للفلاسفة ليهيموا على وجوههم مطوفين حولها». وبسبب هذا الكتاب قامت الشّرطة باقتياد ديدرو إلى السّجن، فقرّر روسو أن يزوره، ولأنه لم يكن يملك أجرة النقل، قرر أن يذهب مشيًا. وفي الطريق يقف عند أحد بائعي الصحف فتقع عيناه على

إعلان عن مسابقة طرحتها أكاديمية الفنون، وكان الموضوع عبارة عن جواب للسؤال التالي: «هل أسهم تقدم العلوم والفنون في إفساد الأخلاق أم في تهذيبها؟» يخبرنا روسو في اعترافاته: «في لحظة قراءة هذا السؤال، رأيت عالمًا آخر، وغدوت إنسانًا آخر». وبدلاً من أن يواصل السير باتجاه السجن، غيّر اتجاهه ليعود إلى غرفته في الفندق ويغلق عليه بابها، ويبدأ كتابة بحثه الشهير (رسالة في العلوم والفنون) والذي أنجزه في ساعات، ثم يحمله ويذهب به إلى صديقه السجين يطلعه على مسودة الكتاب. فيجلسان ساعات في باحة السجن يصحّح فيها ديدرو بعض النقاط التي اختلفا حولها، ثم يرسله إلى الأكاديمية. فتكون المفاجأة. حيث يفوز بالمركز الأول، ويظهر الكتاب بعد عام ليحصل من خلاله على الشهرة والمال، ويودّع عالم الفقر والعوز. وإذا به بعد سنوات من البحث عن وظيفة موسيقيّ في إحدى الصالات الرخيصة، يصبح محطّ أنظار جميع نوادي باريس الشهيرة.

وصل بعد ذلك بخمس سنوات ذروة الشهرة حين أصدر كتابه (خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر). فلخّص في كتابيه هذين فلسفته في المساواة التي قال عنها: «ولد الإنسان طيبًا خيّرًا، لكن المجتمع ومؤسساته هما اللذان أفسداه. لقد ولد للسعادة والفضيلة، ولكنه ترك نفسه تتغير بسبب تطور المعارف وإغراءات الترف والقوة». إن كتابَيّ روسو يصفان التطور الذي دخل الشر فيه إلى العالم والصورة التي أفسدت فيها الطبيعة الإنسانية. ونراه يحاول في كتابه الثالث (مقال حول الاقتصاد) أن يوفّق بين واجبات الإنسان وواجبات المواطن، ويعرض ربما للمرة الأولى نظرية عن الإدارة العامة، والقوانين الوضعية، وأصل الحكومة وقاعدة الصواب والخطأ في انبثاق الهيئات السياسية وسبل تماسكها وقوتها.

***

لعلَّ الكتاب الأكثر إثارة الذي نشره عام ١٧٦٢، هو كتابه الضخم والمعنون (إميل أو التربية)، الذي ترجمه إلى العربية عادل زعيتر. وقد صاغ روسو كتابه هذا على شكل رواية بطلها الطفل إميل، ومن خلال أحداث الرواية، يدير روسو رؤيته التربوية القائمة على فكرة صلاح الفرد وفساد المجتمع. فالفرد يولد بفطرة طيبة نقية وطاهرة، لكن بيد المجتمع إفسادها أو حمايتها، فالشر الذي يحدثه الإنسان ليس أصيلاً فيه. وقد قال في عبارة مشهورة استهلَّ بها كتابه: «كل شيء يخرج من يـد الخالق صالحًا، وما إن تلمسه يـد الإنسان، يصيبه الاضمحلال». والكتاب ينتمي إلى مرحلة أصبح فيها روسو مفكرًا يُبشر بفلسفة خلاصتها أن الإنسان يولد طيبًا في طبيعته، لكن ظروف المجتمع هي التي تمارس أثرها السيء عليه، ما يفقده بالتدريج طيبته. وبرغم أن كتاب سيرة روسو يأخذون عليه في هذه المرحلة التناقض في السلوك الذي كان يعيش فيه، فنجده مثلاً يترك خادمة الفندق التي تزوجها بعد أن أنجبت له خمسة أولاد، يسلمهم إلى ملجأ اللقطاء غير عابئ بالمسؤولية. ثم يُفاجئ الناس بكتاب مهم عن التربية وكأنه يريد أن يكفّر عن ذنوبه وخطاياه، ويصرّ على أن يترك وصيته في الحكم والعلاقة بين الحاكم والشعب في كتابه الشهير (في العقد الاجتماعي) الذي اعتبره المؤرخون المحرك الأساسي للثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩. ويقال إن الثوار حملوا كتابه هذا بعد أحد عشر عامًا من وفاته، وكانوا يلوحون به وهم يحاصرون قصر فرساي قبل أن يقتحموه. ومن الطريف أن ماري أنطوانيت قبل أن تُعدم طلبت من خادمتها أن تأتيها بصورة لهذا الأفّاق لتبصق عليها.

يكتب مؤرخو حياة روسو أنه تخلّى عن أبنائه لأنه أراد أن ينهج منهج أفلاطون الذي أكّد في كتابه (الجمهورية) أن الطفل مُلكٌ للدولة. إلا أن

ستيفان تسفايج في كتابه الشهير عن روسو ينفي هذه التهمة عنه، مؤكدًا أنه لم يكن له أطفال على الإطلاق لعجزه عن الأبوة. وتسفايج يعتقد أن روسو لفّق على نفسه هذه التهمة، لأنه كان يعاني من مرض جنسي أثّر على رجولته فمنعه من الإنجاب، وأنه كان يريد بهذه القصة أن يثبت للعالم أن باستطاعته أن ينجب أبناء بهذه الوفرة، ثم يلتمس للتصرف فيهم هذا التصرف عذرًا من أعذار الفلاسفة والحكماء.

يبدو روسو ثوريًا في كتابه (إميل)، فالإنسان الذي لا يكون شيئًا عند ولادته سيصبح ذات يوم كل شيء. إن هذا التكوين للعقل هو الذي يدرسه روسو، وهو يريد أن يؤكّد ألا معنى لتاريخ فساد الإنسانية لولا تاريخ الإنسان نفسه. إن تطور الفرد يعكس إذن تاريخ نسله، ومع هذا الفرق نجد أمام كل طفل إمكانية مستقلة، فليس الطفل بالنسبة لروسو أولاً، إلا أحاسيس، ثم عقلاً حسيًا، ومن ثم يغدو «عقلاً عقلانيًا» وأخيرًا ضميرًا أخلاقيًا. فكيف نساعد الطفل لئلا يبعثر حظه في تطوير ملكاته العقلية؟ ولهذا فهو يوصي بالقيام: «بدراسة صارمة ودقيقة لطبيعة الطفل قبل الإقدام على تربيته». وتقوم المسألة بعد ذلك على: «جعل الطفل يسلك درب الحقيقة ما إن يبدو قادرًا على التعرف عليها، ومن ثم يسلك درب الخير ما إن يصبح قادرًا على ذلك مدركًا المعنى الحقيقي للخير». ولهذا فالتربية فرحة، وطريق الطبيعة البكر الذي يجب أن يقود إلى ثقافة متناغمة مع جوهر الطفل الذي يريد أن يكون سعيدًا.

كان روسو يعلّق أهمية كبيرة على كتابه (إميل)، لأنه يتضمن حجر الزاوية في نظريته، فبعد أن كشف في مقالاته ورسائله عن رذائل المجتمع الحديث، كان يتعين عليه أن يُجدد في مؤلفاته القادمة نواحي الإصلاح التي يجب إدخالها على المجتمع، وقد كان يعرف جيدًا أن لا أحد يستطيع أن يشرع في

إصلاح الدنيا من دون أن يسعى إلى إصلاح التربية، وقد حرص روسو أن يوضح لقرائه كيف أن الأفكار الواردة في (إميل) مكملة لمبادئه ومتماشية مع فلسفته.

لم يلقَ الكتاب عند صدوره الاهتمام الذي لاقته كتب روسو الأخرى، لكن أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي تقدّم بشكوى يتهم المؤلف فيها بالإلحاد وإفساد عقول الشباب. فأصدر المجلس عام ١٧٦٢ قرارًا بحرق الكتاب والقبض على مؤلفه الذي كان في ضيافة إحدى الأميرات، فسارعت إلى إيقاظ ضيفها في منتصف الليل، تتوسل إليه أن يرحل قبل أن تُداهم الشرطة القصر. فخرج متخفيًا في منتصف الليل، ليبدأ رحلة المنفى إلى سويسرا التي دخلها بعد غيبة عشرين عامًا، خرج منها شريدًا مطاردًا وعاد إليها مشهورًا وغنيًا، لكنه مطارد أيضًا. ومن هناك بدأ يرد على متهميه من أساقفة باريس وليبدأ بنشر كتابه الشهير (في العقد الاجتماعي) الذي أظهر فيه أن مصير الإنسانية يرتبط بطبيعة المؤسسات السياسية، وأن بضعة شعوب فقط استطاعت أن تعيش في سلام وتنجو من التدهور والتدمير بسبب تمتعها بمؤسسات تُقيم الحرية وتقود إلى الفضيلة وتنشر الخير. ويعرج على الدين فيقف في وجه النظريات المسيحية، ويناصب الكنيسة العداء قائلاً: «إن الناس كانوا سعداء متساوين قبل حلول الأديان، وأما الديانة الحقّة فهي التي بين الخالق والمخلوق وعنها يخدم الأخير الأخلاق ويخدم الوطن».

***

أحلام جوال منفرد

لم تطل إقامته في جنيف، فقد ثار رجال الدين ضده وحرّضوا الفلاحين، فهجموا على بيته ليرموه بالحجارة، وهرب متخفيًا إلى جزيرة سان بيير. ولم يسمح له بالإقامة سوى شهرين بالجزيرة ليغادرها حين صدر مرسوم

بطرده، توجّه بعدها إلى ستراسبورغ، ليمكث أيامًا ضاق فيها من فضول المتطفلين الذين كانوا يشيرون إلى هذا المشرد المشهور. غادر عام ١٧٦٦ إلى إنكلترا ضيفًا على الفيلسوف دافيد هيوم، حيث أعجبه المقام هناك، فبدأ بكتابة اعترافاته الشهيرة (اعترافات جان جاك روسو) صوّر فيها مآسي حياته الكثيرة وأفراحها القليلة، ويكشف بجرأة عن نفسه دون أن يخفي عيبًا أو ضعفًا. إلا أن الحنين إلى باريس يجعله يعود إليها متخفيًا باسم مستعار، ليعيش منعزلاً، يقرأ اعترافاته على مجموعة صغيرة من الأصدقاء ويهتم بدراسة النباتات، ثم بدأ يكتب مقالاً وزّعه فيما بعد على من كان يصادفهم في طريقه بعنوان (إلى كل فرنسي لا يزال يحب الحق والعدالة)، وفي لحظة يأس كتب مؤلفه الأخير (أحلام يقظة جوال منفرد) وفيه يجتر ذكريات أحلامه التي لم تتحقق ليترك بعدها مسكنه ويعيش في الأرياف بعد أن نصحه الأطباء بأن صحته تتدهور، لكنه لم يعش طويلاً.

في الثاني من تموز عام ١٧٧٨ خرج صباحًا كعادته لجمع النباتات، لكنه شعر بضيق في صدره فسقط على الأرض، وأصيب بجرح في رأسه ويموت بعدها بساعات. وكما كانت ولادته مثيرة وحياته غريبة، كانت وفاته كذلك أيضًا. حيث انتشرت شائعة تقول إنه مات منتحرًا، وعند سماع صديقه ديدرو بخبر وفاته ذهب إلى المقبرة التي دُفن فيها ووضع شفتيه على القبر، وكان ديدرو قد خاض معركة مع روسو من خلال كتابه الأخير (تعال في حكم كلود ونيرون) فجاء بصفحات الكتاب ومزقها أمام القبر ونثرها وهو يصرخ: «إلى روح معلمي جان جاك روسو الخالد، فليسدل النسيان ستائره».

دفن في جزيرة بارمنفيل في مقبرة للغرباء، لكن بعد مرور خمس سنوات على الثورة الفرنسية التي بشّر بها ووضع مبادئها، قررت الجمعية التشريعية الفرنسية نقل رفاته إلى مقبرة العظماء في احتفال كبير، ليدفن فيها إلى جانب

عدوه اللدود فولتير.

ما الذي يجب أن تقرأه لجان جاك روسو؟

- في العقد الاجتماعي، ترجمة: عبدالعزيز لبيب.
- دين الفطرة، ترجمة: عبدالله العروي.
- الاعترافات، ترجمة: خليل رامز سركيس.
- إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ترجمة: نظمي لوقا.
- أحلام يقظة جوال منفرد، ترجمة: ثريا توفيق.
- أصل التفاوت بين الناس، ترجمة: عادل زعيتر.

وماذا بعد عن مصادر جان جاك روسو في العربية؟

- جان جاك روسو.. حياته ومؤلفاته وغرامياته، تأليف: نجيب المستكاوي.
- جان جاك روسو.. حياته وكتبه، تأليف: محمد حسين هيكل.
- روسو مقدمة قصيرة، تأليف: روبرت ووكلر، وترجمة: أحمد محمد الروبي.

-24-

الفيلسوف الذي أراد أن ينافس بلزاك برواية عن الاقتصاد

في واحدة من ضواحي لندن، كان فريدريك أنجلز ابن العائلة الأرستقراطية ينتظر بفارغ الصبر أن يطلع على مسودات الجزء الأول من كتاب صديقه الذي أطلق عليه عنوان (رأس المال)، إلا أن صديقه كارل ماركس والذي يعاني من مصاعب مالية لا تنتهي يناوله بدلاً من ذلك رواية بلزاك الشهيرة (التحفة المجهولة)، ويطلب منه أن يقرأها: «هذه القصة تحفة مفعمة بالسخرية المبهجة أشد البهجة». الدهشة تسيطر على أنجلز الذي اعتقد أن صديقه الحميم يسخر منه، فما علاقة بلزاك برأس المال؟ كانت الرواية تتحدث عن الرسام الشهير فرينهوفر الذي يمضي عشر سنوات وهو يعمل على لوحة أراد لها أن تحدث ثورة في الفن، وحين يسمح أخيرًا لأحد زملائه أن يرى اللوحة، يتعجب هذا الزميل الشاب من الوقت الذي ضيّعه فرينهوفر من أجل لوحة هي عبارة عن خليط من الأشكال والألوان العشوائية.

«لا شيء في لوحتي»، صرخ فرينهوفر وهو ينقل ناظريه بين اللوحة وزميله.

- ماذا فعلت؟ سأله الشاب.

قال بقوة وهو يصرخ: «ألا ترى شيئًا فيها؟ أيها المهرج! أيها الوغد! من الذين جاءوا بك إلى هنا؟ هل تريد أن تهزأ بي؟ قل لي أجبني! إنني صديقك،

هل أفسدت لوحتي؟»

حدّق فرينهوفر في لوحته للحظة، ثم راح يترنح: لا شيء... لا شيء. وقد عملت عشر سنوات». ووقع على الكرسي مجهشًا بالبكاء.

وبحسب ما يكتب أنجلز فيما بعد حول كتاب (رأس المال) فإن قصة بلزاك تركت أثرًا كبيرًا على صديقه ماركس، وكان يتذكرها كلما سأله أحد أن يطلعه على المسودات الأولى لكتابه (رأس المال) فيرد: «لا، لا يزال عليّ أن أضع بعض اللمسات الأخيرة. البارحة خيِّل إلي أنني انتهيت منها، لكن صباح هذا اليوم اكتشفت خطئي».

منذ عام ١٨٤٦ كان كتاب (رأس المال) قد تأخر كثيرًا عن موعد نشره. كتب ماركس إلى الناشر: «لن أدفعه إلى المطبعة قبل أن أضع اللمسات الأخيرة». وبعد مرور اثنتي عشرة سنة لم يكن الكتاب قد قارب الاكتمال، وراح يفسِّر للمقرّبين منه سبب هذا التأخير قائلاً: «الأمر بسيط، لأن المرء ما إن يشرع في تنظيم الموضوعات التي كرّس لها سنوات من البحث والدراسة حتى تأخذه هذه الموضوعات بالكشف عن أوجه جديدة تقتضي مزيدًا من التأمل والبحث والدراسة».

كان كارل ماركس ينظر إلى نفسه على أنه شاعر وأديب قبل أن يكون فيلسوفًا، وقد كتب لأنجلز في عام ١٨٥٦: «والآن ففيما يتعلق بكتابي الجديد -يقصد رأس المال- سوف أفضي إليك بالحقيقة الواضحة. مهما تكن العيوب القائمة في الكتاب، فإن ميزته ستكمن في أنه عمل فني بامتياز، لقد تطلّعت إلى الشعراء والروائيين أكثر مما تطلعت إلى الفلاسفة والمحللين الاقتصاديين باحثًا لديهم عن تبصرات في دوافع البشر ومصالحهم المادية». وقد ظل ماركس على اعتقاده بأن لدى الأدباء الكبار تبصرات بالواقع الاجتماعي تتعالى على تحيزاتهم الشخصية. ويكتب أنجلز في رثاء ماركس: «لم يكن

يطمح إلى أن يكتب بحثًا فلسفيًا أو اقتصاديًا تقليديًا. كان طموحه أكثر جرأة وهو أن ينافس كبار الأدباء». ويصف ألتوسير كتاب (رأس المال) بأنه واحد من الأعمال الأدبية الفريدة، ويضع ماركس إلى جانب بتهوفن وتولستوي وديستويفسكي وغويا وأبسن ونيتشه ممن صنعوا لهذا العالم قدرًا كبيرًا من الرأسمال الروحي الذي ما نزال نعتاش عليه.

***

في الخامس عشر من أيار عام ١٨١٨ يولد كارل هينريغ ماركس في مقاطعة غرب ألمانيا. في تلك السنة ينشر شوبنهاور كتابة الشهير (العالم كإرادة وتمثل) وهو الكتاب الذي أثار ضجة كبرى، ولا يزال من أهم ما أنتجته الفلسفة الغربية في عصرها الحديث، الأمر الذي دفع مترجمًا وباحثًا كبيرًا مثل عبد الرحمن بدوي إلى أن يخصّص كتابًا عن شوبنهاور يكتب فيه: «كان حرًا كأوسع ما تكون الحرية بإزاء السلطات الثلاث، فلم يحفل بالسياسة على الإطلاق. وإن كان نصيرًا للنظام ولهذا أبغض الثورة التي قامت في ألمانيا عام ١٨٤٨، لأن فيها إخلالاً بالنظام». وفي السنة نفسها تظهر شخصية فرانكشتاين في الرواية التي وضعتها ماري شيللي، والتي ستؤثر كثيرًا على ماركس المراهق، مثلما أثّرت به رواية والتر سكوت (إيفانهو) التي شغلته أسئلتها عن البطل الفرد أثناء فترة شبابه، وعندما يصبح عمره أربع سنوات يتوفى سان سيمون أول من آمن بفكرة التطور وأن المجتمع لا يثبت على حال، وهي الفكرة التي ناقشها ماركس فيما بعد من خلال نقده لمبدأ سان سيمون القاضي بأن الاشتراكية والعدالة يمكن أن تتحققا على يد مستبد مستنير، ويُقال إنه ظل يمطر نابليون بالرسائل يناشده بأن يحقق العدالة الاجتماعية في أوروبا.

ولا نعرف أشياء كثيرة عن طفولة كارل ماركس باستثناء اللمحات التي

كتبتها ابنته إيليانور. كان غلامًا قويًا، متين البنية، حيوي الذهن، ودون أن يكون كارل عبقرية مبكرة بكل معنى الكلمة، فقد أظهر منذ صباه المبكر ذكاءً حادًا جدًا، وتخبرنا شقيقته الكبرى أن كارل لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره لكنه كان يتحدث مع أبيه عن الأخلاق والحرية وعن الله، وكانا يقضيان أوقاتًا طويلة يتناقشان حول أفكار فولتير وقصائد غوته. وفي تلك السن قرأ شكسبير، وأعجب بسيرفانتيس وحفظ مقاطع مطوّلة من إلياذة هوميروس. وكان والده يأمل أن يستخدم ابنه مواهبه العقلية في خدمة الناس، أما أمه فقد كانت تأمل أن يساعد الحظ ابنها فيصبح صاحب مال وفير.

يدرس ماركس الشاب القانون في جامعة بون تنفيذًا لرغبة والده، لكنه يكتشف الفلسفة التي ستكون ميدانه الأساسي، ومعها يقول في رسالة إلى حبيبته -وزوجته فيما بعد- جيني إنه وجد ما يبحث عنه أخيرًا. في الفلسفة يكتشف أستاذه الأول هيغل معلم الفلسفة الألمانية المطلق وسرعان ما ينضم إلى جماعة الهيغليين الشباب، يكتب لوالده أنه يريد أن يترك القانون، فقد أحدث هيغل تقلباته في نفسه وهو يريد أن ينتهي من هذا القلق الذي يعيشه: «لقد قرأت شذرات من فلسفة هيغل التي كان تناغمها اليالكتيكي الغريب والحاد ليروق لي، كنت أريد أن أغوص مرة أخرى في محيط هيغل». بعد عام يكتشف بالصدفة نصوص فيورباخ الأستاذ الذي طُرد من الجامعة لأنه انتقد هيغل بقسوة، فيما ينكب ماركس على دراسة شتى الفلسفات يضع قواعد لدور الفيلسوف في المجتمع، هذا الفيلسوف الذي يجب عليه وهو يقول الحقيقة أن يُسهم في تغيير المجتمع.

وفي حين كان كارل ماركس يتنقل من النزعة العقلانية إلى الرومانتيكية ثم إلى الهيغلية، فإن صديقه المقبل ورفيقه في وضع أسس الفلسفة المادية،

فريدريك أنجلز استطاع أن يصل إلى نفس التصورات والمفاهيم، ولكن عبر معاناة مع عائلته التي كانت ترى في الفلسفة والفكر نشاط عبثي.

ولد أنجلز في الثامن والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٢٠ في الشطر الصناعي من ألمانيا، وكان ينتسب إلى عائلة من الصناعيين الكبار، وبخلاف عائلة ماركس ذات العقلية المتحررة، فإن عائلة أنجلز كانت ذات نزعة رجعية، وقد اضطر أنجلز منذ سنوات شبابه الأولى إلى الكفاح بضراوة ضد هذه العقلية التي لا ترى في الحياة سوى المال، وعند بلوغ أنجلز الرابعة عشرة أرسلته العائلة إلى كلية البريفيدا، والتي تعتبر آنذاك من الكليات المتميزة، وشأن والد كارل ماركس كان والد أنجلز مع اعترافه بمزايا ولده، يحس بالصدمة لطبيعته المختلفة جذريًا عن أشقائه، وكان يخشى أن تؤدي هذه الاختلافات إلى اضطراب روحه وخراب مستقبله.

ونظرًا لأن أنجلز لم يكن يجد في عائلته تفهمًا لرغباته في الدراسة والعمل والحرية الشخصية، فقد كان يحس بالعزلة وكان ينطوي على نفسه، وقد قالت امرأة عجوز كانت تقطن بالقرب من منزلهم، إنها شاهدته يسير في النهار حاملاً مصباحًا في يده قائلاً إنه يفتش مثل ديوجين عن الحقيقة.

***

الشاب ماركس الذي جاء إلى باريس عام ١٨٤١ ليجرِّب حظه في الصحافة، يصادف شابًا أصغر منه بعامين، يرتبطان منذ اللحظة الأولى بصداقة تنتج عشرات المؤلفات. إنه فريدريك أنجلز، في تلك السنة يقرأ ماركس كتاب فيورباخ الشهير (جوهر المسيحية) الذي يؤكد فيه، من أجل السماح بارتقاء مجتمع إنساني يجب على الفلسفة أن تجد امتدادها في السياسة القادرة وحدها على تحرير الإنسان من اغترابه بإلغاء الملكية. ولهذا كما يقول فيورباخ يجب توحيد البشرية المعذبة والبشرية المفكرة المضطهدة أي

العمال والمثقفين. ويجب تحويل الدولة جذريًا لأنها ليست كما يظن هيغل تجسيدًا لمطلق فوق الطبقات، بل انعكاسٌ للعلاقات الاقتصادية والقانونية والاجتماعية، ويزداد عشق ماركس لفيورباخ وسيؤرخ أنجلز لهذا التأثير الذي مارسه هذا الفيلسوف على تطور الهيغليين الشباب الفكري: «كانت الحماسة عامة شاملة وأصبحنا جميعا أتباعًا لفيورباخ في الحال».

في عام ١٨٤٢ يكتب ماركس أولى مقالاته السياسية بعنوان (الشيوعية) التي يعتبرها غرامشي فيما بعد الأساس الذي بُنيت عليه الفلسفة المادية، في هذه المقالة يشرح ماركس للمرة الأولى مفهوم الشيوعية ويُعيد أصولها إلى الفيلسوف أفلاطون، في تلك السنة يعكف مع زميله أنجلز على مراجعة كتب سان سيمون وتسحرهما مقولات برودن التي كان يوجهها ضد الملكية: «ما هي الملكية؟ إنها ترفٌ مرفوضٌ».

ويرى ماركس عندئذ أن الاقتصاد أساس لكل العلوم الاجتماعية، ولا شيء يمكن الإفلات من قوانينه، فيقرّر التصدي لاشتراكية سان سيمون الطوبائية ليبتدع الاشتراكية العلمية فيكتب: «إن الفعل الذي يبني المنظومات الفلسفية في دماغ الانسان هو نفسه الذي يبني سكك الحديد بيد العمال».

ويذهب بعيدًا فيقرر التصدي لمعلمه الأول هيغل، فينشر كتابه الشهير (نقد فلسفة هيغل في الحقوق) حيث يقترح قلب الجدل الهيغلي لوضعه على قدميه أي الانطلاق ليس من النظريات، وإنما من ظروف الحياة الواقعية، ويصوغ لأول مرة فكرة أن الوظيفة التاريخية للبروليتاريا هي قلب الرأسمالية، ويكرر على خلاف هيغل أن الدولة ليست هي التي تُسيِّر التاريخ، بل التاريخ هو الذي يُشكل الدولة، وأن الإنسان لا يتمكن من التحرر إلا بأفعاله وليس بنزوة مُحسن أو بإرادة دكتاتور متنور إذ لا يمكن للثورة أن تأتي إلا من خلال طبقة اجتماعية محرّرة بامتياز.

عام ١٨٤٩ يصل ماركس إلى لندن، كان يبلغ من العمر واحدًا وثلاثين عامًا، متزوج من جيني فون، ابنة موظف، بقيت معه لنحو أربعين عامًا شريكته الوفيّة تقاسمه فترات الفقر والحرمان وسوء الحظ. لم يعش من أولادهما الستة غير ثلاثة، ومن هؤلاء الثلاثة انتحر اثنان. ومما لا شك فيه أن ثلاث سنوات من الشدائد المتناهية قد لوّنت آراء ماركس، وتعد مسؤولة عن الحدّة والثورية في كتابته. ولم ينقذ أسرة ماركس من الموت الحقيقي جوعًا سوى المساعدات المالية، في كثير من المرات من صديقه فريدريك أنجلز. وكان دخل ماركس الوحيد مما يكسبه جنيهًا واحدًا في الأسبوع يتسلمه من صحيفة نيويورك تريبيون، وبعض الأجر المتقطع من كتابة بعض الموضوعات القصيرة.

وبرغم البؤس والدائنين الملحّين، والمرض والحاجة التي أحاطت به، لكنه كان كعادته يذهب إلى مكتبة المتحف البريطاني لفترات تصل إلى ست عشرة ساعة في اليوم، يجمع الكميات الهائلة من المواد لمؤلفهِ الذي سيكون عنوانه (رأس المال) الذي استغرق إعداده أكثر من ثماني عشرة سنة. أما أنجلز الذي كان يعيل عائلة ماركس في تلك الأثناء، فقد يئس من إكمال الكتاب وقال: «اليوم الذي تذهب فيه النسخة الخطّية إلى المطبعة، سأسكر حتى الصباح»، واعترف ماركس بأن ذلك الكتاب اللعين كان أشبه بـ «كابوس حقيقي».

في أواخر عام ١٨٦٦، أرسلت النسخة الخطية للجزء الأول إلى هامبورغ. وفي أوائل السنة التالية خرج الكتاب المطبوع من المطبعة باللغة الألمانية. ولم تكن هناك ترجمة إنكليزية له إلا بعد نحو عشرين عامًا. وأول ترجمة إلى لغة أخرى على ضوء أحداث المستقبل كانت باللغة الروسية في عام ١٨٧٢.

كان الكتاب يروي التاريخ الاقتصادي للعالم وتاريخ البشرية، ووفقًا لماركس فهو في المقام الأول قصة استغلال طبقة لأخرى. ففي عصور ما قبل

التاريخ، كان هناك مجتمع قبائلي أو مجتمع لا طبقي، أما في العصور التاريخية فيقول ماركس: «تكوّنت الطبقات وصارت جموع السكان البشرية، أولاً عبيدًا ثم خدمًا للحالة الإقطاعية، ثم عبيدًا بالأجر لا يمتلكون شيئًا في العصر الرأسمالي».

اعتقد ماركس أن النتيجة النهائية لنضال الرأسمالي وشغبه هي زيادة الأرباح والاحتكار، لأن «أحد الرأسماليين يقتل الكثيرين دائمًا». تختفي الطبقة المتوسطة عندما يلتهم كبار الرأسماليين صغارهم، وأخيرًا تبقى حفنة من كبار الرأسماليين تواجه جموع العصاميين، وعندما يأتي ذلك الوقت، يجد العصاميون فرصتهم. وتصف إحدى فقرات كتاب (رأس المال) الأكثر حيوية والجديرة بالتذاكر، الخطوات المؤدية إلى حل المشكلة التي تواجه العمال.. إنها الثورة البروليتارية.

لم ينشر في حياة ماركس سوى الجزء الأول من (رأس المال) فبعد موته في عام ١٨٨٣ أخذ أنجلز النسخ الخطية للجزءين الثاني والثالث. فظهر الجزء الثاني في عام ١٨٨٥ والثالث في عام ١٨٩٤ قبل موت أنجلز بعام واحد، ويضمان تنقيحات واستعمالات للنظريات الأساسية الخاصة «بتداول رأس المال» و«عملية الإنتاج الرأسمالي ككل».

***

لا يعود انتصار ماركس في الحياة إلى قدرته الفكرية فقط، فقد كان لا بد أن ينهار بسبب ضغوط الحياة بشكل أو بآخر، لولا الصديق الذي وجده في فريديك أنجلز، ذلك الصديق الذي بدأنا نفهم إخلاصه وتضحيته من خلال المراسلات التي نشرت بعد موتهما. فلم يكن لصداقتهما مثيل في التاريخ، فهي لم تعرف شيئًا من المنافسة وحب الذات، فكلما كان فكرهما يصبح واحدًا، ظل كل منهما هوية منفصلة وإنسانًا مستقلاً.

كان مظهرهما من الخارج مختلفًا جدًا، فقد كان أنجلز الألماني الأشقر الطويل يعتني بملابسه ويحافظ على استقامة قامته، وكان عضوًا محترمًا في بورصة مانشستر، لامعًا في التجارة، وفي مسرّات الحياة البرجوازية من صيد الثعالب إلى حفلات أعياد الميلاد. أما ماركس فقد كان قوي البنية ذا عينين سوداوين وشعر كثيف أسود، ولم يكن يهتم بمظهره، كان يستنفد قواه في العمل الفكري الذي كاد لا يترك له وقتًا لابتلاع وجباته الغذائية، مما أحدث أثرًا سلبيًا على صحته. كان ماركس غير عملي في المسائل الصغيرة، لكنه كان يبدي براعة في الأعمال الكبيرة. فلم يكن يستطيع إدارة أمور بيت صغير، لكنه كان لا يُجارى في قدرته العبقرية على حشد جيش وقيادته إلى الأمام ليغير به وجه الأرض.

أدرك أنجلز منذ البداية تفوق ماركس العبقري، ولم يطمح إلى لعب أي دور غير دور الشريك الثاني، غير أنه لم يكن مجرد مفسّر لماركس، بل كان دائمًا معاونًا مستقلاً، ويملك قدرة فكرية مختلفة. ونجد ماركس يكتب بعد عشرين عامًا من لقائهما الأول: «أتعلم أنني أولاً وقبل كل شيء أتوصل إلى الأشياء ببطء، وأنني ثانيًا أتبع خطاك على الدوام». فيما يكتب أنجلز في وصف صديقه ماركس بأنه: «موسوعة حية، مستعد للعمل في أي ساعة من ساعات الليل والنهار، مليء بصفاء الذهن، سريع في الكتابة، ونشيط نشاط شيطان».

***

ما الذي يجب أن تقرأه عن ماركس؟

- كيفية تغيير العالم.. حكايات عن ماركس والماركسية، تأليف: إريك هوبزباوم، وترجمة: حيدر حاج إسماعيل.

- مخطوطات كارل ماركس، ترجمة: محمد مستجير مصطفى.
- لماذا كان كارل ماركس على حق؟ تأليف: تيري إيغلتون، وترجمة: ثائر ديب.
- كارل ماركس أو فكر العالم، تأليف: جاك أتالي، وترجمة: محمد صبح.
- رأس المال لكارل ماركس.. سيرة، تأليف: فرنسيس وين، وترجمة: ثائر ديب.
- كارل ماركس حياته، تأليف: فرانز مهرنغ، وترجمة: خليل الهنداوي.
- كارل ماركس، تأليف: ميشيل لوفافر، وترجمة: محمد عيتاني.

***

وماذا بعد عن مصادر ماركس وأنجلز في العربية؟

- ماركس، تأليف: روجيه غارودي، وترجمة: جورج طرابيشي.
- رسائل ماركس وأنجلز، إصدار دار التقدم.
- أنجلز.. مقدمة قصيرة، تأليف: تيريل كارفر، وترجمة: صفية مختار.
- أنجلز، تأليف: غريس كارلتون، وترجمة: إلياس مرقص.
- قراءة في رأس المال، تأليف: لوي ألتوسير، وترجمة: أنطوان حمصي.
- ماركس وأنجلز، تأليف: أوغست كورنو، وترجمة: محمد عيتاني.
- أقدم لك ماركس، تأليف: مايكل ريوس، وترجمة: إمام عبد الفتاح إمام.
- مختارات ماركس وأنجلز، إصدار دار التقدم.

-25-

كيف تصبح وجوديًا؟

«كرهت طفولتي وكل شيء بقي منها». ربما كانت هذه أكثر العبارات قسوةً ومرارةً يكتبها شخص عن حياته، فما بالك وأن صاحب هذه الكلمات هو أشهر شخصية ثقافية وفكرية عاشت في القرن العشرين. جان بول سارتر المولود عام ١٩٠٥، يكتب مذكراته التي نشرها عام ١٩٥٤ بعنوان (الكلمات) وفيها نجد هجومًا عدوانيًا على معظم أفراد العائلة؛ الأب الذي كان موته: «أكبر ضربة حظ. لم يكن عليّ أن أنساه»، أو الأم التي أصرّت على أن تحيطه بعالم من الخجل وأن تلبسه ثياب البنات في صغره، أو المجتمع الذي يسلب الإنسان حريته منذ طفولته، ولم يستثنِ من هجومه سوى جده الذي تعلق به: «إنه صاحب التأثير الأكبر على نشأتي».

في مذكراته يكتب سارتر تعريفًا لطفولته: «كنت ذلك الوحش الذي يصنعه الكبار وهم آسفون كل الأسف». في هذا الكتاب الذي أسماه «سيرتي الذاتية» يقسّم سارتر حياته مثل فصول الكتاب إلى قسمين أساسيين، الأول بعنوان (القراءة) والثاني (الكتابة)، ويفسّر لنا في الصفحات الأولى من السيرة كيف أنه في طفولته وجد نفسه محاطًا بالكتب، يقرأها وقد لا يفهمها: «بدأتُ حياتي، كما سأنهيها على الأرجح، وسط الكتب. ففي مكتب جدي كان ثمة كتب في كل زاوية ومكان. وكان من الممنوع على أيٍّ كان أن يدنو من المكتب، في ذلك الحين لم أكن بعد قد تعلمت القراءة، لكنني تعلمت تبجيل

الكتب. كنت أراها مثل الحجارة المصقولة المرصوصة، سواءً صُفّت جالسة أو منحنية، مكدسة إلى بعضها البعض فوق رفوف المكتبة، أو موضوعة بكل نبل بعيدة عن بعضها البعض. كان يخالجني شعور غامر بأن ازدهار عائلتنا معلق بها».

يتذكر سارتر أنه فقد أباه وكان عمره خمسة عشر شهرًا، لتضطر أمه إلى العودة إلى منزل أبيها تشارلز شفايتزر، وكان هذا الجد معلم لغة ومؤلف كتاب مدرسيّ باللغة الألمانية. أصبحت الأم آن ماري ربة منزل أبويها دون أجر، وكانوا يعاملونها معاملة الأطفال، ولزامًا عليها الامتثال لتعليمات والدها وأمها ورغباتهما. ويكتب سارتر في (الكلمات): «عندما كانت صديقاتها القديمات يدعونها إلى العشاء، كان عليها أن تطلب الإذن مقدمًا، وأن تتعهد بأنها ستعود قبل العاشرة».

وكعادة الأطفال الصغار، يخبرنا سارتر في مذكراته أنه قطع عهدًا على نفسه أن يتزوج أمه عندما يكبر، ليخلصها من حياة العبودية التي تعيشها في بيت أبويها. إن سارتر الطفل الصغير يرى في معاملة جديه لأمه صورة من صور الاستغلال الذي تمارسه الطبقة البرجوازية: «اعتادت أن تدعوني فارسها المصاحب، ورجلها الصغير، كنت أقول لها كل شيء، وصفت لها كل ما رأيت، منحت نفسي مشاعر أملاً بالحصول على متعة مشاركتها فيها، كانت لنا خرافاتنا، وعاداتنا في الحديث وطرائفنا، اعتدت أن أمشي بصحبتها مظهرًا الصلابة، يدي بيدها، واثقًا من قدرتي على حمايتها».

كان جد سارتر كما يصفه لنا رجلاً طويل القامة وسيمًا، ويصفه بأنه: «يشبه الإله الأب كثيرًا، حتى إنه غالبًا ما كان ينجذب إليه». ورغم أنه كان رجلاً صارمًا، فإنه سرعان ما أخذ يكرّس معظمه وقته لحفيده، وهو ما جعله يحبسه في البيت حتى بلغ سن العاشرة، وكان يوفر له المعلمين الخصوصيين،

ومنعه من الاختلاط بأقرانه من الأطفال. ورغم هذا يرى سارتر أنه كانت هناك ميزة عظيمة في سجنه البيتي هذا، ألا وهي المكتبة الكبيرة التي كانت في غرفة جده والأخرى في غرفة جدته، والتي كانت أمه تقرأ له القصص منها: «بدأت حياتي بالكتب، وكما سأنهيها دون شك وسط الكتب» يقول سارتر. وقد شكّلت الكتب كل حياته، ونراه في الثالثة من عمره يتعلم القراءة، وكان الجد هو من أعلن أن مصير هذا الطفل سيرتبط بالكتب والكلمات، وأن مهنته ستكون الكتابة. وكان في السابعة من عمره حين أجلسه جده قبالته ليقول له: «من المفهوم بالطبع أنك ستصبح كاتبًا، وأن من الواجب تنبيهك إلى أن الأدب لا يملأ معدة إنسان». بعد سماعه هذه الكلمات اتخذ سارتر قراره وحدّد اختياره للعمل الذي سيمتهنه في المستقبل. يكتب سارتر بعد ذلك بسنوات: «ما زلت أكتب، وما عساي أن أفعل؟»

كان أصغر من تقدّم لنيل شهادة الفلسفة في مدرسة المعلمين العالية، وحين حاصره الأساتذة بالأسئلة سخر منهم وهو يتطلع من النافذة: «أستطيع أن أجادل نيتشه وأعلّمه كيف يمكن للإنسان أن يكون حرًا باختياره». تتحقق نبوءته ويصبح أشهر فلاسفة القرن العشرين، ولم تجتمع لمفكر غيره الشهرة وقوة التأثير والتنوع في الكتابة. أصبحت الوجودية معلمًا من معالم العصر الحديث، تسربت من الكتب لتدخل إلى المقاهي وشاشات السينما والنوادي الليلية، وتفشّت فلسفته حتى اعتقد دراويش كارل ماركس أن الرجل سيسحب البساط من صاحب (رأس المال)، مما دفع روجيه غارودي إلى أن يكتب بعد صدور مؤلف سارتر الضخم (نقد المنطق الديالكتيكي): «يبدو هذا الكتاب أشبه بالتحدي لموقف الماركسية من الفلسفات الأخرى». وبرغم العديد من الكتب التي صنفت سارتر باعتباره فيلسوف الوجودية، فإن الرجل وهو الذي كتب أصعب كتاب في الفلسفة

(الوجود والعدم) يرفض أن يكون فيلسوفًا، فقد ظلّ إلى اللحظة الأخيرة من حياته يعتبر نفسه مفكرًا، ويعتبر الوجودية فكرةً كما أخبرنا في آخر كتبه (نقد المنطق الديالكتيكي) عن الماركسية التي توقفت والتي سيعاد إحياؤها من خلال الوجودية. وكان سارتر قد أصدر من قبل في سلسلة كتبه (مواقف) كتابًا بعنوان (المادية والثورة). سلسلة مواقف قدّمتها دار الآداب مترجمة إلى العربية في سبعة أجزاء، وهذا الجزء كان من ترجمة أحد أبرز أساتذة الفلسفة في الوطن العربي عبد الفتاح الديدي. تحدّث فيه عن الخطر الذي أصاب الماركسية والذي أسماه «الكسل الفكري»، وهو يعترض على المقولة التي يؤكد أصحابها أن الماركسية قد اكتملت ولم يعد هناك من جديد يُكتشف، حيث يرى أن الفكر هو حالة متحركة لا تقبل السكون، وأن الماركسية حين تتعرض للتثبيت فإنها تصبح جامدة. ويرى سارتر في الأحزاب الشيوعية أنها أنكرت الماركسية، لأن الماركسية منذ نشأتها لم تتقولب أو تتجمد، لكنها نجحت في تفسير الظواهر الإنسانية والاجتماعية والتاريخ، فإذا بالماركسيين حسب قوله يحاولون إنكار كل تقدم. ويتساءل سارتر ما معنى هذا الجمود الفكري؟ ليصل إلى نتيجة يقول فيها: «إن الماركسيين اكتشفوا صبيحة عام ١٩٥٦ إنهم لم يكونوا ماركسيين قط بل كانوا ستالينيين فقط، ونراه يشن هجومًا كبيرًا على أفكار ستالين التي قال إنها تلاعبت بفكرٍ نبيلٍ وهو الفكر الماركسي، فيصدر كتابه الشهير (شبح ستالين). وفي هذا الكتاب يحاول أن ينازع الماركسيين على تراث ماركس، فهو يؤمن بأن الوجودية ظهرت واستمرت لأن الماركسيين جمدوا الماركسية، والغريب أن سارتر في حوار أجراه معه موريس كرانستون - ترجمه إلى العربية أحد دعاة الفلسفة الوجودية في العالم العربي مجاهد عبدالمنعم مجاهد - يقول لمحاوره إنه سنة ١٩٢٥ أخذ في قراءة كتاب (رأس المال) لماركس آنذاك ولم يفهم منه شيئًا، فكرر المحاولة بعد عام لأن الذي كان يعنيه ليست قراءة ماركس وإنما فهمه».

في مسرحيته (جلسة سرية) يقول سارتر على لسان غارسيان: «لقد تركت حياتي في أيديهم». لم يترك سارتر حياته في أيدي قرّاء الفلسفة ومحبي الأدب فقط، لكنه ترك لهم عالمًا رحبًا من الكلمات والأفكار والمعارك السياسية والأهم النضال في سبيل الفكرة، أليس هو القائل: «كل فكرة صحيحة هي انتصار».

***

أتذكّر أنني في منتصف السبعينيات كنت متلهفًا لقراءة كتب سارتر، ومن سوء حظي أن أول كتاب يقع بيدي كان مجلدًا ضخمًا بعنوان (الوجود والعدم)، مرفق به عنوان فرعي يقول إن هذا الكتاب هو بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، ترجمة عبد الرحمن بدوي. لم أستطع حل لغز المقدمة التي كتبها المترجم وفيها أسماء لم أسمع بها من قبيل: هوسرل وهايدجر، وحاولت أن أجد ضالتي في كتاب صغير كتبه الصحفي المصري أنيس منصور بعنوان (الوجودية)، فوجدته يوصينا نحن الذين نريد الاقتراب من قلعة سارتر أن: «أيسر الطرق في الفلسفة الوجودية هو القراءة عن المذهب الوجودي، وبعد ذلك يجيء الاقتراب من الفلاسفة الوجوديين، أما الذهاب إلى الفيلسوف مباشرةً فإنه صعب والأفضل أن نذهب إلى معارفه أو أصدقائه أو جيرانه».

لقد تعددت المحاولات لتبسيط فلسفة سارتر. وكان الفيلسوف الفرنسي نفسه يحاول أن يبسّط مقولاته، ومن الطريف أن عميد الأدب العربي طه حسين حين قام بأول محاولة لتقديم سارتر إلى العربية في منتصف الأربعينيات واجه هجومًا شديدًا من أشهر صحفيي مصر آنذاك محمد التابعي الذي كتب في افتتاحية مجلة (آخر ساعة) من أن «الوجودية اتجاه منحل ضد الأخلاق، يدعو للإلحاد والفردية والتفكيك الاجتماعي».

كانت رواية (الغثيان) التي أصدرها سارتر عام ١٩٣٨ أولى المحاولات

لنشر المذهب الوجودي السارتري. كان قد قدّمها إلى دار النشر تحت عنوان الكآبة، لكن الناشر غيّر العنوان إلى الغثيان دون أن يرجع للمؤلف. وفي هذه الرواية سنكتشف أن سارتر هو أول فيلسوف يجد طريقة نحو فلسفة وجودية تستخدم الأدب، كالروايات والمسرحيات والقصص القصيرة وسيناريوهات الأفلام، واستخدام هذه الأشكال الأدبية في فهم الوجود الإنساني وتسليط الضوء على الحياة التي نعيشها، وكما تقول سيمون دي بوفوار أن سارتر هو: «الفيلسوف الذي جعل الذاتية والوجود الإنساني موضوعًا أدبيًا شيقًا».

عندما نشرت (الغثيان) في فرنسا حققت نجاحًا كبيرًا، وسرعان ما أصبحت الشخصية الرئيسية في الرواية أنطوان روكنتان شخصية معروفة ومألوفة وشهيرة في الثقافة الغربية، وجزءًا أساسيًا في الفلسفة الحديثة، بل إن روكنتان أصبح أداة للتعبير عن الحالات المزاجية والأفكار التي تميّز الحياة الإنسانية المعاصرة.

فمن هو روكنتان؟ يخبرنا ألبير كامو في مقاله الشهير عن (الغثيان)، والذي كان سببًا في صداقة قوية جمعت بين الفيلسوفين أن «روكنتان هو سارتر بلحمه ودمه» فهو يشبهه من عدة أوجه، فعمره قريب من الثلاثين، ومنحدر من أسرة متوسطة، ويعيش على دخل ضئيل من إرث صغير، وهو مفكر وكاتب. لكن روكنتان طويل القامة وليس قصيرًا كسارتر، وذو شعر أحمر، وليست له روابط أسرية أو وظيفة أو أصدقاء. ورغم أسفاره الكثيرة ومغامراته العاطفية، فإنه يشعر بالضجر والملل. لكنه رجل حر، ويستطيع أن يفعل ما يريد.

ويتفق جميع النقاد والمهتمين بدراسة أعمال سارتر على أن (الغثيان) تضمّنت كل فلسفة سارتر الوجودية. فهي تعالج مشكلة الحرية، ومشكلة

العلاقة مع الآخر، وطبيعة الفكر، وموقف الإنسان من الوجود، بالإضافة إلى معالجتها لقضية الخيال ومشكلة الفن.

تدور أحداث الرواية في أواخر عشرينيات وأوائل ثلاثينيات القرن الماضي، في منطقة فرنسية على ساحل البحر أسماها سارتر «بوفي». وقد كتبت القصة على شكل يوميات دوّنتها الشخصية الرئيسية روكنتان، الذي يكرّس جهوده لكتابة سيرة حياة شاب من القرن الثامن عشر هو السيد «دي دولبو». في الرواية يواجه روكنتان مشكلة، فـ: «كل شيء موجود وجد بلا سبب، ويستمر في الوجود من خلال الضعف، ويموت عن طريق المصادفة»، ولأنه لا وجود لأحد، سواءً إله أو إنسان، يقدم تبريرًا لوجود العالم، فإن روكنتان يشعر بالغثيان، ويبرّر سارتر الأمر بالقول: «نحن نشعر بالغثيان لأننا أكلنا أو شربنا أكثر مما ينبغي، وروكنتان يشعر بالغثيان لأن هناك في الكون أشياء أكثر مما ينبغي أن تكون، لا فقط من حوله، وإنما داخل ذاته».

فمتى بدأ كل هذا الغثيان يجتاح روكنتان؟ يتذكر بطل الرواية أنه في يوم السبت كان هناك بعض الأطفال يلعبون على حافة الماء، وكان مثلهم يرغب بإلقاء حصاة في البحر: «لكني عندما التقطت الحصاة رأيت شيئًا ما جعلني أشعر بالقرف». ويخبرنا سارتر أن بطل روايته وجد نفسه وجهًا لوجه مع الوجود المجرد العاري للحجر، فغلبه الغثيان. ومنذ تلك اللحظة وهو يعيش في كآبة وغثيان وإحساس بالدوار والقلق المتزايد يومًا بعد يوم. وأصبح الغثيان ملازمًا له حتى في المقهى الذي كان بمثابة الملاذ الآمن له. يقول روكنتان: «الغثيان ليس بداخلي، بل أنا الذي أصبحت بداخله». لقد كانت هناك الكثير من الموضوعات الغريبة التي اعترضت حياة روكنتان، لكنه لم يستطع أن يقرر ما إذا كانت هذه الموضوعات ثابتة في حقيقتها أم متغيرة، كان روكنتان ينظر إلى وجهه في المرآة، وفجأة يرى هذا الوجه وكأنه وجه

سمكة، ويخبرنا أن حياته بلا مغامرات، لأن المغامرات قصص، والإنسان لا يعيش قصة، إن إنسانًا يتلو هذه القصة، فيما هناك إنسانًا آخر يرى هذه القصة من زاوية أخرى، وعندما يكون هناك شخص ما يعيش الحدث فإن هذا الشخص لا يستطيع التفكير في الحدث، فالإنسان إما أن يعيش الحدث أو يقص الحدث، ولكنه لا يستطيع أن يعيش ويقص الحدث في آن واحد. إن الأشياء تحدث في الحياة ولكن ليست بالصورة التي يريدها روكنتان. «تفكيري هو أنا ذاتي: ولهذا السبب لا يمكنني أن أتوقف. أنا موجود بما أفكره... ولا يمكنني منع نفسي من التفكير. وفي هذه اللحظة بالذات ويا للهول إذا كنت موجودًا، فما هذا إلا لأن وجودي يرعبني. إنه أنا، أنا الذي يسحبني بعيدًا من العدم الذي أنشدّ إليه: الكراهية والاشمئزاز من الوجود ليسا سوى بعض الوسائل التي تجعلني موجودًا، تجعلني غائصًا في الوجود. الأفكار تولد من وراء ظهري مثل دخان، أحسها تولد خلف رأسي... فإن أذعنت سأراها تتحول إلى أمامي لتتراقص أمام عينيّ، وأنا أذعن دائمًا، فيما تتضخم الفكرة، تتضخم وها هي في ضخامتها تملأني في كليتي وتجدد وجودي». ليست الفقرة السابقة سوى بضعة سطور من واحدة من أقوى الروايات الفرنسية التي صدرت في أواخر مرحلة ما بين الحربين في فرنسا. رواية قُرئت وتُرجمت على نطاق واسع، لتعزز في ذلك الوقت المبكر، سمعة ومكانة الفيلسوف الشاب الذي كان جان بول سارتر، محوّلة إياه من مفكر ومنظر في النقد، إلى كاتب روائي. ومع هذا صعب على كثيرين يومها أن يعترفوا لسارتر بأنه روائي، بالنظر إلى أن شكل هذه الرواية ومضمونها لم يكونا معهودين تمامًا. فهي كانت أقرب إلى أن تكون يوميات حميمة لكاتب، اكتشف وهو يحاول أن يغوص في عمل كتابي تاريخي، ليس فقط عجزه عن تحمّل الوجود، بل خواء هذا الوجود، خواء يسبب له من الغثيان ما يكفي لأن يخدمه عنوانًا لكتابه هذا.

***

في كتابه الشهير (الوجود والعدم) والذي نشره عام ٣٤٩١، ومثل معظم كتب سارتر فقد تم كتابة الجزء الأكبر من هذا الكتاب في مقاهي باريس وسط جو مليء بأصوات الزبائن ورائحة السجائر والقهوة، ويذكرنا هذا الكتاب الضخم بكتاب هيغل الشهير (ظاهريات الروح) ويقترب من مؤلف هيدغر (الوجود والزمان). وفي (الوجود والعدم) حيث يكشف لنا سارتر فيه عن مجمل فلسفته الوجودية وفيه يخبرنا سارتر أن الوجودية تضع الإنسان في مرتبة أعظم في الحياة، فهو المسؤول عن وجوده ولهذا فإن الخطوة الأولى لوجودية سارتر هي أن تجعل في حوزة كل إنسان ما يكون عليه ثم تترك مسؤولية وجوده الكاملة لتسقر على كتفيه، غير أن سارتر عندما يبين بأن الإنسان مسؤول عن فرديته بأضيق معانيها، يعني أن الإنسان مسؤول عن جميع أفراد الجنس البشري. كما أن سارتر عندما يقول إن الإنسان باختياره لنفسه إنما يختار جميع أفراد الجنس البشري، ويضيف قائلاً: «ليس ثمة عمل من بين أعمالنا لا يخلق في نفس الوقت الذي يخلق فيه الإنسان الذي نريد أن يكون صورة للإنسان، كما نقدر أن من الواجب أن يكون عليها، فاختيارنا لكوننا على هذه الحالة أو تلك فيه تأكيد في الوقت ذاته لقيمة ما نختار لأننا لا نستطيع أن نختار الشر بل هو الخير الذي نختاره دائمًا، كما أنه ليس هناك شيء يمكن أن يكون جيدًا بالنسبة لنا من دون أن يكون جيدًا بالنسبة للجميع. فإذا كان الوجود يسبق الماهية - الجوهر - ونحن نريد أن نوجد في نفس الوقت الذي نضع فيه صورتنا، فإن هذه الصورة ستكون مقبولة وصالحة للجميع ولعصرنا بأكمله». ثم يذكرنا سارتر أن حريتنا ليست عبثية أو فردية، إنها حرية الاختيار الحر للكفاح من أجل أن نصبح أحرارًا، أي حرية الالتزام الذي يخوض معركة التاريخ لا حرية المتفرج

من فوق قمة وحيدة خارج التاريخ». إن وجود الإنسان عند سارتر يسبق ماهيته «هو» أنه يوجد أولاً، ومن مشروعه الحر الذي يكون عليه وجوده يستطيع أن يختار ماهيته، ولهذا فسر الإنسان في فلسفة سارتر لا يكمن في العقد النفسية والاجتماعية التي يعاني منها وإنما في حريته الخاصة وقدرته على المقاومة يكتب سارتر: «المسؤولية المطلقة في الوحدة المطلقة. أليس هذا هو التعريف الكامل للحرية؟» وهذه الحرية تنقلنا إلى بعد آخر يناقشه سارتر في معظم أعماله ويعني به المسؤولية، فحيث يكون الإنسان حرًا، يكون مسؤولاً عن هذه الحرية في جميع مجالات الوجود، فالإنسان الذي حكم عليه بأن يكون حرًا، يحمل ثقل العالم على كتفيه، كما أنه مسؤول عن نفسه وعن العالم، وأن حريتنا ليست سوى اختيارنا الحر أن نناضل لكي نصبح أحرارًا: «نحن في هذا العصر في قفص حديدي، فيجب أن نتحد لتحطيم القضبان، ولكي نكتسب الحق في التأثير في الناس الذين يناضلون، يجب أولاً أن نشارك في معركتهم».

هذا هو سارتر، أو بالأحرى جان بول سارتر الوجودي، صاحب ثلاثية الحرية، المسؤولية، الالتزام. وهي الثلاثية التي شكلت فلسفته الوجودية والتي عبرت أروع تعبير عن أزمة العصر الحديث وعن أزمة الإنسان المعاصر. وأن نفهم سارتر كما تقول أريس مردوخ في كتابها الممتع (سارتر المفكر العقلي الرومانسي) الذي ترجمه إلى العربية الراحل شاكر النابلسي: «أن نفهم شيئًا بالغ الأهمية عن عصرنا الحاضر».

***

إنها باريس عام ١٩٧٨، وجان بول سارتر العظيم الذي سيطر على الحياة الثقافية والفكرية في تلك المدينة طوال أربعة عقود من الزمن، أصبح ضريرًا ومريضًا، أنهكت جسده تطرفات الحياة، لكنه لا يتوقف عن التفكير. هو

اليوم معترف به عملاقًا فلسفيًا، كاتبًا غزير الإنتاج وعنيدًا ومتعدد المواهب وناشطًا سياسيًا جاب العالم لمناصرة الثورات التي قامت في الخمسينيات. وقد اهتم طوال حياته بالقضية الرئيسية التي نذر نفسه لها وهي حرية الإنسان ودفاعه عن هذه الحرية، وكان تأثيره الشعبي وجاذبيته جعلت منه أول فيلسوف غربي تناقش فلسفته في المقاهي بحيث سيطرت وفاته يوم ١٥ نيسان عام ١٩٨٠ على معظم صحافة العالم فقد كرست صحيفة اللوموند عددها الكامل لذلك اليوم للحديث عن سارتر وحياته وأعماله، ووصفته الفيغارو بأنه «المعلم الأخير للفكر الغربي»، وأعلنت صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي لومانيتيه برغم الخلاف معه أن: «بموته يموت الرجال الأحرار فعلاً عن عصرنا»، وانهالت برقيات التعزية والتقدير من جميع أرجاء العالم. وذهب الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان إلى المستشفى وجلس جلسة وداع دامت ساعة أمام نعشه صامتًا، فيما امتلأت شوارع باريس بأكثر من ربع مليون شخص في مسيرة ضخمة إلى المقبرة، فقد أصبح هذا الرجل النحيل تجسيدًا لحياتهم وثقافتهم.

***

ما الذي يجب أن تقرأه لسارتر؟

- الكينونة والعدم، ترجمة: نقولا متيني.
- ما الأدب، ترجمة: محمد غنيمي هلال.
- الغثيان، ترجمة: سهيل إدريس.
- الكلمات، ترجمة: محمد مندور.
- قضايا الماركسية، ترجمة: جورج طرابيشي.
- الوجودية مذهب إنساني، ترجمة: عبدالمنعم حفني

- ثلاثية دروب الحرية، ترجمة: سهيل إدريس.
- الذباب، ترجمة: محمد القصاص.

وماذا بعد عن مصادر سارتر في العربية؟

- جان بول سارتر، تأليف: كاترين موريس، وترجمة: أحمد علي بدوي.
- سارتر وسيمون وجهًا لوجه، تأليف: هارلي رولي، وترجمة: محمد حنانيا.
- سارتر بقلمه، تأليف: فرنسيس جانسون، وترجمة: خليل صابات.
- سارتر فلسفة على العصر، ترجمة وإعداد: مجاهد عبد المنعم مجاهد.
- سارتر والفكر العربي المعاصر، تحرير: أحمد عبد الحليم عطية.
- أقدّم لك سارتر، تأليف: فيليب تودي وهوارد ريد، وترجمة: إمام عبد الفتاح إمام.
- سارتر سلسلة أعلام الفكر الغربي، ترجمة: جورج جحا.
- سارتر بين الفلسفة والأدب، تأليف: موريس كريستون، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد.
- سارتر، تأليف: أيريس مردوخ، وترجمة: شاكر النابلسي.
- الغير في فلسفة سارتر، تأليف: فؤاد كامل.

مئة كتاب تجعل منك فيلسوفًا!

وأنا أختتم فصول الكتاب، نظرتُ إلى رفوف الكتب الفلسفية التي وضعتها في مكان مميز، عشرات الكتب التي قرأتها ومئات أخرى لم يتسنَّ لي سوى قراءة صفحات من هنا وصفحات من هناك، وقلت لنفسي لو أنني تفرغت لقراءة الفلسفة، فربما أحتاج إلى ثلاثة أعمار جديدة لأقرأ ما نشر في العربية في هذا الباب الممتع والصعب والمعقد في أحيان كثيرة، ولكن إذا تسنّى لي أن أعيش حتى أبلغ الثمانين عامًا، سأعيد قراءة مئة كتاب في الفلسفة، وعندها يمكن لي أن أقول للآخرين: «دعوني أتفلسف».

كان الفيلسوف الإنكليزي الشهير برتراند رسل يقول: «عندما أشرع في كتابة موضوع فلسفي، فإنني أعود إلى الروايات الممتعة، فقمة آمالي أن أكتب أشياء تشبهها، وألا أكون غامضًا، وأن أشيع النور والمعرفة والمتعة في كل سطر أكتبه».

هذه مئة كتاب أتمنى أن تشاركونني شغفي بها وعشقي لها، وأيضًا تستمتعون مثلما أستمتع بنظريات وحكايات وأحاديث ومعارك دارت على كوكبنا من أجل الخير للبشر جميعًا، ومن أجل نشر المعرفة وإرساء قيم العدالة والحق، وإعلاء شأن العقل.. وهي اختيارات شخصية وبالتأكيد هناك ما هو أفضل منها.

١. بزوغ العقل البشري، تأليف: نورمان بريل، وترجمة: إسماعيل حقي.

٢. المسائل الرئيسية في الفلسفة، تأليف: ألفرد جيلز، وترجمة: محمود فهمي زيدان.

٣. الفلسفة المادية الجدلية، تأليف: دافيد جست، وترجمة: محمد إسماعيل محمد.

٤. الفيلسوف وفن الموسيقى، تأليف: جوليوس بورتنوي، وترجمة: فؤاد زكريا.

٥. الحرية، تأليف: جون ستيوارت ميل، وترجمة: طه السباعي.

٦. جمهورية أفلاطون، ترجمة: فؤاد زكريا.

٧. الإنسان ذو البعد الواحد، تأليف: هربرت ماركيوز، وترجمة: جورج طرابيشي.

٨. مدخل إلى الفلسفة، تأليف: وليم جيمس إيرل، وترجمة: د. عادل مصطفى.

٩. تاريخ الفلسفة في الإسلام، تأليف: ت. ج. دي بور، وترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة.

١٠. المنطق «نظرية البحث»، تأليف: جون ديوي، وترجمة: زكي نجيب محمود.

١١. فلسفتي كيف تطورت، تأليف: برتراند رسل، وترجمة: عبد الرشيد الصادق محمودي.

١٢. العلوم الإنسانية والفلسفة، تأليف: لوسيان غولدمان، وترجمة: د.

يوسف الأنطكي.

١٣. في الحكم المدني، تأليف: جون لوك، وترجمة: ماجد فخري.

١٤. تاريخ الفلسفة الحديثة، تأليف: وليم كلي رايت، وترجمة: محمود سيد أحمد.

١٥. روح الفلسفة الحديثة، تأليف: جوزايا رويس، وترجمة: أحمد الأنصاري.

١٦. دعوة للفلسفة، تأليف وترجمة: داود روفائيل خشبة.

١٧. تكوين العقل الحديث، تأليف: جون راندال، وترجمة: جورج طعمة.

١٨. جبروت العقل، تأليف: جلبرت هايت، وترجمة: فؤاد صروف.

١٩. محاورات ألفرد نورث هوايتهد، تأليف: لوسيان برايس، وترجمة: محمود محمود.

٢٠. مباهج الفلسفة، تأليف: ويل ديورانت، وترجمة: أحمد فؤاد الأهواني.

٢١. فصول في الفلسفة ومذاهبها، تأليف: الفيلسوف جود، وترجمة: عطية محمد هنا.

٢٢. الفلسفة، أنواعها ومشاكلها، تأليف: هنتر ميد، وترجمة: فؤاد زكريا.

٢٣. كتاب الشذرات، تأليف: هيراقليطس، وترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد.

٢٤. الكينونة والزمان، تأليف: مارتن هيدجر، وترجمة: فتحي المسكيني.

٢٥. الزمان الوجودي، تأليف: عبد الرحمن بدوي.

٢٦. رسالة في اللاهوت والسياسة، تأليف: باروخ إسبينوزا، وترجمة وتقديم: د. حسن حنفي.

٢٧. عصر العقل فلاسفة القرن السابع عشر، تأليف: ستيوارت هامبشر، وترجمة: د. كاظم الطحان.

٢٨. الاعترافات، تأليف: جان جاك روسو، وترجمة: خليل رامز سركيس.

٢٩. محاورة ديكارت.. البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعي، تأليف: رينيه ديكارت، وترجمة وتعليق: مجدي عبد الحافظ.

٣٠. تحقيقات فلسفية، تأليف: لودفيغ فيتغنشتاين، وترجمة وتقديم: عبد الرزاق بنور.

٣١. محاورات برتراند رسل، ترجمة: محمد عبد الله الشفقي.

٣٢. الإنسان المتمرد، تأليف: ألبير كامو، وترجمة: نهاد رضا.

٣٣. إرادة القوة.. محاولة لقلب كل القيم، تأليف: فريدريك نيتشه، وترجمة: محمد الناجي.

٣٤. محاورات أفلاطون، ترجمة وتقديم: زكي نجيب محفوظ.

٣٥. محاكمة سقراط، تأليف: آي. إف. ستون، وترجمة: نسيم مجلي.

٣٦. تدهور الحضارة الغربية، تأليف: أوزفالد شبنجلر، وترجمة: أحمد الشيباني.

٣٧. تحطيم العقل، تأليف: جورج لوكاش، وترجمة: إلياس مرقص.

٣٨. الكينونة والعدم، تأليف: جان بول سارتر، وترجمة: نقولا متيني.

٣٩. نقد العقل العملي، تأليف: إيمانويل كانط، وترجمة غانم هنا.

٤٠. الأعمال الفلسفية الكاملة، تأليف: هنري برجسون، وترجمة وتقديم: سامي الدروبي.

٤١. كيفية تغيير العالم.. حكايات عن ماركس والماركسية، تأليف: إريك هوبزباوم، وترجمة: حيدر حاج إسماعيل.

٤٢. ماركس وأنجلز، تأليف: أوغست كورنو، وترجمة: محمد عيتاني.

٤٣. قراءة في رأس المال، تأليف: لوي ألتوسير، وترجمة: أنطوان حمصي.

٤٤. العالم إرادة وتمثلاً، تأليف: آرثر شوبنهاور، وترجمة وتقديم سعيد توفيق.

٤٥. الكلمات والأشياء، تأليف: ميشيل فوكو، وترجمة: مطاع صفدي وآخرون.

٤٦. خوف ورعدة، تأليف: سورين كيركيجارد، وترجمة: فؤاد كامل.

٤٧. العقل والثورة، تأليف: هربرت ماركيوز، وترجمة: فؤاد زكريا.

٤٨. اليسار الفرويدي، تأليف: بول روبنسون، وترجمة: عبده الريس.

٤٩. فينومينولوجيا الروح «ظاهريات الروح»، تأليف: فيلهلم هيغل، وترجمة وتقديم: ناجي العونلي.

٥٠. رسالة في التسامح، تأليف: فولتير، وترجمة: هنرييت عبودي.

٥١. تحقيق في الذهن البشري، تأليف: ديفيد هيوم، وترجمة: محمد محجوب.

٥٢. المطارحات، تأليف: نيقولا ميكافيللي، وترجمة ودراسة: أحمد الشيباني.

٥٣. المبادئ الأولى، تأليف: هربرت سبنسر، وترجمة وتلخيص: د. زكريا إبراهيم.

٥٤. تهافت التهافت، تأليف: ابن رشد، وتحقيق: سليمان دنيا.

٥٥. تقريظ الفلسفة، تأليف: موريس ميرلوبونتي، وترجمة: قزحيا خوري.

٥٦. كتاب الطبيعة، تأليف: أرسطو، وترجمة: عبد الرحمن بدوي.

٥٧. الجانب الديني للفلسفة، تأليف: جوازيا رويس، وترجمة: أحمد الأنصاري.

٥٨. مقال في المنهج الفلسفي، تأليف: ر. ج. كولنجوود، وترجمة: إمام عبد الفتاح إمام.

٥٩. خلاصة القرن، تأليف: كارل بوبر، وترجمة: الزواوي بغورة.

٦٠. الفلسفة علمًا دقيقًا، تأليف: إدموند هوسرل، وترجمة: محمود رجب.

٦١. الفلسفة والسعادة، تأليف: ليزا بورتولوتي، وترجمة وتقديم: أحمد الأنصاري.

٦٢. المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس، تأليف: باركلي، وترجمة: يحيى هويدي.

٦٣. محاضرات في الفلسفة، تأليف: أندريه لالاند، وترجمة: أحمد حسن الزيات.

٦٤. مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، تأليف: ج. بنروبي، وترجمة: عبد الرحمن بدوي.

٦٥. ما هي الفلسفة؟ تأليف: جيل دولوز وفليكس غتّاري، وترجمة: مطاع صفدي.

٦٦. الفلسفة ومرآة الطبيعة، تأليف: ريتشارد رورتي، وترجمة: د. حيدر جاد إسماعيل.

٦٧. روح الشرائع، تأليف: مونتسكيو، وترجمة: أنطوان لويس.

٦٨. عن الحق في الفلسفة، تأليف: جاك دريدا، وترجمة: د. عز الدين الخطابي.

٦٩. مقالة في الميتافيزيقيا، تأليف: غوتفريد فيلهلم لايبنتز، وترجمة: د. الطاهر بن قيزة.

٧٠. الذات عينها كآخر، تأليف: بول ريكور، وترجمة: د. جورج زيناتي.

٧١. الحقيقة والمنهج، تأليف: هانز جورج غادامير، وترجمة: د. حسن ناظم وعلي حاكم صالح.

٧٢. حكمة الغرب، تأليف: برتراند رسل، وترجمة: فؤاد زكريا.

٧٣. منطق أرسطو، ترجمة: عبد الرحمن بدوي.

٧٤. الوجودية، تأليف: جون ماكوري، وترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام.

٧٥. التصوف والفلسفة، تأليف: ولتر ستيس، وترجمة: إمام عبد الفتاح إمام.

٧٦. المذاهب الوجودية، تأليف: ريجيس جوليفيه، وترجمة: فؤاد كامل.

٧٧. ألف باء النسبية، تأليف: برتراند رسل، وترجمة: فؤاد كامل.

٧٨. تربية الجنس البشري، تأليف: إفرايم ليسنج، وترجمة: د. حسن حنفي.

٧٩. عزاء الفلسفة، تأليف: بوئثيوس، وترجمة: د. عادل مصطفى.

٨٠. كتاب الملة ونصوص أخرى، تأليف: أبو نصر الفارابي، وتحقيق: محسن مهدي.

٨١. في الفلسفة الأولى، تأليف: الكندي، وتحقيق: أحمد فؤاد الأهواني.

٨٢. تأهيل إلى الفلسفة للذين ليسوا بفلاسفة، تأليف: لويس ألتوسير، وترجمة: إلياس شاكر.

٨٣. ما قبل الفلسفة، تأليف: جون أ. ولسن وآخرون، وترجمة: جبرا إبراهيم جبرا.

٨٤. الإشارات والتنبيهات، تأليف: ابن سينا، وتحقيق: د. سليمان دنيا.

٨٥. تاريخ الفلسفة في أميركا خلال ٢٠٠ عام، تأليف: بيتر كاز، وترجمة: فؤاد كامل

٨٦. تاريخ الفلسفة بنظرة علمية، تأليف: كارل ياسبرز، وترجمة: د. عبد الغفار مكاوي.

٨٧. فلسفة الأنوار، تأليف: ف. فولغين، وترجمة: هنرييت عبودي.

٨٨. الحلم والواقع، تأليف: نيكولا برديائف، وترجمة: فؤاد كامل.

٨٩. أصل الدين، تأليف: فيورباخ، وترجمة: أحمد عبد الحليم عطية.

٩٠. نداء الحقيقة، تأليف: مارتن هيدجر، وترجمة ودراسة: عبد الغفار مكاوي.

٩١. الأيدلوجية الألمانية، تأليف: كارل ماركس وفريدريك أنجلز، وترجمة: أنطوان حمصي.

٩٢. ماركسية القرن العشرين، تأليف: روجيه غارودي، وترجمة: نزيه الحكيم.

٩٣. نظرية المعرفة، تأليف: زكي نجيب محمود.

٩٤. مدرسة الحكمة، تأليف: عبد الغفار مكاوي.

٩٥. الفلسفة والإنسان، تأليف: حسام محيي الدين الألوسي.

٩٦. العقل والوجود، تأليف: يوسف كرم.

٩٧. رسائل.. مجموعة منتقاة، تأليف: ماكس فيبر، وترجمة: عبد الحفيظ عبد العزيز مسعود.

٩٨. القول الفلسفي للحداثة، تأليف: يورغن هابرماس، وترجمة: فاطمة الجيوشي.

٩٩. جدل التنوير.. شذرات فلسفية، تأليف: ماكس هوركهايمر وثيودور ف. أدورنو، وترجمة: جورج كتورة.

١٠٠. الأورجانون الجديد، تأليف: فرنسيس بيكون، وترجمة: د. عادل مصطفى.

فهرس المحتويات

هذا الكتاب محاولة متواضعة للسؤال عن الفلسفة ورجالها، وكيف استطاعوا أن يغيّروا تاريخ البشرية، وأن يتركوا بصماتهم على حركة المجتمعات. وقد سنحت لي الفرص أن أفكر في كتابة عن الفلسفة، لها ولو قدر بسيط من الوضوح، كتابة تشبه جلساتنا في المقاهي، وقد طلب مني بعض الأصدقاء أن أجمع هذه الكتابات البسيطة في كتاب أسرد فيه تاريخ الأفكار والنظريات التي ساهمت في تغيير نظرتنا إلى العالم والأشياء.

صحيح أنني أردت من خلال هذه الكتابات أن أتسلى، أو أحاول أن أفهم العالم وذاتي بشكل أفضل، لكنني وجدت وأنا أقرأ العشرات من كتب الفلسفة، أن الفلسفة ليست مهمتها أن نفهم الأشياء المحيطة بنا كما أراد ديكارت، ولا تغيير العالم كما أصرّ ماركس، ولكنها -أي الفلسفة- تعلّمنا معنى الحياة، وتساعدنا على قهر المخاوف التي تشلّ حركة الحياة. وتاريخ الفلسفة ورسالتها يستحق منا الإصغاء إلى صوتها لأن الفلسفة تستحق منا الحديث معها بألفة ومتعة.


ISBN 978-1-947836-01-3

